الحركة الأدبيّة في عهد الملك المؤيد
صاحب حماة وابنه الأفضل

من ٧١٠ - ٧٤٢هـ / ١٣١٠ - ١٣٤٢م

إعداد

خضراء ارشود قاسم الجعافرة

إشراف

الدكتور رشدي الحسن

المشرف المساعد

الدكتور سمير الدروبي

الحركة الأدبيّة في عهد الملك المؤيد
صاحب حماة وابنه الأفضل
من ٧١٠ - ٧٤٢هـ / ١٣١٠ - ١٣٤٢م

إعداد

خضراء ارشود قاسم الجعافرة

بكالوريوس لغة عربية، جامعة مؤتة ١٩٨٩

قدّمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في جامعة مؤتة تخصص اللغة العربية وآدابها

لجنة المناقشة

١- الدكتور رشدي الحسن (المشرف) / رئيساً ....

٢- الدكتور عبد الحميد المعيني / عضواً ....

٣- الدكتور حلمي الكيلاني / عضواً ....

تاريخ تقديم الرسالة : ١٩٩٥/٧/٢٥

تاريخ مناقشة الرسالة: ١٩٩٥/٨/٢٢

الإهداء

إلى روح والدي

إلى أمي رمز العطف والحنان والعطاء

إلى زوجي الذي هيأ لي وسائل البحث والدراسة

إلى كل الذين قدّموا لي العون والمساعدة

أقدم هذا العمل ،،،

التمهيد

- حماة، تاريخياً، وجغرافياً، وثقافياً

- أبو الفداء وابنه الأفضـــــل

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة :

موضوع هذه الرسالة «الحركة الأدبيّة في عهد الملك المؤيد صاحب حماة، وابنه الأفضل من ٧١٠-٧٤٢هـ / ١٣١٠-١٣٤٢م». وهو موضوع يستحق الدراسة لأنّه يرتبط بعصرٍ وصف بالإنحطاط، والانحدار، والتدهور، ومثل هذا الوصف قد يكون فيه شيء من التحايل والتجنّي على عصرٍ حفظ تراثاً ضخماً من الكتابات التاريخية، والأدبية، والجغرافية وغيرها.

هذا زيادة على أن المصادر والمراجع الأدبية أشارت إلى المراكز الثقافية في العصر المملوكي وعَدّت حماة مركزاً مهماً من مراكز الثقافة في ذلك العصر.

تتناول الرسالة الأدب في عهد المؤيد وابنه الأفضل من عام ٧١٠هـ-٧٤٢هـ أي أنها تبدأ بتوليّ المؤيد حكم حماة وتنتهي بعزل الأفضل عام ٧٤٢هـ.

وموضوع هذه الرسالة -كما يبيّن عنوانها- يحدّد إطاراً مكانياً وزمانياً، فحماة هي مكان الدراسة، والنصف الأول من القرن الثامن الهجري هو زمن الدراسة.

وقد سبقت هذه الدراسة دراسات أخرى مشابهة لها في موضوعها مثل حياة الشعر في الكوفة ليوسف خليف، والشعر في حلب في العصر المملوكي لأحمد فوزي الهيّب.

وتقع هذه الدراسة في أربعة فصول، اثنان للشعر، والآخران للنثر، يسبقها تمهيد، تناولت فيه باختصار حماة، جغرافياً من حيث أهمية موقعها في منطقة جعلت عدداً من الأدباء يفدون إليها، وفي حماة تاريخياً عرضت تاريخ الأسرة التقوية فيها إلى عهد المؤيد وابنه الأفضل، وعرّفت بشخصية المؤيد وابنه وما يتميزان به من حبٍ للأدباء، وإحياءٍ لسُنّة من سبقهم من الأيوبيين في مجالسهم الأدبية والعلمية.

أما الفصل الأول فيدرس الشعر دراسة موضوعية في عهد المؤيد وابنه لأنّ الشعر موجّه إلى شخص هذين الملكين وموضوعاته هي، المدح، والرثاء، والغزل، والتهنئة، والإخوانيات.

والفصل الثاني يدرس موضوعات الشعر دراسة فنيّة من حيث هيكل القصيدة، والصور الفنية التي جاء بها الشعراء، والأسلوب الشعري، والقوافي، والأوزان، ومدى اهتمامهم بها في المحافظة على التقليد المتّبع فيها، أو التجديد من خلال الموشّحات والأزجال.

والفصل الثالث يعرض بعض الأنواع النثرية في هذه الفترة من رسائل ديوانية، وأدبية، وإخوانية، وحديث عن النثر التأليفي.

والفصل الرابع يتحدّث عن السمات الفنية لهذا النثر، وقد أوليت الرسائل الديوانية أهمية لتوفرها مما ساعد على تحليلها وتوضيح خصائصها، والتشابه واضح بين الشعر والنثر في السمات الفنية خاصة في المحسنات البديعية، والتشبيهات إذ أن النثر في هذا العصر زاحم الشعر في موضوعاته كالوصف، والغزل، وغيرهما.

وتعتمد هذه الدراسة، على مجموعة من المصادر، مثل خزانة الأدب لابن حجة الحموي، وحسن التوسل إلى صناعة الترسل للشهاب محمود، وخريدة القصر وجريدة العصر للأصفهاني، ومفرّج الكروب في أخبار بني أيوب لابن واصل، وتاريخ ابن الوردي، وتعتمد كذلك على مجموعة من المراجع مثل، مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني لبكري أمين، وموسيقى الشعر العربي لإبراهيم أنيس، ودراسة الأيوبي (صفيّ الدّين الحليّ)، والأدب العربي من الإنحدار إلى الإزدهار لجودت الركابي، ودراسة سبانو، مملكة حماة الأيوبية، والأدب في العصر المملوكي لمحمد زغلول سلام.

وأمّا كتاب الدرر الكامنة للعسقلاني، وأعيان العصر للصفدي، وديوان الحليّ، وديوان ابن نباتة، وكتاب المختصر لأبي الفداء، ومهرجان أبي الفداء فكانت من مصادري الرئيسة في هذا البحث.

وهناك دراسات تاريخية وجغرافية تستعين بها الدراسة مثل مملكة حماة في العهد الأيوبي والمملوكي الأول، ومملكة حماة الأيوبية.

وتعدّ هذه الدراسة محاولة جادّة تتخذ من المنهج التاريخي أساساً لها، وتستعين بالمناهج الأخرى لاستكمال جوانبها المتعدّدة، وبخاصة المنهج الفني.

وقد بذلت في هذا البحث ما أستطيع، وأخذ منّي وقتاً طويلاً، ولا أدّعي أن هذا البحث ألمّ بكل جوانب الموضوع، فإن وفّقت فالفضل للّه في ذلك وإلاّ فأرجو المعذرة لاني لم أقصد من وراء هذا العمل إلاّ البحث الجاد، وآمل أن يكون هذا الجهود مقبولاً.

ولا يفوتني أن أتقدّم بالشكر الجزيل لأستاذيّ الفاضلين الدكتور رشدي الحسن المشرف على هذا البحث، والدكتور سمير الدروبي اللّذين لم يبخلا عليّ بالتوجيه والاهتمام والرعاية.

والله ولي التوفيق ،،،

تمهيد :

حماة، إحدى مدن بلاد الشام العريقة، التي شهدت خلال تاريخها الطويل، عدداً من الحضارات.

فقد عُرفت حماة منذ أكثر من ٥٠٠ ألف سنة قبل الميلاد، وتشير المصادر التاريخية إلى تعاقب عددٍ من الحضارات على حكم حماة، نحو: السومريين، والأكاديين، والفراعنة، والأشوريين، والحثيين، والرومان وغيرهم([1]).

«فتح العرب حماة في السنة السابعة عشرة للهجرة على يد أبي عبيدة، وحظيت الشام باهتمام الخلافة الأمويّة، وبخاصة دمشق عاصمة الأمويين، وبعد إنتقال الخلافة إلى العباسيين سنة ١٣٢هـ ونقل العاصمة من دمشق إلى بغداد، أصبحت الشام (دمشق وحماة وغيرها) بعيدة عن نظر الخلفاء، فكان اهتمامهم بهاقليلاً، إذْ يحكمها العمّال بحسب أهوائهم فانحطّ شأنها» ([2]). «وشاركت حماة حمص في الفتن والحروب الأهليّة التي حدثت بين القبائل العربية، في القرن الثاني الهجري وبداية الثالث»([3]).

وفي أواخر العصر العبّاسي خضعت حماة مع مدن الشام لأحمد بن طولون، ثم حكمها الإخشيديون، ثم سيف الدولة الحمداني،وبعد ذلك أصبحت تحت حكم صالح بن مرداس الكلابي صاحب حلب، ثم حكمها عماد الدين زنكي([4])، فصلاح الدين الأيّوبي. وتولّى حكمها بعد ذلك أفراد الأسرة التقوية، وأولهم تقي الدين عمر الذي حكمها من ٥٧٤هـ - ٥٨٨هـ ومن بعده محمد بن تقي الدين عمر من ٥٨٨هـ - ٦١٧هـ، ثم الملك الناصر قليج أرسلان من ٦١٧هـ - ٦٢٦هـ وجاء بعده الملك المظفّر الثاني تقي الدين

---

(١) محمود رزق: عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، مكتبة الآداب، المطبعة النموذجية، ج٣، ص٢٤٣.

(٢) سهيل زكار: مقال (أبو الفداء والبيئة)، مهرجان أبي الفداء، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الإجتماعية، الجمهورية العربية السورية، ص٤٤.

(٣) المصدر نفسه، ص٤٤.

(٤) ابن واصل، جمال الدين محمد (ت٦٩٧هـ): مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال، ج١، ص٤١.

محمود من ٦٤٢هـ إلى ٦٩٨هـ

وقد تبع هذا الحكم التقوي، فترة انقطاع لحكم العائلة التقوية في حماة، بسبب وفاة المظفّر محمود المفاجئة، ولم يوصِ بالحكم بعده لأحد، كما أن الملك الناصر محمد «كان يريد أن يتخلّص من الأمراء والمماليك بإبعادهم عن مصر بتعيينهم في مراكز بعيدة عن مصر، ولذلك أرسل أحد هؤلاء إلى حماة(٥)، وقد استمرت هذه الفترة من» ٦٩٨هـ - ٧١٠هـ

وفي سنة ٧١٠هـ وبناءً على ما وعد به السلطان الناصر محمد بن قلاوون مهنا ابن عيسى بتولية الملك المؤيد على حماة، فقد صدر تقليد بتولية الملك المؤيد حماة على قاعدة الثواب، وذلك بعد خروج حماة من البيت التقوي مدّة إحدى عشرة سنة(٦).

ويمتدّ عهد الملك المؤيد من ٧١٠هـ - ٧٣٢هـ وتكاد تكون هذه الفترة هي العهد الذهبي لملكة حماة من جميع النواحي، كما تميّزت بالإرتباط الشديد، والعلاقات الوطيدة، بين حاكمها والسلطان محمد بن قلاوون الذي يخاطبه بلفظ (أخي)(٧).

وقد أعطيت حماة للملك الأفضل محمد، وهو ابن المؤيد، حيث حكمها من ٧٣٢هـ- ٧٤٢هـ وكان عهده في بدايته سائراً على ما خطّه والده من علاقات وثيقة مع السلطان محمد، لكنّه اضطرب نتيجةً للترويع الذي لقيه الأفضل تارةً من السلطان وأخرى من أمراء المماليك، وبعد الملك الأفضل خضعت حماة لبعض الأمراء المماليك، وبوفاة الأفضل خرجت حماة من حكم الأسرة التقوية التي كان آخرها الأفضل.

أمّا من الناحيّة الجغرافيّة، فإنّ حماة ذات موقع استراتيجي لأنّها تقع على طرف بادية الشام، وتشكّل موقع احتكاك بين البادية والحضر، وهي في منطقة منخفضة من وادي العاصي جنوبي حلب، حيث تشكّل ابتداء المنخفض السوري الإفريقي، الذي يبدأ من حماة ويمتد عبر حوض العاصي إلى جبال لبنان الشرقيّة، وهذا المنخفض كان له

(٥) أحمد غسان سبانو: مملكة حماة الأيوبية، دار قتيبة، دمشق، ص١٠١.

(٦) أبو الفداء، إسماعيل بن علي (ت ٧٣٢هـ): المختصر في أخبار البشر، مكتبة المتنبي، القاهرة، ج٤، ص٦٠.

(٧) العسقلاني، أحمد بن حجر (ت٨٥٢هـ): الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، تحقيق محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة، مصر، ط٢، ١٩٦٦م، ج١، ص٣٩٨.

دوره في تاريخ حماة، فقد جاء حماة معظم الغُزاة من الجنوب(8). ويحيط بها من الجنوب والشمال والغرب جبال عالية، وساعد إحاطة حماة ببعض المراكز الحصينة مثل «شيزر*، وكفرطاب**، وبارين***، ومصياف****، ومرور نهر العاصي بها وسقايته لسهولها»(9) في أن تكون موطن صراع يحاول الجميع الاستيلاء عليها.

وتؤكد بعض المصادر ذلك، فيشير ياقوت الحموي إلى أهمية حماة الكبيرة من حيث حصانتها واتساعها وكثرة خيراتها؛ فيصفها بقوله: «حماة مدينة كبيرة عظيمة، كثيرة الخيرات، رخيصة الأسعار، واسعة الرقعة يحيط بها سور محكم، وفي طرف المدينة قلعة عظيمة وعجيبة، في حصنها وإتقان عمارتها وحُفِرَ خندقها نحو مائة ذراع»(10).

ومن الناحية الثقافيّة، ساهمت مجموعة من العوامل في جعل حماة مركزاً ثقافياً متميزاً منها: الهجوم المغولي على بغداد، وهجرة علمائها إلى حواضر الشام، والإضطراب السياسي في بلاد المغرب، واحتلال الصليبيين معرة النعمان وغيرها من مدن الشام، وزلزال شيزر المدمّر. كل هذه العوامل جعلت العلماء يقصدون حماة ويقيمون فيها وهذه جميعها كانت مواكبةً لحكم المؤيّد في حماة(11).

وشجّع هذا كله اهتمام ملوك حماة بالعلم والعلماء، وهم كلهم أدباء أو شعراء، أو من مُحبّي الأدب والشعراء والعلماء، فحاكمها الأول تقي الدين عمر بن شاهنشاه كان شاعراً مجيداً، وابنه المنصور الأول محمد صنّف عدّة مصنّفات منها مضمار الحقائق،

(8) أحمد زكريا: جولة أثرية في بعض البلاد الشامية، دار الفكر، سوريا، ط2، 1984، ص37.

* شيزر: قلعة بالشام بينها وبين حماة يوم. (ياقوت، معجم البلدان، ج3، ص383).

** كفرطاب: وهي بين المعرة وحلب، (ياقوت، معجم البلدان، ج4، ص470).

*** بارين: مدينة تقع بين حلب وحماة من جهة الغرب، (ياقوت، معجم البلدان، ج1، ص320).

**** مصياف: حصن مشهور قرب طرابلس، (ياقوت، معجم البلدان، ج5، ص144).

(9) أحمد غسان سبانو: مملكة حماة الأيوبية، ص22.

(10) الحموي، شهاب الدين، ياقوت بن عبدالله (ت626هـ): معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1984، ج2، ص300.

(11) عمر موسى باشا: الأدب في بلاد الشام عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك، دار الفكر، سوريا، ط1، 1989، ص119، 120.

وكان محباً للعلم والعلماء، والملك المظفّر محمود ابن الملك المنصور كان يحب أهل العلم ويستخدمهم(١٢).

وأصبحت حماة بذلك منذ أن تولّى حكمها الأيوبيون مكاناً يُغري الأدباء والعلماء بالسفر إليها من كافة أنحاء البلاد.

وفي عهد المؤيد وابنه كان العصر الذهبي للثقافة في حماة، فالمؤيد أديبٌ، ومؤرخ، وجغرافي، وهو إلى جانب ذلك كله يشجّع العلماء ويحب أهل العلم والأدب، فيقرّبهم إليه، وأصبحت حماة في عهده محجاً للعلماء يقبلون عليها من كل مكان، واستمر هذا في عهد الأفضل ابن الملك المؤيد.

وعُرفت حماة بمكتباتها العامة ومساجدها ومدارسها، وكانت المدارس التي وجدت فيها منذ العصر الأيوبي في أغلبها تؤمّن الإقامة والنوم والطعام لطلابها، ويتبع المدرسة مكتبة ضخمة في كثير من هذه المدارس. ومن هذه المدارس «المدرسة الخاتونية، والمدرسة المخلصية، والثورية الكبرى» (١٣).

ويرفد هذا الاهتمام الرسمي من قِبَل الحكّام، اهتمام خاص باقتناء الكتب، فهناك المكتبات الخاصة التي اشتهر منها مكتبة أبي الفداء التي كانت في مسجده وتحتوي على سبعة آلاف كتاب أوقفها للقراءة، ومكتبة قاضي حماة ابن البارزي الذي أصبح له من الكتب ما لم يجتمع لأهل عصره، ويقدّر ثمنها بمائة ألف درهم(١٤).

---

(١٢) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر، ج٣، ص٨٠، ١٧٣.

(١٣) عبد الودود برغوث، مجلة الحوليات السورية، العدد ١٦/١٩٦٦م، ص٦٣.

(١٤) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر، ج٤، ص١٢٤.

- أبو الفداء وابنه الأفضل :

أبو الفداء، هو إسماعيل بن الملك الأفضل علي، وجدّه هو الملك المظفر تقي الدين محمود، حكم من سنة ٦٢٦هـ إلى وفاته سنة ٦٤٢هـ ابن الملك المنصور الأول محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه، وشاهنشاه هو شقيق صلاح الدين(١٥). وكانت ولادته في جمادى الأولى من سنة ٦٧٢هـ بدمشق بعد أن رحل أهله إليها من حماة بسبب غزو التتار لبلاد الشام، نشأ نشأة جيّدة، فهو من أسرة حاكمة ومثقفة، فيها عددٌ من الشعراء والأدباء. وشارك مبكراً في الحياة العسكرية والسياسية في حماة، وأشار إلى هذه المشاركات في كتابه «المختصر في أخبار البشر»، فذكر فتح حصن المرقب عام ٦٤٨هـ، وفتح طرابلس عام ٦٨٨هـ، وفتوح عكا عام ٦٩٠هـ(١٦).

وثقافة المؤيد يدلّنا عليها، ما كان يتمتع به من قدرة على الإبداع، ودوره في نهضة حماة، فقد تعلّمَ علوم عصره وتتلمذ على أيدي علماء عصره، ذكر منهم في المختصر ابن واصل، والأبهري حيث تعلّم على أيديهما بعض العلوم، وحفظ القرآن الكريم، وقرأ كتباً عدّةً. واتسمت ثقافة المؤيد بالموسوعيّة؛ فشملت فنوناً عدّة، حيث أجمعت المصادر على أنه كان «رجلاً عالماً جامعاً لأشتات العلوم، أعجوبة من عجائب الدنيا، ماهراً في الفقه والتفسير والأصلين والنحو وعلم الميقات والفلسفة والمنطق والطب والعروض والتاريخ، شاعراً ماهراً صنّف في كل علم تصنيفاً» نفيساً أو تصانيف، وكان معتنياً بعلوم الأوائل اعتناءً كبيراً(١٧).

ومن مقوّمات شخصيته الأساسيّة، أخلاقه الحميدة التي جعلت أهل حماة يحبّونه لعدله وبعده عن الشره وحب المال، فقد كان رجل ثقافة وعلم أكثر منه رجل سياسة. ولعلّ هذه الأخلاق ارتبطت بالروح العلمية لأبي الفداء التي اكتسبها من ممارسته للعلم مما جعله يحيط نفسه بعددٍ من العلماء والأدباء يشجعهم ويعينهم؛ ويقول ابن

---

(١٥) العسقلاني: الدرر الكامنة، ج١، ص٣٩٦.

(١٦) أبو الفداء : المختصر، ج٤، ص٨، ٢١ وما بعدها.

(١٧) الاسنوي، جمال الدين عبدالرحيم (ت ٧٧٢هـ): طبقات الشافعية، تحقيق عبدالله الجبوري، بغداد، مطبعة الارشاد، ط١، ج١، ص٤٥٦.

الوردي في هذا: «ولقد رأيت جماعةً من ذوي الفضل يزعمون أنه ليس في الملوك بعد المأمون في حماة ملكاً أفضل منه رحمه الله»([18]).

«وقد ظلّ في حماة مكباً على التصنيف، وحماة محط رحال أهل العلم من كل مكان، وأصبحت في عهده قبلة العلماء والشعراء»([19])، بل إنّ بعض الباحثين يرى أنه لم يكن للملوك في العصر المملوكي شعراء مجيدون إلاّ في حماة، حيث بقيت عادة استقبال الشعراء وتشجيعهم زمناً طويلاً([20]). وحضر إليه العديد منهم، وبعضهم أقام عنده في حماة، وممن وفد عليه عماد الدين الأسنوي، إذْ أعجب به ورتّب له رواتب تكفيه وولاّه مدارس([21])، وانقطع إليه أمين الدين الأبهري فأجرى له ما يكفيه([22]). ولعلّ أشهر شعراء عصره الذين انقطعوا إليه ابن نباتة المصري، أمير شعراء المشرق وله فيه وفي ابنه الأفضل قصائد مدح كثيرة([23])، وله العديد من المؤلفات كتبها للملك المؤيد منها: مطلع الفوائد ومجمع الفرائد، الفاضل من إنشاء الفاضل، رسالة السيف والقلم، سجع المطوق وديوان شعر في مدح المؤيد وابنه، ورافقه الصفيّ الحليّ الذي أكثر من القصائد في هذا الملك وابنه.

ووفد إلى حماة بنو الأبرز ومنهم: محمد بن عبدالرحيم بن إبراهيم البارزي، وهبة الله البارزي، ومن مؤلفاته، شرح سقط الزند، وشرح نظم الحاوي، ووفد إلى

(١٨) أبو الفداء: المختصر، ج٤، ص١٠٤.

(١٩) ابن تغري بردي، يوسف جمال الدين (ت٨٧٤هـ): المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٨٤، ج٢، ص٤٠٠.

(٢٠) مارون عبود: أدب العرب، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٧٩، ص٣٧٣.

(٢١) الأسنوي: طبقات الشافعية، ج١، ص٤٥٥.

(٢٢) العسقلاني: الدرر الكامنة، ج١، ص٣٩٨؛ أمين الدين الأبهري، أمين الدين عبدالرحمن الفقيه الشافعي، كان له معرفة بالرياضي، والوقت، ومشاركة في فنون، أقام عند المؤيد وعندما مات المؤيد رحل إلى حلب، مات ٧٣٣هـ (المختصر، ج٤، ص١٠٩).

(٢٣) محمود رزق سليم: عصر سلاطين المماليك، ج٣، ص٢٥٠.
محمد بن قاضي بارين، محمد بن يعقوب، أخذ العلم عن البارزي، كان مُحكماً بالمعاني والبيان، اختصر المصباح في المعاني وسمّاه، ضوء المصباح وشرحه (الدرر، ج٥، ص٥٧).
ابن النحوية، محمد بن بكتوت، كان كاتباً عند الملك المؤيد (ت٧٣٥هـ)، (الدرر الكامنة، ج٤، ص١٦).

حماة أيضاً، محمد بن قاضي بارين، وكان عارفاً بالحاوي الصغير، وابن النحويه، وموسى بن بصيص المجوّد الكاتب، والمقري، الفيومي صاحب المصباح المنير(٢٤).

وقد اهتم المؤيد في كتابه المختصر بالعلماء والأدباء ومؤلفاتهم مما يعكس اهتمامه بالعلم والأدب بل إنه «فرّق كتبه على المهتمين بها من الذين يقدرونها»(٢٥).

ويشير صاحب الدرر الكامنة إلى إقبال الشعراء على المؤيد بقوله: «ولا أعرف في أحدٍ من الملوك من المدائح ما لابن نباتة والشهاب محمود وغيرهما فيه إلا سيف الدولة وقد مدح الناس غيرهما من الملوك ولكن اجتمع لهذين من الكثرة والإجادة من الفحول ما لم يتّفق لغيرهما»(٢٦).

أمّا مؤلفات أبي الفداء، فقد تعدّدت، زيادة على شعره الذي لم يصل إلينا كله، وأول كتبه هو «المختصر في أخبار البشر»، وهو كتاب في التاريخ العام يقع في أربعة أجزاء، تناول فيه ما قبل الإسلام، وتاريخ الإسلام إلى عام ٧٢٩هـ ويسرد حوادث كل عام على حدة، مع ذكر ما يتصل بهذا العام. وقد اهتمّ بشكل خاص بحوادث مصر والدول المعاصرة، وتكمن أهمية الكتاب في ذكره الفترة الخاصة بحياة المؤلف والأحداث التي عاصرها، وقد وصفه حاجي خليفة بقوله: «وهو من الكتب التي لا يقع مثلها ولا يسع الإنسان جهلها فإنه اختاره من التواريخ التي لا تقع إلا للملوك»(٢٧). والكتاب الآخر في الجغرافية واسمه «تقويم البلدان»، وقد اتمّ مسودّته عام ٧٢١هـ وظلّ يزيد عليه حتى وفاته، وقد أخذ مادته من عدد كبير من المؤلفات القديمة في الجغرافية، ولكنه أضاف إليه عدداً من المعلومات الجديدة عن البلدان غير الإسلامية مما

---

(٢٤) موسى بن بصيص، كاتب مجوّد، كتب الخط المنسوب، اخترع قلماً سمّاه المعجز، (ت٧١٦هـ)، (الدرر: ج٥، ص١٤٧).

الفيومي، أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، اشتهر بكتابة المصباح المنير، رحل إلى حماة، ولمّا بنى الملك المؤيد جامع الدهشة قرّره في خطابته (الأعلام: ج١، ص٢٢٤).

(٢٥) عبدالرحمن حميدة، مقال (أبو الفداء)، مهرجان أبي الفداء، ص١٥.

(٢٦) العسقلاني: الدرر الكامنة، ج١، ص٣٩٨.

(٢٧) حاجي خليفة، مصطفى بن عبدالله (ت ١٠١٧هـ): كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار الفكر، ج٢، ص١٦٢٩.

يكشف لنا عن قدرته في التأليف(٢٨). وله أيضاً نظم الحاوي الصغير للقزويني في فروع الفقه الشافعي الذي شرحه شرف الدين هبة الله البارزي، وشرح الكافية في النحو لابن الحاجب(٢٩). ومن كتبه «الكناش» وهو كتاب اختلفت الآراء حوله فبعضهم يذكره على أنه كتاب طب، ورأي آخر يذكره كتاب في النحو والتصريف وغير ذلك(٣٠). وله أيضاً «مختصر اللطائف السنيّة في التواريخ الإسلامية». وله «التبر المسبوك في تواريخ الملوك»، وكتاب العروض والأطوال، والموازين في الفلك، ونوادر العلوم وغيرها من الكتب(٣١).

وإلى جانب هذا التوجّه العلمي، فقد عُني المؤيد عناية خاصة ببناء المدارس والمساجد والمعاهد العلمية في حماة مثل: «الروشن في الجامع النوري وهو معهد علمي، و «المدرسة المؤيدية»، و «جامع الدهشة»(٣٢).

وقد كانت علاقة المؤيد بالملك الناصر قوية، حيث كان المؤيد مخلصاً له ومحافظاً على ولائه، وقد سار في هذا على منهج من سبقه من أفراد الأسرة التقوية الذين اتّسمت علاقتهم بالملك المنصور والد الناصر محمد «بالمجاملة اللطيفة والمراعاة من كلا الجانبين وهذه الصلة ساعدت في أن يحتفظ ملوك حماة، بمملكة أيوبية أكثر من مائة سنة بعد زوال ملك الأيوبيين من سوريا ومصر»(٣٣). واستطاع المؤيد على الرغم من المؤامرات والشكاوى التي قام بها أمراء المماليك، أن يحكم حماة مدّة اثنين وعشرين

---

(٢٨) كراتشوفسكي، أغناطيوس: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، نقله صلاح الدين عثمان، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٩٨٧م، ص٣٩٢.

(٢٩) حاجي خليفة: كشف الظنون، ج٢، ص١٣٧٤.

(٣٠) كامل عياد، مقال (المؤرخ أبو الفداء ونزعته العلمية)، مهرجان أبي الفداء، ص٧٦.

(٣١) الزركلي، خير الدين: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط٦، ١٩٨٤، ج١، ص٣١٩.

(٣٢) قدري الكيلاني، أبو الفداء ملكاً وعالماً، مهرجان أبي الفداء، ص٢٦١.

(٣٣) محمد حمادة: الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٠، ص٤٠ وما بعدها.

(٣٤) أبو الفداء: المختصر، ج٤، ص٤٥ وما بعدها. سيس: تقع بين انطاكية وطرطوس، وسكانها من الروم في ذلك

عاماً.

وكما شارك المؤيد في الحياة العلمية والسياسية، فقد ساهم في الحياة العسكرية منذ أن كان صغيراً، فشارك في الإغارة «على بلاد سيس، وقتال التتر عندما دخلوا الشام، وتجريد العساكر إلى حلب»([٣٤]). وكان وفاة الملك المؤيد في حماة عام ٧٣٢هـ.

أمّا آخر ملوك حماة (الأفضل) فقد حرص المؤيد على أن يصحبه معه عندما كان يزور مصراً في بعض المرّات وذلك تمهيداً منه لتعريف الملك الناصر به([٣٥]).

ولد الملك الأفضل محمد بن إسماعيل في مستهل رجب سنة ٧١٢هـ، ولم تذكر المصادر شيئاً عن نشأته، ولكنها تطرّقت لبعض صفاته، ومنها: أنه كان جواداً إلاّ أنه لم يكن محظوظاً في جوده وكان سليم الباطن وكثير التأدب مع من يخاطبه([٣٦]).

وبعد وفاة والده قدم إلى مصر وأقبل على السلطان الناصر في مصر بعد وساطة قامت بها أمّه عند تنكّر نائب الشام، من أجل تنصيب محمد في حكم حماة فوافق الملك الناصر على ذلك([٣٧]).

أمّا ثقافته فيشير إليها الصفدي، حيث يذكر أنه وهو في حماة تولّى نظر المدرسة التقوية بدمشق نيابة عنه. ويذكر أنه تردّد إليه وسمع كلامه غير مرّة وما كان يخلو من استشهاد على ما يقوله بشعر مطبوع أو مَثَل مشهور([٣٨]).

وقد سار على منهج والده من حيث الموالاة للسلطة والمساهمة العسكرية في

(٣٤) أبو الفداء: المختصر، ج٤، ص٤٥ وما بعدها. سيس: تقع بين انطاكية وطرطوس، وسكانها من الروم في ذلك الوقت، (ياقوت، معجم البلدان، ج٣، ص٢٩٧).

(٣٥) المصدر نفسه، ص٩٦.

(٣٦) الصفدي، خليل بن أيبك (ت ٧٦٤هـ): أعيان العصر وأعوان النصر، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، فرانكفورت، المانيا، يصدرها فؤاد سركين، نسخة مخطوطة مصوّرة عن مجموعة عاطف أفندي، مكتبة السليمانية، استانبول، مطبعة شتراوس، ج١، ص٤٤٤.

(٣٧) المقريزي، أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ): السلوك لمعرفة دول الملوك، تصحيح محمد مصطفى زيادة، المجلد ٢، الجزء الأول، المجلد ٢، ص٣٤٤.

(٣٨) الصفدي: أعيان العصر وأعوان النصر، ج١، ص٤٤٤ (مخطوط).

الحملات. وكانت حياته لا تخلو من الاضطراب، إذْ تذكر المصادر أنه «ما زال في حماة مروعاً مدّة حياته تارة من جهة السلطان، وأخرى من جهة العربان يأخذون من إقطاعاته، وتارة من جهة أقاربه يشكون عليه، بل إنه تنسّك في بعض الأوقات، ورفض سماع الشعر، ومنع من الإنشاء فيه والإنشاد، ثم يعود وتنقلب حالته هذه إلى بعض القسوة في الحكم، وعندما تُوفيَ يترك من الدَّيْنِ فوق الألفي ألف درهم(٣٩).

ووفد على بلاطه شعراء مثل: ابن نباتة، الصفي الحلي، ونادمه كثيراً الشاعر المصري محمد بن طرطور، ومدحه الشهاب الحاجبي أيضاً، وكانت وفاته عام ٧٤٢هـ

(٣٩) الصفدي : أعيان العصر، ج١، ص٤٤٤ وما بعدها.

محمد بن طرطور، شمس الدين أبو عبدالله المصري، أقام عند الملك الأفضل وكان له منه راتب (ت٧٦١هـ) (الدرر الكامنة، ج٤، ص٢٠٦) .

الشهاب الحاجبي، أحمد بن محمد الحاجبي، المعروف بابن الحاجبي المصري، مدح الملك الأفضل بقصيدة طويلة، وله نظم ونثر ومشاركة في فنون (ت٧٤٩هـ) (ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٢، ص١٨٨).

الفصل الأول

الشعر في عهد الملك المؤيد وابنه الأفضل

من (٧١٠ - ٧٤٢هـ)

دراسة موضوعية

أ- المــــدح

ب- الرثـــــاء

ج- الغـــــزل

د- التهنئـــة

هـ- الوصـــف

أ- الإخوانيات

ب- الطرديّات

الفصل الأول

الشعر في عهد الملك المؤيد وابنه الأفضل

من ٧١٠ - ٧٤٢هـ

اهتمَّ الأيوبيون بالأدب كثيراً ويشهد بذلك لهم كثرة مجالسهم الأدبية والعلمية؛ فاكتسبوا بذلك ملكة أدبية، ويؤكد لنا هذا صاحب الخريدة بقوله: «وما في بني أيوب من اشتغل بالأدب، أو قرأ شيئاً من كلام العرب، لكنّهم لمجالسة الأدباء، ومذاكرة العلماء، ومكاثرة الحكماء، عَلموا فَعمِلُوا، وأقبلوا وقبلوا »([1]). وقد اشتهر منهم عددٍ من الشعراء مثل: تاج الملوك بوري بن أيوب الذي كان شاعراً له ديوان شعر، وفروخ شاه بن شاهنشاه، كان شاعراً وشعره مكتوب ومحفوظ، ومن شعره:

إذا شِئتَ أن تُعطيَ الأمُورَ حُقُوقَها ... وتُوقِعَ حُكْمَ العَدْلِ أحسَنَ مَوْقِعَهْ

فلا تَصنعِ المعروفَ مع غَيْرِ أهْلِـهِ ... فَظُلْمُكَ وَضْعُ الشَّيءِ في غيرِ مَوْضِعَهْ([2])

ومنهم أيضاً، الأفضل بن صلاح الدين، والملك المعظم عيسى الذي كان يحبّ الفقهاء ويحرضهم على الاشتغال ويقول: «من حفظ الجامع الكبير أعطيته مائة دينار([3]).

ولم يقلّ ملوك حماة عن سابقيهم في الأدب والعلم، فالملك المظفّر تقي الدين عمر المتوفي عام ٥٨٧هـ كان أديباً شاعراً([4])، وابنه الملك المنصور محمد كان عالماً أيضاً، يحبّ العلماء، وله مصنّفات مثل: المضمار في التاريخ، وطبقات الشعراء، وعنده ما يقرب من مئتي عالم من النحاة والفقهاء([5]).

---

(١) العماد الأصفهاني، صفي الدين عبدالله محمد بن محمد (ت ٥٩٧هـ): خريدة القصر وجريدة العصر، بداية قسم شعراء الشام، تحقيق شكري فيصل ، مطبعة الهاشمية، دمشق، ص٧٩.

(٢) الحنبلي، أحمد بن إبراهيم (ت ٨٧٦هـ): شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق ناظم رشيد، ص٢٣٣.

(٣) المصدر نفسه، ص٢٧٦ وما بعدها.

(٤) أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ج٣، ص٨٠.

(٥) المصدر نفسه، ج٣، ص١٢٥.

وأبو الفداء هو أحد أفراد هذه الأسرة التي اشتهرت بحب الشعر ونظمه وتكريم الشعراء، لهذا فقد سار على طريق من سبقه في حبّه للعلم والعلماء والاهتمام بهم، كما أنه يحيط نفسه بهم، وهو بهذا يعيدنا إلى «عصور العرب السابقة الذين اهتموا بالأدب»(٦)، مثل سيف الدولة الحمداني، وأُسامة بن منقذ وغيرهم.

وقد كان للمؤيد الكثير من هذه المجالس العلمية والأدبية، فقد اجتمع عنده في أحد مجالسه، الأسنوي صاحب طبقات الشافعية، والطبيبان ابن البرهان، وابن القوبع وهما مشهوران، فتكلموا في عددٍ من العلوم أظهر فيها المؤيد مهارته، وتكلّم أيضاً في الطب وذكر صفات بعض النبات وفوائده مما جعل الطبيبان المذكوران يتعجّبان حتى أن ابن القوبع قال: «ما أعلم ملكاً من ملوك المسلمين وصل إلى هذا العلم»(٧).

والمجلس الآخر للملك المؤيد ذكره صاحب الخزانة جمع بين الصفيّ الحليّ وابن نباتة، وعلاء الدين بن مقاتل الزجّال الحمويّ، وقال ابن مقاتل في هذا المجلس زجلاً مشهوراً(٨).

ويدلنا على اهتمام المؤيد بالعلم والأدب، كثرة الوافدين عليه في حماة ونذكر منهم: هبة الله البارزي صاحب المؤلفات الكثيرة، ومن كتبه شرح الشاطية، والشرعة في السبعة، وعمر بن العديم قاضي حماة، وهو شاعر أيضاً، وعلاء الدين بن غانم الشاعر الذي أقام عنده فترة طويلة، وأمين الدين الأبهري الذي كان له معرفة

---

(٦) محمود رزق سليم: عصر سلاطين المماليك، الحلمية، المطبعة النموذجية، ط٢، ١٩٦٢، ج٣، ص٢٤٩.

(٧) الأسنوي: طبقات الشافعية، ج١، ص٤٥٦؛ ابن القوبع: أبو عبدالله عبدالرحمن بن يوسف، تونسي الأصل، سمع الحديث ودرس النحو، كان بارعاً في علوم عدّة (ت٧٣٨هـ) (الدرر، ج٤، ص٢٩٩)؛ ابن البرهان: محمد ابن إبراهيم بن عبدالله، مهر في الكحل وطب العيون وشارك في الحكمة والنجوم (ت٧٤٣هـ) (الدرر، ج٣، ص٣٧٥).

(٨) ابن حجة الحموي، تقي الدين أحمد (ت٨٣٧هـ): خزانة الأدب، شرح عصام شعيتو، دار مكتبة الهلال، بيروت، ط١، ١٩٨٧، ج١، ص٩٤؛ علي بن مقاتل: التاجر الحموي الزجال، ولد ٦٤٤هـ تفرد بنظم الأزجال، وديوانه في مجلدين، (ت٧٦١هـ)، (أعيان العصر، ج٢، ص٢٦٢).

بالطبيعيات، وأسد الحكيم اليهودي*، واشتهر بالجراحة والطب، وقد أوصى له المؤيد ببعض كتبه عند وفاته. وأمين الدين بن قرناص** وهو فقيه وعالم بالعربية، وقد حزن المؤيد لأنه لم يحضر جنازته عند موته، وعمر بن خضر بن زاده*** صاحب الكنز المطلوب في الدوائر، ويوسف بن حمّاد الحمويّ مفتي حماة وخطيبها، الأديب الشاعر، ومحمد بن بكتوت الكاتب المجوّد، وقد أقام عند الملك المؤيد يكتب له، فقد عرف بجودة كتابته، وعماد الدين الأسنوي، الذي حضر عند المؤيد وبحث معه في عدّة علوم، والخطيب الفيومي صاحب المصباح المنير، حيث عيّنه المؤيد خطيباً لجامع الدّهشة، وله ديوان خطب في جزئين. وتبع الأفضل والده في الاهتمام بالأدباء والعلماء، فضمّ بلاطه الشهاب الحاجبي الشاعر، وابن طرطور، كما أنه تتلمذ على عمر بن الشحنة الزاهد المشهور في زمانه.

وقد كان لاهتمام المؤيد وابنه بالأدب، ووفود الأدباء والعلماء إلى حماة، دورٌ في أن تكون على رأس المراكز الأدبية في بلاد الشام، وتصبح موئلاً للعلماء، وهذا جعل بعض الباحثين يشهد أنه «لم يكن للملوك في هذا العصر شعراء مجيدون إلا في حماة، حيث بقيت هذه العادة ردحاً من الزمن، ولهذا لم يكن الشعر فيها صناعة لفظية»[9].

تنوّعت موضوعات الشعر في عهد المؤيد وابنه، فكان المدح، والرثاء، والتهنئة، والوصف وغيرها.

* أسد الحكيم اليهودي: كان مقرباً للملك المؤيد، له مشاركات في عدة علوم مثل الهيئة والطبيعي، وهو جراح ماهر، توفي بعد ٧٣٠هـ (أعيان العصر، ج١، ص١٥٧).

** أمين الدين بن قرناص: هبة الله ابن محمود، الشيخ الإمام الزاهد العالم الفقيه أمين الدين ابن قرناص الخزاعي الحموي الشافعي، اشتغل بالفقه وحدث بحماة وحلب ودمشق، وكان مدرساً بحماة فترك التدريس وصحب الفقهاء ولد ٦٤٨هـ وتوفي ٧٢٧هـ (أعيان العصر، ج٣، ص٣١٢).

*** عمر بن خضر بن زادة: جمال الدين أبو سعيد الكردي المغني، ولد ٦٦١هـ واجتهد حتى فاق في الغناء، واتصل بتنكز وملوك ماردين، ثم صاحب حماة، ت٧٤٨هـ (الدرر، ج٢، ص٢٤٠).

(٩) مارون عبود: أدب العرب، ص٣٧٢.

أ- **شعر المدح :**

والمدح أكثر الموضوعات انتشاراً في حماة؛ حتى أنّ جُلّ ديوان ابن نباتة كان في مدح المؤيد وابنه الأفضل. وصفات الممدوح التي أوردها الشعراء في مدائحهم هي صفات موروثة من القيم العربية والمثل الإسلامية، وأبرزها، الكرم، والعدل، وطاعة الله، والجهاد في سبيله، وتشجيع العلم والأدب، والشجاعة والإقدام، وغير ذلك.

وبرزت صفة الكرم والسخاء لدى الممدوح؛ فهو كالبحر من كثرة عطائه، والسحب لا تجاريه في هذا العطاء، على نحو ما نرى في قول الحليّ :

مَلِكٌ لو أنّ البحارَ تُشبِهُـــهُ ... لأصبحَ البحرُ باذلاً سُفُنَـــهْ (١٠)

وقوله :

السُّحبُ، إذا ما سَخَتْ تجودُ وتَبكي ... بالماءِ وتسخو وأنتَ تضحكُ بالمالْ(١١)

ويمزج الشاعر معاني المدح بالعشق على نحو ما نرى في قوله يدعو محبوبه إلى تعلّم الجود والكرم من الملك الأفضل:

بَخِلْتَ وقد حُزْتَ مُلْكَ الجمـالِ ... ومن مَلَكَ المُلكَ لم يبخـــلِ

فَهَلاّ تعلّمت فَضْلَ السَّمـــاحِ ... من راحة الملكِ الأفضــــلِ

مَليكٌ، إذا هَطَلَتْ كَفُّـــــهُ ... تصاغَرَ قَدْرُ الحَيا المُسبِـــلِ (١٢)

وهذا الملك الكريم على الرغم من كرمه إلاّ أنه يجد هذا العطاء قليلاً، يقول الحليّ:

إنْ أمَّ رَبْعَكَ من وفودِكَ قاصِدٌ ... أمسَتْ بيوتُ المالِ منكَ طلُـولا

تعطي وتسألُ سائليكَ مع العطا ... عُذراً فكنتَ السائلَ المســؤولا

تجدُ اليسيرَ من المدائحِ مُفرِطاً ... وترى الكثيرَ من العطاءِ قليلا (١٣)

وهذا الملك يُحيي دائماً معاني الكرم في النفوس على نحو ما نرى في قول ابن نباتة:

---

(١٠) الصفيّ الحليّ، عبدالعزيز بن سرايا (ت٧٥٢هـ): الديوان، دار صادر، بيروت، ص٢١١.

(١١) المصدر نفسه، ص٢١٨.

(١٢) المصدر نفسه، ص٢٢٦.

(١٣) المصدر نفسه، ص٥٨١.

فقد أعاد بكرمه للناس أحاديث الكرم والجود التي كادوا أن ينسوها.

مَلِكٌ حافظُ المناقبِ تــــروي   راحتاهُ عن واصلٍ عن عطـــاءِ

مَلِكٌ أنْشَرَ الثنا في زمـــانٍ   نسي النّاسُ فيه ذِكْرَ الثَنَـــاءِ

وقوله :

هاجرٌ حَرْفَ (لا) إذا سُئِلَ الجو   دَ كهجرانِ واصلٍ للــــــراءِ (١٤)

فهذا الملك لا يقول لمن يطلبه لا، ويؤكد الشاعر ذلك بمثال عن عدم نطق الخطيب المشهور واصل بن طاء للراء وكذلك الممدوح فهو لا يمنع من يطلبه معروفاً. وجودُ الأفضل أنسى الناس جود من سبقه من الملوك الكرام، يقول ابن نباتة :

لله فَضْلُ محمدٍ ماذا علـــى   أقلامِنَا تُملي عُلاه وتَكْتُـــبُ

ذَهَبَتْ بنو شادي الملوكُ وأقبلتْ   أيامُه فكأنَّهم لم يذهبـــوا (١٥)

ولعلّ رسم صورة الكرم بالماء الجاري من الصور الطريفة على نحو ما نرى في قوله:

فلا تَفْتَخَرْ من نيلِ مصرَ أصابعٌ   فما النيلُ إلاّ من يَمينكَ أصبعُ (١٦)

وتفوّق هذا الملك على حاتم الطائي في كرمه بإحيائه لعادة الكرم، يقول الشهاب محمود في المؤيد :

وإنّ يُطلْ عَهْدُ الريا والحيـــا   جدَّدَ بالجودِ عُهود العِهَـــادِ

مَنْ حاتِمٌ يَومَ القِرى والنّـــدا   مَنْ عامرٌ يومَ الوغى والتنادِ (١٧)

وقد أظهر المؤيد وابنه اهتماماً خاصاً بالعلم والأدب، وهذا ليس غريباً، في أُسرة البيت التقوي، يقول ابن نباتة :

بين الصوارم والأقلام فكرتـــه   إن دبرت أفلحت أو صاولت فلحت

---

(١٤) ابن نباتة، محمد بن محمد المصري (ت٧٦٨هـ): الديوان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ص٤ وما بعدها.

(١٥) المصدر نفسه، ص٢٥.

(١٦) المصدر نفسه، ص٢٩٦.

(١٧) الصفدي، خليل بن أيبك : أعيان العصر وأعوان النصر، ج١، ص١٦٥ (مخطوط).

سجيّةٌ في بني أيوبَ قد نَفَرَتْ   وبين آلِ تقيِّ الدِّين قد رجحتْ (١٨)

وليس الكرم وحده هو الصفة التي ذكرها الشعراء، بل أضافوا إليها صفاتٍ جديدةٍ، منها أنه دائم التفكير في العلوم وفنونها ومسائلها، كما في قول ابن نباتة :

مُصَرِّفُ الفِكْر في حُبِّ العلومِ فما   يَشْفَى بِسَعْدى ولا يروى بِظَمياءِ(١٩)

وقلم المؤيّد إما سيف يقاتل به الأعداء أو يراعٌ يثري به العلم بفكره وإبداعه، كما في قوله:

وأنملٌ في الوغى والسِّلم كاتبةٌ   إما بأسمرَ نضوٍ أو بسمراءِ (٢٠)

وقوله :

أَلِفَتْ بأنبوبِ اليراعةِ والقنا   يُمناه يومَ ندى ويومَ حروبِ

لِلجُودِ والعِلْمِ أقلامٌ براحَتِهِ   تجري المقاصدُ منها تحتَ مكتوبِ (٢١)

وقوله :

في كفه حمرُ أقلامٍ وبيضُ ظباً   كأنّها لبرود المدح تشهيرُ (٢٢)

ويتّخذ هذا الملك من علومه وسيلة للحفاظ على الدين وتأييد الحق، كما في قول ابن نباتة :

ويحفظ الدّين بالعلمِ الذي اتّضَحت   ألفاظه فيه حفظَ الأفقِ بالشُّهُبِ(٢٣)

وقوله :

لم يكفِ أن جَلّى الخُطوبَ عن الورى   حتى جلا بعلومه ظُلماتِهَا (٢٤)

(١٨) ابن نباتة: الديوان، ص٩٨.
(١٩) المصدر نفسه، ص٦.
(٢٠) المصدر نفسه، ص٦.
(٢١) المصدر نفسه، ص٢١.
(٢٢) المصدر نفسه، ص١٨٥.
(٢٣) المصدر نفسه، ص٢٢.
(٢٤) المصدر نفسه، ص٦٧.

ولعلّ قيمة هذا الجهد والعطاء تلك المؤلفات التي كتبها الملك المؤيد، على نحو ما نرى في قول ابن نباتة :

وللعلومِ تصانيفٌ بدَتْ فَفَدَتْ نعم السُّوارُ على الإسلامِ والسُّور(٢٥)

والمؤيد معلمٌ له طلاّبه الذين يستفيدون من علمه ومعرفته، على نحو ما يرى ابن نباتة:

ذو العِلْمِ قَلّدَ طُلاّبَ الهُدَى مننـاً حتّى وصفْنَاهُ عن علمٍ وتقليـدِ

مَباحِثُ علمٍ بَلّدتْ كُلّ مُفْصِحٍ على أنّها قد فصّحَتْ كُلّ أبْلَـدِ (٢٦)

إذا جئته لِلْعِلْمِ والجودِ طالِبَـاً فيالَك بحرٌ باهرُ الفضلِ والفصلِ (٢٧)

كما أنه يحلّ الإشكالات العلميّة التي تستعصي على بعض السائلين، يقول ابن نباتة:

ومسائلَ في العلمِ أشكلَ أمْرُهـا حلاً وحَلّ لطالبٍ إشْكَالَهَـا

بيراعِ سيفٍ أو بسيفٍ يراعـةٍ فَصَلُ الأمُورَ جلادَها وجدَالهَـا (٢٨)

والفصاحة والبلاغة والتمكّن من اللغة صفة ملازمة للمدوح، بل إنّ هذه الفصاحة جعلت الحروف تأتي على لسانه طائعةً مقبلةً لا تخذله إذا أراد كلاماً، يقول ابن نباتة:

وإن أفاضَ حديثاً أو نَوالَ يـدٍ ورَدْتَ من حالتيه غيرَ مَـوْرودِ

وإنْ أردتَ عياناً أو محادثـةً فاهرع إلى سندي وأسمع أسانيدِي(٢٩)

ومجالس المؤيد والأفضل مع الشعراء كثيرة، وفي هذه المجالس كان المؤيد يوجّه الشعراء ويثير قرائحهم، على نحو ما نرى عند ابن نباتة :

أنتَ الذي نَبّهتْ فِكْري مدائحُهُ ودَرّبْتَني والأشيا بتدريـبِ

كم ليلةٍ قال لي فيها نَدى يـدِهِ يا أشعرَ العربِ امدح أكرمَ العربِ

(٢٥) ابن نباتة، الديوان، ص١٨٥.

(٢٦) المصدر نفسه، ص١٢٧، ١٢٩ وما بعدها.

(٢٧) المصدر نفسه، ص٢٧٧.

(٢٨) المصدر نفسه، ص٢٧٩.

(٢٩) المصدر نفسه، ص١٢٨.

أنشأتَ للشعر أسباباً يُقالُ بها   وهل تُنْظَمُ أشعارٌ بلا سبـــبِ (٣٠)

بل إنّه لم يشعر بشاعريته ويعرف موهبته، إلاّ بعد أن اتصّل بالمؤيد، ورأى اهتمامه بالشعر والشعراء، يقول ابن نباتة :

مَنْ مُبْلِغُ الملكَ المؤيدَ أنّنـــي   لولاهُ ما سميْتُ نفسي شاعِراً (٣١)

ومن الصفات المدحيّة الأخرى، للمؤيد وابنه الأفضل، الرأي السديد والحكمة والحلم، وهذا الحلم، أوسع من الغضب، فالممدوح يتغاضى عن أخطاء المذنبين ويمنحهم العفو، يقول ابن نباتة في المؤيد:

هذا لِلْحِلْمِ معنىً في خلائِقِهِ   لا تَسْتَطِيلُ إليه سَوْرَةُ الغَضَبِ

يُغْضِي عن السببِ المُرْدِي بصاحِبِهِ   عفواً ويُعطي العطا جماً بلا سببِ(٣٢)

ويقول فيه الشهاب محمود الحلبي :

مَنْ أحنفٌ في الحِلْمِ دَعْ ذِكْـــرَهُ   ولا تَقِسْ قُسّاً به في إيـــادِ (٣٣)

وتكون هذه الآراء التي تأتي عن رويّة وتفكّر صائبة ، كما نرى في قول ابن نباتة:

إذا شامَ رأياً في المُلِمّاتِ كَفُّهـا   بأفْتكَ من صرفِ الزمانِ وأكيدِ (٣٤)

أقامَ لِلْمُلكِ آراءً مُعَظَّمـــــةً   لشُهبِها في بروجِ اليُمنِ تيسيرُ (٣٥)

يروقُ لرائيه عليه من النُّهَـى   ألذُّ حُلىً مما يروق مِن الشكْـلِ (٣٦)

ويرتبط بهذه الصفات المدحيّة، حُسن الخُلُق الذي يتّصف به الممدوح، يقول ابن نباتة:

---

(٣٠) ابن نباتة، الديوان، ص٢١-٢٣.
(٣١) المصدر نفسه، ص١٨٩.
(٣٢) المصدر نفسه، ص٢٢. السَّوْرَة: الثورة. لسان العرب، ج٢، ص٣٨٤ مادة (سور).
إبراهيم أنيس، عبد الحليم منتصر، المعجم الوسيط، ط٢، القاهرة، ١٩٧٢، ج١، ص٤٦٢.
(٣٣) الصفدي: أعيان العصر، ج١، ص١٦٥.
(٣٤) ابن نباتة، الديوان، ص١٣٠.
(٣٥) المصدر نفسه، ص١٨٥.
(٣٦) المصدر نفسه، ص٢٧٧.

وسجايا كالرّوضِ تَبْسِمُ بالزّهــ ـرِ وبأسٍ يُبلي الظُبا بالنّجيــعِ (٣٧)

فاحَ ذكراً وفاضَ في الخَلْق نَهراً فَحمِدنا الرِّياضَ والأنهَـــــارا (٣٨)

ويؤكد ذلك بقوله :

سُبحانَ من صوَّرَهُ خالِصـــاً ما شيبَ من أخلاقِـــهِ ذرَّة (٣٩)

وصدق الوعد صفة جعلت الشعراء يستذكرون إسماعيل عليه السلام في مدحهم للملك المؤيد، يقول ابن نباتة :

لقد صَدَقَتْنا في الزمانِ وعُوْدُه وشيمةُ إسماعيل، أن يَصْدُقَ الوعدَ (٤٠)

ويقول صفي الدين :

هنأتُ نفسي، ثم قُلتُ لها ابشري وثِقي فذلك وَعْدُ إسماعيـــلا (٤١)

كما أشاد الشعراء بالمؤيد وابنه بأسهما، على نحو ما نرى في قول ابن نباتة :

وشجاعةٍ تُنضي السيوفَ صقيلةً وإلى المعامِعِ ربُّها يشكو الصدى(٤٢)

يلاقي العِدى يوم الوغى متبسماً كأنّكَ قد لاقيته بِخدينـــــة (٤٣)

وبيّنوا عدل المؤيد وابنه، وتفريج الأزمات، والنكبات، يقول ابن نباتة:

أعدلُ المالكين حكماً فما يِـــظْـ ـلِمُ إلا العُداةَ والدِّينـــارا (٤٤)

---

(٣٧) ابن نباتة، الديوان، ص٢٩٦. النجيع: دم الجوف، لسان العرب، ج٤، ص٣٤٨.
(٣٨) المصدر نفسه، ص١٩٠.
(٣٩) المصدر نفسه، ص١٨٨.
(٤٠) المصدر نفسه، ص١٣٦.
(٤١) الصفيُّ الحليُّ ، الديوان، ص٥٨٢.
(٤٢) ابن نباتة : الديوان، ص١٣٤. الصدى: العطش الشديد، الوسيط، ج١، ص٥١١.
(٤٣) المصدر نفسه، ص٤٨٥.
(٤٤) المصدر نفسه، ص١٩٠.

عادلٌ ما كاد زيدُ النَّحوِ فــــي دهرهِ يَعْزى إليه ضربَ عمــرو (٤٥)

ويشير إلى هذا، الشهاب محمود الحلبي بقوله :

حيثُ الندا والفضلُ بادي السَّنا والعدلُ والمعروفُ واري الزِّنادِ

أضْحَتْ وقد شيِّد أرجاءَهــــا المولى عمادُ الدين ذاتَ العِمادِ

حمَى حِماها بأسُه والنَّــــدى فأهْلُها من عَدْلِه في مِهــــادِ (٤٦)

ويقول ابن نباتة :

أعَدْتَ حياةَ المقترين وقد عَفَتْ فأنت ابن أيوب وإلاّ ابن مريما (٤٧)

وتنعم الرعيّة في عهد المؤيد وابنه، بالأمن والإستقرار، فيقول ابن نباتة :

وقد أمَّنَتْنا دولةٌ شادويــــــةٌ فما نختشي اللأوا ولا نَتَخَشَّــعُ (٤٨)

أمّا الرعايا فَقَد رُدَّت بدولتــه لها وُجوهُ الأماني، بعدما جَمحَتْ (٤٩)

والعدل والطمأنينة، وتشجيع الحكام للعلم في حماة، جعلت القلوب تهفو إليها، وتشدّ الشعراءُ الرحالَ إلى تلك الأرض. يقول ابن نباتة :

أمّا حماهُ فقد أضحى بدولتــه ملاذُ كُلِّ قصيٍّ الدارِ مَحْــروبِ (٥٠)

يسعى لِمكةَ وافدٌ ولأرضِهـــا ولنعمَ أرضاً وافدٌ يسعى لهـــا (٥١)

والشعراء، عندما يفدون على حماة، تجزل لهم العطايا على نحو ما نرى في قول ابن نباتة :

في كُلِّ عامٍ لي إليه وِفــــادةٌ تُغني قصيدي عن سِواهُ ومَقْصَدي

---

(٤٥) ابن نباتة: الديوان، ص١٩٣.
(٤٦) الصفدي: أعيان العصر، ج١، ص١٦٥.
(٤٧) ابن نباتة: الديوان، ص٤٣.
(٤٨) المصدر نفسه، ص٢٩٥. اللأواء: ضيق المعيشة، الوسيط، مادة (لأى)، ج٢، ص٨١١.
(٤٩) المصدر نفسه، ص٩٨.
(٥٠) المصدر نفسه، ص٢١.
(٥١) المصدر نفسه، ص٢٧٩.

ألم ترني يَمَّمْتُ كعبةَ بَيْتِـــهِ   لحجٍ ولائي لا ســــــواعُ ولا ودُّ (٥٢)

والمؤيد وابنه، من عائلة كريمة، عرف عنها المكانة الرفيعة، والنسب الأصيل، وإلى هذا يشير الحليٌّ بقوله :

من آل أيوبَ الذين لهـــــم   حماسةٌ بالسَّماحِ مُقْتَرِنَـــــةْ

ذوي بيوتٍ في المجدِ سَالِمـــةٍ   كلُّ أفاعيلِهنَّ مُتَّزِنَـــــــةْ (٥٣)

ويقول :

إلى آل أيوبَ يُعزى الفَخَـارُ   في كلِّ ماضٍ ومُسْتَقبَـــــلِ (٥٤)

ويتبع هذا دعوةٌ لبقاء هذا الأصل الأشمّ الذي يذكر بآل تقي الدين على نحو ما نرى عند ابن نباتة :

وسَقى الله أصلهم فقد أثمـــ   ـرَ مِن نَسْلِهِ بِكُلِّ نجيـــــبِ (٥٥)

ويقول في الأفضل :

ما شادَ إسماعيلُ بَيْتَ فَخَـارِه   إلاّ ليستدعي إليه مُحَمَّـــدا

سار على مِنهاجِه فـــإذا رَأتْ   عيناكِ مَنْصُوراً رأيتَ مؤيـدا (٥٦)

والصورة الدينية للأفضل لم يغفل عنها ابن نباتة حيث يشير إلى زهد هذا الملك بقوله :

مَنْ اتقى اللهَ اتَّقَتْ بأسَـــهُ   كواسِرُ الأُفْقِ وغُلْبُ الوهـــادِ

بَيْنَ كِتابِ الله ومُصلَّـــى إذا   أمْسَى سِواهُ بين كأسٍ وشــادِ (٥٧)

---

(٥٢) ابن نباتة: الديوان، ص١٣٢ وما بعدها. سواع، اسم صنم لهمدان، وقيل لقوم نوح. (لسان العرب، ج٤، ص١٧٠)، مادة (سوع)؛ ود: صنم كان لقوم نوح ثم صار لقبيلة كلب (لسان العرب، ج٢، ص٤٥٥)، مادة (ودد).

(٥٣) الحليٌّ : الديوان، ص٢١٢.

(٥٤) المصدر نفسه، ص٢٢٦.

(٥٥) ابن نباتة: الديوان، ص٢٤.

(٥٦) المصدر نفسه، ص١٣٤.

(٥٧) المصدر نفسه، ص١٣٧.

ويؤكد ابن نباتة أيضاً على تميّز المؤيد وابنه على سواهما من الملوك في قوله :

ما لابن شادٍ في العُلى ندٌ وسَلْ ... عمَّا ادَّعيتُ سنَا الكواكبِ يشهدِ

فما لبني أيوبَ نِدٌ من الورى ... وما في بني أيوبَ عندي له نِدُ (٥٨)

وقوله :

ما سمعنا للأفضلِ الفردِ ثانٍ ... حبَّذا في ثنائنا من بديـــــعِ (٥٩)

ونجد المدح أحياناً لا يوجّه إلى المؤيد مباشرة وإنما إلى شيء آخر هو كتابه الجغرافي تقويم البلدان، وقد انتشر في هذا العصر ما يسمى بمدح العلوم وخاصة عندما يقرض العلماء كتب غيرهم، ويقول الحسين بن ريّان في تقويم البلدان:

كِتابٌ بَديعٌ وَصْفُهُ واخْتِراعُـــهُ ... وإبداعُهُ قَدْ فَاقَ تآليفُه الكُتُبَـــا

تَضَمَّنَ من وَصْفِ البلادِ غرائباً ... مُحاسِنُهَا كُلُّ العُقُولِ بها تُسبـى

وترتِيبُهُ في غَايةِ الحُسْنَ واضِحٌ ... وقد رَاقَ حَتَّى خِلْت ألفاظَهُ الصّهبا

فأكرم بمن أبدى وأبدعَ وضعُـهُ ... وفاقَ به الآفاقَ والسّبْعَة الشُّهبَـا

هو الملك الضِّرغامُ ذو الهِمّةِ التي ... تعالتْ على الأفلاكِ واستعْلَتْ القُطُبا(٦٠)

ب - <u>الرثاء</u> :

أمّا شعر الرثاء، الذي قيل في الملك المؤيد وابنه الأفضل، فقد كانت قصائده، من باب التأبين، والعزاء، والتفجّع، وقد حملت في معانيها، خصال المرثي التي كان يتصف بها، وأثر الحزن على من يحيطون به، وعظم المصيبة.

ويحدثنا الشاعر، الصفّي الحليّ، عن فراق المؤيد لأهله وأحبّابه وابتعاده عنهم، إلى دار البقاء، يقول مسمطاً نونية ابن زيدون:

كان الزّمانُ بِلُقيَاكُم يُمنّيْنـــا ... وحادِثُ الدّهرِ بالتفريقِ يُثْنينـا

---

(٥٨) ابن نباتة: الديوان، ص١٣٦.

(٥٩) المصدر نفسه، ص٢٩٦. الحسين بن ريّان: الحسين بن سليمان بن أبي الحسن شرف الدين بن ريّان، ولد بحلب ٧٠٢هـ واشتغل وتفقّه، وكتب الخط المنسوب، وتولّع بالنظم إلى أن أجاد، ت.٧٧٠هـ (الدرر، ج٢، ص١٤٢).

(٦٠) مقال قدري الكيلاني (أبو الفداء ملكاً وعالماً)، مهرجان أبي الفداء، ص٢٤٧.

فَعِنْدَمَا صَدَقَتْ فيكم أمانينـــا أضحَى التناني بديلاً من تدانينا

ونَابَ عن طيبِ لُقيانَا تجافينـــا

خِلْنا الزَّمانَ بِلِقْياكُم يُسامِحُنـا لكي تُزانَ بِذِكراكم مدائِحُنَـــا

فعندما سَمَحتْ فيكم قرائِحُنـا بِنتُمْ وبنا فما ابتَلَّتْ جِوانِحُنـا

شوقاً إليكم ولا جَفَّتْ مآقينـــا (٦١)

ويقول في الأفضل، من قصيدة أخرى يرثيه فيها ويذكر ابتعاده :

يا غائباً أخفى الترابُ جَمالَـهُ عَنَّا وأنْعُمُه لديَّ حُضُـــورُ

ومُسَافِراً ولىَّ فَطولُ نائِيُـــهُ ونرى المسافرَفرضُهُ التَّقصيــرُ (٦٢)

وعلى الرغم من وفاة المؤيد وابنه، إلاّ أنَّ شعراءهما يأكدون بقاء الذكرى الطيبة في نفوسهم، واستذكار أعمالهم الجليلة ، يقول الحليّ :

يا غَائِبينَ ومَأواهُم سَرائِرُنـا تكادُ حينَ تُناجيكُم ضَمائِرُنـــا

يَقْضي علينا الأسى لولا تأسِّينـا (٦٣)

وفي رثائه للأفضل يصف الحليّ عظم الخبر وشدّة وقعه:

أخْنَتْ عَلَيْنا الحادِثاتُ برزئِه والرُّزءُ بالملك الكبير كبيـــرُ

وعلا النَّعيُ له وكانَ إذا بدا يَعلو له التَّهليلُ والتكبيـــرُ (٦٤)

ويصوِّر ابن نباتةَ عظم مصيبة وفاة المؤيد بقوله :

ما للنَّدى لا يُلبِّي صوتَ داعيه أظُنُّ ابن شادٍ قامَ ناعيــــه (٦٥)

ويوضِّح لنا مدى لهفته وحسرته لوفاة المؤيد وابنه :

يا جفنُ أمزجْ أدمُعي بدمائِــي واشهد بها لملوكنا الشهـــداءِ

(٦١) الصفي الحليّ ، ص٣٥٩.

(٦٢) المصدر نفسه، ص٣٨١.

(٦٣) المصدر نفسه، ص٣٦٠.

(٦٤) المصدر نفسه، ص٣٨١.

(٦٥) ابن نباتة: الديوان، ص٧٥.

لهفي على مَلِكَيْن جَادَ عليهما		في كل أرضٍ أُفقُ كلُّ سماءِ

لهفي لإسماعيلَ قبلَ محمدٍ		لم أُلقِ يَومَ رَداهُما لفداءِ (٦٦)

ويقول في المؤيد :

واحَسْرتاهُ لِنَظْمي في مدائحه		كيفَ استحالَ لنِظمي في مراثيه

ويتمنّى لو تأخر الموت قليلاً :

ليتَ الحِمامَ حبا الإمامَ موهبةً		فكان يُفني بني الدُّنْيا ويُبقيه

أعززْ عَليَّ بأن تبلى شمائلُهُ		تحتَ الترابِ وما تبلىَ أياديه (٦٧)

وتعود لذاكرة صفيّ الدين الحليّ، تلك اللحظات الجميلة، التي قضاها في ظل هذين الملكين، في ربوع حماة، وما نعم به من خير:

حَمِدْتُ أيامَ أنسٍ لي بكم سَعِدَتْ		وأسْعَدَتْ إذ وفَتْ فيكم بما وَعَدتْ(٦٨)

ويقول :

فُزْنَا بِنَيل الأماني من تَشرُّفِنا		بقربكم إذ بُرينا من تكَلُّفِنَا

حتّى كأنّ اللّيالي في تصرُّفِنا		إذ جانب العَيْشِ طَلْقٌ من تألّفِنا

ومُوردُ اللّهو صافٍ من تصافينا (٦٩)

والحالة التي يتصوّرها الشعراء، بعد ذهاب المؤيد والأفضل، فإنها التشرّد والحزن، والبُعد عن ديار الأحبّة، يقول الحليّ :

فاليومَ إذ غِبْتُمْ والدارُ قد بَعُدَتْ		حالت لِفَقْدِكُم أيامُنا فَقَدتْ

سوداً، وكانت بكم بيضاً ليالينا (٧٠)

ويقول :

---

(٦٦) ابن نباتة: الديوان، ص١٥.
(٦٧) المصدر نفسه، ص٥٧١.
(٦٨) الصفيّ الحليّ، الديوان، ص٣٦٠.
(٦٩) المصدر نفسه، ص٣٦٠.
(٧٠) المصدر نفسه، ص٣٦٠ وما بعدها.

تشكو إلى الله نفسٌ بعضَ ما لَقِيَتْ غِبَّ النَّعيمِ الذي مِنْ بَعدِهِ شَقِيَتْ (٧١)

لا يجد الشاعر ما يسعفه إلاّ البكاء والحزن، وتشاركه في البكاء، مظاهر الطبيعة، وحتى الشعر نفسه يتحوّل من المديح إلى الرثاء، يقول الحليّ :

إذا ذَكَرْنَا زَماناً كان يُدْرِكُنَـــا بالقُرْبِ مِنكُم وفي اللذّاتِ يُشْرِكُنا

لا نَملِكُ الدَّمْعَ والأحزانُ تملِكُنا إنَّ الزَّمانَ الذي قد كان يُضْحِكُنـــا

أُنْساً بِقُرْبِكُم قد صار يُبكِينـــا (٧٢)

ويقول :

في فَقْدِنا الملك المؤيد شاهِـدٌ ألاّ يَدومَ مع الزَّمانِ سُـــــرورُ

أضحَتْ مَدائِحُهُ الحِسانُ مراثياً للنّاسِ منها رَنّةٌ وزَفِيـــــرُ (٧٣)

ويؤكد على هذا ابن نباتة في قصائده، حيث يقول :

يا جَفْنُ امزُجْ أدمُعي بدمائـــي وأشْهَدْ بها لِمُلوكِنا الشهــــداءِ (٧٤)

ويقول :

بكى الشِّعْرُ أيامَ المنى والمنائِحِ ففي كُلِّ بَيْتٍ للثّنا صوتُ نائـــحِ (٧٥)

ويقول في المؤيد :

واحَسْرَتاهُ لِنَظْمي في مدائِحِهِ كيف استحالَ لِنَظْمِي في مراثيهِ

هذي حماةُ أغصُّ الهَمُّ واديها وطاوعَ الحُزْنَ فيه دَمْعُ عاصيـــهِ

كأنّه استشعر الأحزانَ من قِدَمٍ وللنواعيرِ نَوْحٌ في نواحِيـــــهِ (٧٦)

والصفيّ الحليّ، يرى اليوم الذي مات فيه الأفضل، يوم الحشر، لشدة الإضطراب في

(٧١) الصفيّ الحليّ، الديوان، ص٣٦٣.
(٧٢) المصدر نفسه، ص٣٦١.
(٧٣) المصدر نفسه، ص٣٨٥. الرَّنة :الصيحة الشديدة، والرنة الصوت الحزين. الوسيط مادة (رنّ)، ج١، ص٣٧٦.
(٧٤) ابن نباتة : الديوان، ص١٥.
(٧٥) المصدر نفسه، ص٩٩.
(٧٦) المصدر نفسه، ص٥٧١.

هذا اليوم:

ما للجبالِ الرّاسياتِ تسيــرُ | أفآن بعثٌ للورى ونُشــورُ
أم أُخْبِرتْ أنّ ابن أيّوبٍ قضـى | فتكادُ من حُزنٍ عليه تمــورُ (٧٧)

ويؤكد هذا ابن نباتة، حيث يقول :

ما للرّجاءِ قد اشتدّتْ مَذاهِبُه | ما للزّمانِ قد اسودّتْ نواحِيــهُ
واروعتاهُ لصباحٍ عند رُؤيتِهِ | أظُنُّ أنّ صباحَ الحشْرِ ثانيــه (٧٨)

ويبيّن أن الشعراء يجب أن يتوقفوا عن قول الشعر، وأنّ زمن الفرح والسرور انتهى بموت المؤيد وابنه :

أبَعْدَ بني شادٍ وقد سكنوا الثّرى | قَريضٌ لشادٍ أو سرورٌ لفــارح
أبَعْدَ مُلوكِ العِلْمِ والبأسِ والندى | تَشِبُّ العُلى نارَ القِرى والقرائحِ (٧٩)

وبعد هذا الحزن والبكاء وذكر مآثر المرثي، يدعو الشعراء إلى الصبر على قضاء الله، من باب العزاء، ويخاطبون أهل المرثي، يقول ابن نباتة :

يا آلَ أيوبَ صبراً إن أرثكمــو | من اسمِ أيوبَ صبرٌ كان ينجيــه (٨٠)

ومن معاني التعزية، بيان أنّ الموت نهاية كل حيّ، فيقول الصفيُّ الحليّ: إن الأقدار تجري على الإنسان ولا يستطيع أن يمنعها، وذلك في تعزيته للأفضل بوفاة الملك المؤيد :

خَفِّضْ هُمُومَك فالحياةُ غــرُورُ | ورحى المنونِ على الأنامِ تَـدورُ
والمرءُ في دارِ الفناء مُكَلّـفٌ | لا قادرٌ فيها ولا معــذُورُ
والناسُ في الدُّنيا كظلٍ زائـلٍ | كُلٌّ إلى حُكمِ الفَناءِ يَصيــرُ
في فقدنا الملكِ المؤيد شاهــدٌ | ألاّ يدومَ مع الزمانِ ســرُورُ

---

(٧٧) الصفي الحلي: الديوان، ص٣٨٠.
(٧٨) ابن نباتة : الديوان، ٥٧٠.
(٧٩) المصدر نفسه، ص٩٩.
(٨٠) المصدر نفسه، ص٥٧٢.

وإذا القضاءُ جرى بأمرٍ نافـذٍ   غَلِطَ الطبيبُ وأخطأ التَدبيـرُ (٨١)

ويقول ابن نباتة :

هي المنايا على الأقوامِ دائرةٌ   كُلٌّ سيأتيه منها دَوْرَ ساقيـهِ

هي المقاديرُ هذا الأصلُ تَنْزِعَهُ   بعد النموّ وهذا الفرعُ تُنميـهِ (٨٢)

وفي آخر قصيدة الرثاء، يدعو الشعراء للمرثي، بالرحمة والسقيا، وأن تكون الجنة مأواه ومرقده، يقول ابن نباتة في المؤيد :

جادَ الحيا قبرَهُ الزاكي فلا بَرِحَتْ   سَحائِبُ العفو والرضوانِ تسقيهِ

نِعْمَ السحائِبُ تسقى صوبَ وابلها   نعمَ الضريحُ ونعم المرءُ ثاويـهِ (٨٣)

والحليّ يرى الجنان وقد فرحت بمقدم المؤيد إليها :

سَمِعَتْ بِمَقْدَمِكَ الجِنَانُ فَزَخْرَفَتْ   وتباشَرَتْ ولدانُها والحُـورُ

لم تَثْنِ عنكَ الغاسلون عِنانَهَـا   إلا أتاكَ مُبَشِّرٌ وبشيـرُ

وغَدَتْ تقولُ العالمون وقد بَكَت   عِلماً بلذَّةِ ما إليه تصيـرُ

تبكي عليه وما استقرَّ قـرارهُ   في اللَّحْدِ حتّى صافحتْهُ الحُورُ (٨٤)

ج- <u>الغزل</u> :

أما شعر الغزل، فقد تنوَّع في عهد المؤيد وابنه الأفضل بين المقطوعات القصيرة، والقصائد الطويلة، ومقدّمات القصائد وخاصة في شعر ابن نباتة، الذي يستهل قصيدته غالباً بأبياتٍ من الغزل.

ومحور القصائد الغزلية، يدور حول الحديث عن المحبوب، لأنّ الغزل في معظمه، موجّه للمذكر، وذكر أوصاف هذا المحبوب، فالخدود ورد، والشعر ليل، والقد غصن بان، والخفّة كالغزال، ثم الشكوى والألم، من ابتعاد هذا الحبيب وهجره للمحبّ، ومحاولات

(٨١) الصفيّ الحليّ : الديوان، ص٣٨٥.

(٨٢) ابن نباتة : الديوان، ص٥٧٢.

(٨٣) المصدر نفسه، ص٥٧٠.

(٨٤) المصدر نفسه، ص٥٧٠.

الشاعر الدائمة، إرضاء هذا المحبوب ووجود اللائمين والعزّال، الذين يلومون هذا الشاعر على إفنائه لنفسه، في سبيل محبوبه، والحديث عن مجلس الشراب والندماء في هذا المجلس، وجمال الساقي، وغير ذلك.

يقول عمر بن محمد بن العديم في مقطوعةٍ غزليّةٍ له :

أشكو إليكَ غراماً فيكَ أقلقنــي   فَدَتْكَ نفسي على طولِ المدى وَوَقْتِ(٨٥)

ويشارك ابن العديم في هذه الشكوى الشاعر المصري محمد بن أبي طرطور، نزيل حماة، حيث يقول :

أتشكّى مع البُعادِ إليكـــــم   برقيق العتابِ فَرْطَ اشتياقـــي

وكأنّي الورقاءُ من فُرقة الإلـفِ   تَلَهَّت بالسَّجْعِ فــــي الأوراقِ (٨٦)

والصفيُّ الحليُّ ، يشكو أيضاً من الهجر والفراق :

شكوتُ إليكِ الجـــــوى   فلم تَسْمَحِي بالــــذَّوى

فَمُذْ كانَ عُمرُ النـــــوى   جعلتُ إليكِ الهـــــوى

شفيعاً لم تشفعـــــي (٨٧)

ويتبع الشكوى، الحديث عن صدود المحبوب، وما يكابده المحبّ من هذا الصدود، يقول ابن العديم :

والليالي بِسَهْمِ البُعدِ قد رَشَقَتْ   وصارمُ البين للأحبابِ قد مَشَقَتْ

وخالفتْ في الذي يَهوى وما ونيتْ   كأنّها لخلافِ القَصْدِ قد عَشِقَــتْ

وفَرَّقت جمعَ شملٍ كان ملتئمــاً   وجَمَعَتْ حادثاتٍ كانت افتَرَقَـتْ (٨٨)

(٨٥) الصفدي : أعيان العصر، ج٢، ص٢٩٨.

(٨٦) المصدر نفسه، ج٣، ص٩٦؛ عمر بن محمد بن العديم: قاضي قضاة حماة، وله فضائل عديدة، كان المؤيد يعظمه ويثني على فضائله، (أعيان العصر، ج٢، ص٢٩٧).

(٨٧) الصفيُّ الحليُّ : الديوان، ص٤٩.

(٨٨) الصفدي: أعيان العصر، ج ٢، ص٢٩٨.

ويعاتب يوسف بن محمد بن مظفر الحمويّ* المحبوب على ابتعاده وهجره له :

حبيبي طالَ ما وافيتَ هَجْرِي   لأنَّكَ لا تَرى إلاّ خلافـي
وخالفْتَ الوصالَ ومِلْتَ عنهُ   لأنَّكَ بعضُ أغصانِ الخلافِ (٨٩)

والشهاب الحاجبي في قصيدته التي مدح بها الأفضل، فإنه يخاطب أهل المحبوب الذين حالوا بينه وبين محبوبه وحجبوه عنه، يقول :

يا ساكنينَ السَّفْحَ كيف حَجَبْتُمُ   عن ناظري البدرَ الذي لا يأفلُ
وفَعَلْتُم بي ما يَسرُّ عواذلي   ما شئتم يا أهلَ بدرٍ فافْعَلوا
لا تحجبوا بيني وبين غزَالِكُمُ   فعلى حجاز الصَّدرِ مالي محملُ (٩٠)

والهجر والصدود يؤديان بالشاعر إلى البكاء وتمنّي الوصال، لو كان فيه حتفه، على نحو ما نرى عند ابن نباتة :

مَنْ لي بيومٍ من وصالكِ مُمْكِنٌ   ولو أنّه يومُ الحِمامِ بلا غَـدِ
رفقاً بناظري الجريحِ فقد جَرى   ما قد كفَى من غيرةٍ وتسهُّـدِ
هذي يدي في الحُبِّ إنك قاتلي   طَوْعُ الغَرامِ وإنَّ حُسنَكَ لا يدي (٩١)

ويتمنّى صفيُّ الدِّين عودة عهد الهوى حتى ينتهي ألمه وحزنه :

تُرى هَل لِعَيْشي رُجـوعْ   بِمُؤنِسَتي في الرُّبُـوعْ
وفاجِعَتي بالهُجُـوعْ   ومُغرقتي بالدُّمـوعْ

وقد أحرَقَتْ أضْلُعِـي (٩٢)

ويحاول ابن حمّاد أن يدلّ على ما يعانيه من فراق المحبوبة بالدموع والبكاء :

---

* ابن حماد: يوسف بن محمد بن مظفر الحموي الشافعي، مفتي حماة وخطيبها، شارك في النحو، وهو أديب وشاعر، سافر إلى القاهرة وألقى فيها شعراً (ت٧٣٦هـ)، (أعيان العصر، ج٣، ص٣٥٩).

(٨٩) العسقلاني، أحمد بن حجر ، ج٥، ص٢٥.

(٩٠) ابن حجة الحموي، تقي الدين (ت ٨٣٧هـ): خزانة الأدب، شرح عصام شعيو، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط١، ١٩٨٧، ج٢، ص٢٠٢.

(٩١) ابن نباتة : الديوان، ص١٣١.

(٩٢) الصفيّ الحليّ : الديوان، ص٤٤٨.

إنّي ومدمَعُ عيني سايلٌ أسـداً حَرمْتِ جفني لذيذ النومِ بالسُّهر (٩٣)

والشهاب الحاجبي أيضاً لا يستطيع منع دموعه :

عمّا جرى من أدْمُعِي لا تَسْألـوا فمدامِعِي أخبارُها تتسلسـلُ

وخذوا حديثاً قد ألمَّ بمُهجَتِـي وازدادَ حتّى أهملته العُـذّلُ (٩٤)

وأمّا ابن نباتة فإنّه يقدّم هذه الدموع مهراً لمحبوبته :

وعُنُقٌ قد استَحْسَنْتُ دمعي لأجْلِها وفي العنقِ الحسناءِ يُستحنُ العقدُ (٩٥)

ومن الغزل المذكّر قول ابن العديم :

أفديه عطّاراً شَهِيُّ اللّمـا أحورَ فتاناً كحورِ الجِنـانِ

وقوله في نشار :

فَدَيْتُ نشّاراً غدا نَشْـرُهُ أزكى من المِسْكِ إذا فاحـا (٩٦)

والمؤيد يقول في مليح اسمه حمزة :

اسمُ الذي أنا أهواهُ وأعْشَقُهُ ومن أعوذُ قلبي من تَجَنِّيـهِ

تَصْحِيفُهُ في فؤادي ولم يزلْ أبداً وفوقَ وجْنَتَيْهِ وفي فيـهِ (٩٧)

ويكثر الشعراء في قصيدة الغزل من الحديث عن اللائمين والعذّال، الذين يلومون على الحب، يقول ابن حمّاد :

ودَدْتُ لو كان الهوى عاذِلِي لِيَرى حَالَ المُحِبِّ على الأشواقِ والفِكَرَهْ

يتلو المَلامَ على سمعي فَيلَذُّ بـه قلبي بناءً على ما قد رأى بصـرهْ (٩٨)

---

(٩٣) الصفدي: أعيان العصر، ج٣، ص٢٥٩.

(٩٤) ابن حجة : الخزانة، ج٢، ص٢٠٢.

(٩٥) ابن نباتة : الديوان، ص١٣٥.

(٩٦) الصفدي: أعيان العصر، ج٢، ص٢٩٨.

(٩٧) أبو الفداء، إسماعيل بن علي (ت ٧٣٢هـ): تقويم البلدان، تصحيح رينود وديسلان، دار صادر ، بيروت، المقدمة، ص١٢.

(٩٨) الصفدي : أعيان العصر، ج٢، ص٢٥٩.

ويشير إلى ذلك اللّوم الصفيّ الحليّ :

يا مَنْ قَد لحَاني لو كنتَ تهدي إلى الحقِّ   ما رُمْتَ انتقالي عَمَّن غدا مالِكاً رِقّــي (٩٩)

وابن نباتة لا يسمع كلام العاذل ولا يصغي إليه :

على مثلها يُعصى العَذُولُ وإنّما   يُطاعُ على أمثالِها الشّوقُ والوَجْدُ

عزيزٌ على العذّالِ عني صَرْفُها   وللقلبِ في دينارِ وجَنّتها نَقْــدُ (١٠٠)

وصفات المحبوب في معظمها تقليدية، فالمحبوب كالغزال في مشيته، والخدود كالورد في إحمرارها، واللحظ كالسيف، يقول المؤيد في غزله :

كَمْ مِن دَمٍ حَلّلتْ وما نَدِمَــتْ   تفعل ما تشتهي وما عَدِمَــتْ

لو أمكنَ الشمسُ من رؤيتها   لثمَ مواطِيء أقدامِها لَثَمَــتْ (١٠١)

وعين المحبوبة تمتاز بجمالها، فهي حوراء، يقول ابن حمّاد :

يا فاضِحَ الغُصن من عطفيه في هيفٍ   ومخجِلَ الظبيَ من عينيهِ بالحــورِ(١٠٢)

ويقول الشهاب الحاجبي :

ثاني المعاطفَ كنتُ أولَ عاشقٍ   في حُبِّه ولكلِّ شــانٍ أولُ

يرنو فيجلو للمُتيَّمِ لَحظُــهُ   إذ ذاك لحظٌ بالنُعاسِ مُعسَّــلُ

متلوِّنُ الأوصافِ سَيفٌ لحاظه   ماضٍ ولكن هجرَهُ مُستَقبــلُ (١٠٣)

ومعظم هذه القصائد أو المقدّمات الغزليّة، لم تتكلم عن تجربة حقيقية، بل هي نوع من التقليد سار فيه الشعراء على نهج شعراء العرب القدماء.

---

(٩٩) الصفيّ الحليّ : الديوان، ص٤٥٨.
(١٠٠) ابن نباتة : الديوان، ص١٣٥.
(١٠١) الصفدي : أعيان العصر، ج١، ص١٦٢.
(١٠٢) المصدر نفسه، ج٣، ص٣٥٩.
(١٠٣) ابن حجة : خزانة الأدب، ج٢، ص٢٠٢.

د- **شعر التهنئة** :

وشعر التهنئة في عهد المؤيد وابنه الأفضل، شمل التهاني بالأعياد أو الولاية، وولادة مولود جديد، أو العودة من الصيد، وغير ذلك. ومنها قصيدة الصفيّ الحليّ «طلائع الإقبال» التي يهنىء الأفضل فيها بتوليه عرش حماة وصدور مرسوم الملك الناصر بذلك.

استهل الشاعر القصيدة بوصف حال الأفضل وحال حاسديه الذين حاولوا إبعاده عن الولاية لكن الله نصره عليهم. ثم ينتقل بعد ذلك إلى وصف بعض المناظر في حماة، وذكريات الجلسات الجميلة فيها، ثم ينتقل إلى التهنئة:

يا أيُّها المَلِكُ الذي سَرَّهُ ... طاعةُ ذي الأمرِ وإعلانُهُ

تهنَّ بالملك الذي لم تكُنْ ... تُلقى إلى غَيرِكَ أرسَانُهُ

طَلائِعُ الإقبال جاءَتْ وذا ... مُقتَبلُ العُمرِ ورَيْعانُهُ

فافخرْ فما فَخْرُكَ بِدْعاً وقد ... قامَ لأهلِ العصرِ بُرهَانُهُ (١٠٤)

وفي قصيدة أخرى هنأ فيها الأفضل بعيد الفطر بعد انقضاء الصيام :

فاسْعَدْ بعيدِ فِطْرِكَ السعيد ... مُمتَّعاً بعيشك الرَّغيدِ

في الصَّوْمِ والإفطارِ والتعييد ... للنَّاسِ في العام انتظارُ عيدِ

وأنت عيدٌ دائمٌ لا يُنتظَرُ (١٠٥)

ومن مواضيع التهنئة، التهنئة بالمولود، فهذا ابن نباتة يُهنىء الأفضل بمولودٍ جديدٍ، ويصف السعادة التي يشعر بها الأفضل :

نجمٌ تَولَّدَ بين الشَّمسِ والأسَدِ ... هَنِئتَ بالوالد الأزكى وبالوَلَدِ

ودامَ مُلكُكَ مضروباً سُرادِقُه ... على ضُروبِ التَّهاني آخرَ الأبَدِ

يا حبَّذا المَلِكُ قد مُدَّتْ سَعَادَتَهُ ... ما شئتَ من عضدٍ سامٍ إلى عضدِ (١٠٦)

---

(١٠٤) الصفيّ الحليّ : الديوان، ص٢٢١.

(١٠٥) المصدر نفسه، ص٢٣٣.

(١٠٦) ابن نباتة : الديوان، ١٣٢.

ويشير إلى أنّ مثل هذه البشارة، تؤكد استمرار الأسرة التقوية :

جاءَ البَشيرُ بِنَجْلِ النَّجل مُقْتَبلاً ... فيا لها من يدٍ موصولةٍ بيـــدِ
مَدَّتْ إليه المعالي كفَّ حاضِنَــةٍ ... وضَمَّه المُلْكُ ضَمَّ الرُّوحِ بالجَسَــدِ
وماستَ السُّمرُ بالأعجاب وابْتَسَمَتْ ... بيضُ السيوفِ وقرّت أعينُ الزّرد (١٠٧)

وأمّا وجه المولود فإنه بشارة الخير والتفاؤل :

له مَخايلٌ من مجدٍ تُكلِّمُنَــا ... في مَهدِهِ بلسان الحِلْمِ والرُشْــدِ
يا آلَ أيوبَ بُشراكم بوجهِ فتىً ... مُظَفَّرِ الحدِّ طلاّعٍ على نجــدِ
يروي حديثَ المعالي عن أبٍ فأبٍ ... روايةَ التبرِ في ألحاظِ متَّقِــدِ (١٠٨)

والقصيدة الأخرى لابن نباتة بالقدوم من الصيد يهنىء فيها المؤيد :

مرحباً بالحيا لكل جديـــبٍ ... لا عَدِمْنَا نَوالَه وظلالَـــهُ
جاءَ من صيدِهِ السعيد كبـــدرٍ ... ما رأى الطَّرفُ في السناءِ مثالَهُ (١٠٩)

والتهنئة بعيد النحر، كانت مجالاً للشعر، يقول الصفيّ الحليّ :

أيا مَلِكاً جُـــودُ ... كفَّيْهِ كَوْثَـــرْ
لرَبِّكَ صَلِّ بـــذا ... العيدِ وأنْحَـــرْ
وكُنْ مُوقِنـــاً أنْ ... شَانيكَ أبْتَـــرْ (١١٠)

هـ- الوصف : وشعر الوصف يشمل كافة الأغراض الشعرية وقد ظهر الوصف في الإخوانيات، والطرديّات.

أ- الإخوانيّات :

وقد تمثّلت الإخوانيّات في عهد الملك المؤيد ببعض القصائد الشعرية التي كتبها

---

(١٠٧) ابن نباتة: الديوان، ص ١٣٢. ماست، الميس، التبختر والاختيال، لسان العرب، مادة (ميس)، ج٣، ص٢٢٤.

(١٠٨) المصدر نفسه، ص١٣٢. التبر: الذهب، لسان العرب، مادة (تبر)، ج٢، ص٨٨؛ ابن منظور، جمال الدين محمد ابن مكرم، ت٧١١هـ لسان العرب، دار صادر، بيروت.

(١٠٩) المصدر نفسه، ص٤٠٩.

(١١٠) الصفيّ الحليّ : الديوان، ص٢٣٥. وقد تأثر الشاعر هنا بألفاظ القرآن الكريم في سورة الكوثر.

الصفيّ الحليّ إلى وطنه وأقاربه، وهو في هذه القصائد التي بعث بها من حماة إلى أهله في العراق يعبّر عن شوقه وحنينه، كما أنّه يبيّن مدى راحته وابتهاجه في حماة.

في قصيدة بعث بها من ماردين إلى الملك الأفضل أشاد فيها بمحاسن الأفضل ودعا له بالسعادة الدائمة. أمّا القصيدة الثانية، فإنه بعث بها من حماة، إلى الحلة إلى أحد أبناء عمومته، وقد بدأ قصيدته بمقدمة في الحنين لوطنه، يقول :

أتُرىَ البارِقَ الذي لاح ليــلاً ... مرَّ بالحَيِّ من مرابعِ لَيْلَــــى

وتَرى السحُّبَ مُذْ نشأنَ ثِقالاً ... سَحَبَتْ في ربوعِ بابِلَ ذيــــلا

وتعود الذكريات إلى وطنه وما قضاه فيه من أيام جميلة :

ما أضا البارقُ العراقـــيُّ إلاّ ... أرسلَتْ مُقلَتِي من الدَّمعِ سَيْلا

وتذكَّرتُ جيرةً بمغانيـــــــ ... ـه ونُدباً من آل سنبسَ قيــلا (١١١)

وبعث برسالة أخرى، إلى أحد إخوانه من حماة، حيث يتحدث في مقدمة القصيدة عن حاله، وما يتمتع به من سعادة وهدوء، في حماة وخاصة تلك الجلسات الجميلة على العاصي بين النواعير :

يا قاطِعَ البِيدِ يطويها على نُجُبٍ ... لم تُبقِ منها الفيافي غيرَ أشخاص

إذا وَرَدْتَ بها شاطي الفراتِ وقد ... نَكَبْتَ عن ماءِ حورانٍ وقيّـــاصِ

وجزت بالحلّةِ الفيحاءِ مُلتَمِحــاً ... آرام سِربٍ حَمتها أُسدُ عيّـــاصِ

فَقِفْ بسعديّها المشكورِ منشأهُ ... سعدِ بن مزيدَ لا سعدِ بن وقّــاصِ

واخبر بأنّي وإن أصبحتُ مُبتنياً ... مجداً وأعليَ قدري بعد إرخاصـي

صابٍ إلى نحوكُم صبٌّ بِحُبِّكُـمُ ... مُحافِظُ الودِّ للدّاني وللقاصــــي (١١٢)

وكتب في صدر رسالة أخرى للملك المؤيد، يقول :

سَقى الله أرضاً نُورُ وجْهِكَ شَمسُها ... وحيّا سَماءً أنتَ في أُفقِها بَـدْرُ

ورَوّى بلاداً جَودُ كَفِّكَ غيثُهــا ... ففي كُلِّ قُطْرٍ من نَداكَ بها قَطْرُ (١١٣)

---

(١١١) الصفيّ الحليّ: الديوان، ص٢٨٩.

(١١٢) المصدر نفسه، ص٢٩١.

(١١٣) المصدر نفسه، ص٣١٦. القَطْرُ: المطر. لسان العرب، ج٣، ص١٠٥، مادة (قطر).

ويعبّر له في رسالة أخرى عن مدى حبّه له وحنينه، يقول:

يا سادةً حُمِّلتُ من بُعدِهم ... أكثرَ من عهدي ومن طوقي
أصبحتُ كالورقاءِ في مَدْحِكمْ ... لما غدا إنعامكُمْ طَوقي
إنّ حواسِّيَ الخمسِ مُذْ غِبْتُم ... إليكُمْ في غايةِ الشّوقِ (١١٤)

كما بعث إليه أيضاً برسالةٍ أخرى يطلب فيها منه أن يحمل إليه غريماً ببلده، يقول:

يا أيُّها الملكُ الذي آراؤُهُ ... سحبتْ على هام السحابِ ذُيُولا
أنتَ المؤيَّدُ من إلهكَ بالذي ... طُلتَ الأنامَ به ونلتَ السُّولا
وبريف مِصْرِكَ لي عزيزٌ لم أجدْ ... بسواكَ للإنصافِ منه سبيلا
لمّا عرضْتُ على عُلاكَ لذكْرِهِ ... طرَفاً وصادَفَ من نَداكَ قَبولا
هَنَّأتُ نفسي ثم قلت لها ابشري ... وثقي، فذلكَ وعدُ إسماعيلا (١١٥)

ومن الإخوانيات أيضاً، تلك الرسالة التي بعث بها كمال الدين الزملكاني، وقد كتبها لشرف الدين هبة الله ابن البارزي الحموي، يطلب منه فيها كتابه الذي شرح فيه نظم الحاوي، واسمه (تيسير الفتاوي في شرح الحاوي)، ولعلّ هذه الرسالة تختلف عن غيرها من الإخوانيات، فهي ليست وجدانية تعبّر عن الشوق والحنين، أو الاعتذار أو التهنئة، وإنما هي لطلب كتاب، ومن هنا فقد دخل في الإخوانيات موضوعات جديدة، كطلب كتاب، أو طلب إجازة أحياناً لقصيدة أو حديث، وترتّب على هذا أن تكون مثل هذه الرسائل خاليةً من العواطف المعبّرة لدخول موضوعات نثرية في هذه الإخوانيات، وهذا يدفعنا إلى القول أن النثر والشعر في هذا العصر قد اشتركا في كثير من الموضوعات، فأصبح الكتّاب يقولون ويكتبون بعض موضوعاتهم النثرية شعراً كما في هذه الرسالة، وفيها يقول ابن الزملكاني:

يا واحدَ العَصْرِ ثاني الشمسَ في شرفٍ ... وثالث العمريْن السّالفين هُدى
تيسيرُكَ الشاملُ الحَاوي البَسيط له ... نهايةٌ لم تَنَلْها غايةٌ أبدا

(١١٤) الصفيّ الحلي: الديوان، ص٣١٦. الطوْق: الطاقة، وهو اسم لمقدار ما يمكن أن يفعله الإنسان بمشقة، لسان العرب، ج٤، ص٢٣٣، مادة (طوق).

(١١٥) المصدر نفسه، ص٥٨١-٥٨٢.

مـحرّرٌ خَص بالفَتْحِ العَزيز ففـــي تهذيبه المقصد الأسنى لمن رشدا

وقد سَمَتْ هِمَّتي أن أصطفيه لها وأن أعلمه الأهلين والولـــــدا

فانعم به نسخةً صَحُتْ مقابلـــــةً ولاح توركَ في أثنائها وبـــــدا(١١٦)

وعندما وصلت هذه الرسالة إلى ابن البارزي * أعجبته كثيراً فجهّز نسخةً من هذا الكتاب وبعث بها إلى ابن الزّملكاني .

وقد قال ابن البارزي المذكور سابقاً في رسالة دعا فيها صاحب حماة، ولم يُبن المصدر هل هو المؤيد أو الأفضل، يدعوه إلى وليمة عُرسٍ ، يقول :

طَعامُ العُرْسِ مندوبٌ إليـــــه وبعض الناس صرّح بالوجـــوبِ

فجبراً بالتناول منه جريـــــاً على المعهودِ في جبر القلـــوبِ (١١٧)

ونجد هنا أن هذا الشعر عبّر عن شخصية قائله فإنّ أكثر ألفاظه فقهيّة بحتة بعيدة عن لغة الأدب مثل، مندوب، صرّح، والوجوب، والمعهود.

ب- الطرديّات :

من أشهر الطرديّات، قصيدتان؛ إحداهما لابن نباتة، واسمها «مصائد الشوارد»، وهي أرجوزة طويلة، والأخرى للصفيّ الحليّ، يهنىء فيها المؤيد عند قدومه من رحلة الصيد.

وقد اهتم ملوك حماة بالصيد، كثيراً فقد كان الملك المؤيد يقوم برحلات صيدٍ مع عمّه الملك المظفّر، وشارك الملك الناصر محمد بن قلاوون عندما كان يزور مصر في رحلات الصيد.

وقد بدأ ابن نباتة أرجوزته بمقدمة عن الطبيعة في حماة وجمالها :

أثنى شذا الرُّوضِ على فضلِ السُحُبِ واشتملتْ بالوشيِ أردافُ الكُتُبِ

---

(١١٦) ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، ج٢، ص٤٠٢؛ ابن الزملكاني هو : محمد بن علي بن عبدالواحد بن عبدالكريم الأنصاري الدمشقي بن الزملكاني، ولد ٦٦٧هـ فقيه وعالم، فصيح القراءة، من المتقدّمين في الفتوى والتدريس، ت٧٢٧هـ (الدرر، ج٤، ص١٩٢).

* ابن البارزي: شرف الدين أبو القاسم هبة الله، ت٧٣٨هـ تولّى قضاء حماة فترة طويلة، وله كتب كثيرة (المختصر، ج٤، ص١٢٤).

(١١٧) أبو الفداء: المختصر، ج٤، ص١٢٥.

ما بين نورٍ مُسْفِرِ اللِّثـــامِ وزهرٍ يَضْحَكُ في الأكمـــــامِ

ويتحدث بعد هذا عن جمال الحياة في وادي حماة حيث الهناء والسعادة :

أحسنْ بوجْهِ الزَّمانِ الوسيمِ تُعرَفُ فيه نضرةَ النعيـــمِ

وحبَّذا وادي حماةَ الرَّحـــبُ حيثُ زهى العيشُ به والعُشبُ

ويصف الشاعر الإستعداد للرحلة مع بعض الصائدين :

بُروزنا للصَّيدِ فيه والقنصِ وحورنا من مُرِّه أحلى الفُـــرصِ

وأخذنا الوحشَ من المساربِ وفعلنا في الطيرِ فوق الواجـبِ (١١٨)

ويحدثنا الشاعر في هذه الأجوزة أيضاً عن أنواع الحيوانات التي يصطادونها، والخيول التي يركبونها، وعملية الصيد نفسها، ثم نهاية الرحلة الموفقة.

ويتحدث الحليّ عن رماية البندق في مروج فامية في حماة في عهد الملك الأفضـــل في قصيدة طويلة وصف فيها الأطيار الكثيرة ومنها :

أما ترى الأطيارَ في تشرينِ مُقبلةً بادية الحنـــــينِ

فريقها نابَ عن الأنيـــــنِ إذا رنت نحو المياهِ الجـونِ

يأمُرها الشَّوقُ وينهاها الحَذَرْ

هذي الكراكي حائماتٌ في الضُّحـى منظومَةٌ أو دائراتٌ كالرَّحى

إذا رأت في القيضِ ماءً طفَحَا تَفَرقُ في حال الورودِ مَرَحا

وما درت أنَّ المنايا في الصَّدَرْ

فابرُزْ بنا نحو مَرامي فاميه بين مرُوجٍ ومياهٍ طاميــــه

تلكَ المرامي لم تزل مراميـه ماسمُ بنا نحوَ رُباها السَّاميَة

وخلنّي من بلدةٍ فيهـــا زَوَرْ (١١٩)

---

(١١٨) ابن نباتة : الديوان، ص٥٨٥.

(١١٩) الصفيّ الحليّ : الديوان، ص٢٢٩ وما بعدها.

الفصل الثاني

الشعر في عهد الملك المؤيد وابنه الأفضل

من (٧١٠ - ٧٤٢هـ)

دراسة موضوعية

١- بناء القصيدة

٢- الصورة الشعريّة

٣- لغة الشعر

٤- الأوزان والقوافي

الفصل الثاني

الشعر في عهد الملك المؤيد وابنه الأفضل من ٧١٠ - ٧٤٢هـ

دراسة فنيّة

يتضمن فصل الدراسة الفنية للشعر في عهد المؤيد وابنه الأفضل، دراسة بناء القصيدة من حيث، المطلع، القصر والطول، وأسلوب الشعراء في قصائدهم، ولغة القصيدة، والفنون البديعية التي استخدمها الشعراء في قصائدهم، والأوزان والقوافي لهذه القصائد. وتتألف القصيدة الشعرية عادّة من مقدمة، وعرض لموضوع القصيدة، وخاتمة، ومن مستلزمات المقدّمة مطلع القصيدة أو أول أبياتها. وقد أشار حازم القرطاجني إلى أهمية المطلع عندما شبهه بمنزلة الغرّة في الوجه وأثرها في حسنه وجماله، وبيّن ما يجب أن يكون عليه هذا المطلع من جزالة، ودلالة على غرض القصيدة، فإن كانت مدحاً حملت في مطلعها ما يدلّ على ذلك، وأن كانت رثاء كانت في مطلعها تحمل ألفاظاً تشير إلى ذلك، كالحكمة وغيرها(١).

١- بناء القصيدة :

اجتمع في حماة الصفيّ الحليّ وابن نباتة وغيرهما من الشعراء المعاصرين. ولعلّ من أجمل المطالع التي مثلت قصائد الشعراء في عهد المؤيد وابنه، قصيدة ابن نباتة عندما عزّى الملك الأفضل بوفاة الملك المؤيد، وهنأه في القصيدة نفسها، يقول :

هناءٌ محا ذاك العَزاءَ المُقدَّما ... فما عَبَسَ المَحْزونُ حَتّى تَبسَّما

ثُغورُ ابتسامٍ في ثُغورِ مَدامعٍ ... شَبيهانِ لا يمتازُ ذو السَّبْقِ منْهُما(٢)

وحسن المطلع في هذه القصيدة، يكمن في قدرة الشاعر على الجمع بين التهنئة، والتعزية دون إخلالٍ في المعنى أو خروج على عادات العزاء.

(١) أبو الحسن، حازم القرطاجني (ت٦٨٤هـ): منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، تونس، ١٩٦٦، ص٤٠٥.

(٢) ابن نباتة : الديوان، ص٤٢٩.

ونجد قصيدة أخرى لابن نباتة، قالها في الملك الأفضل عندما تزهّد، فقد راعى الشاعر حال الأفضل في المطلع، واستخدم أسلوب النداء عندما خاطب الساقي، وهذا من شروط حُسن المطلع، يقول ابن نباتة :

إليكَ مُديرَ الكأسِ عَنّي إنَّنِي ... رأيتُ دُموعَ الخَوْفِ تَقطعُ للصَّدَى

وإيَّاكَ بالَّمياءِ يُشرقُ خَدُّها ... فإنّي لم آنسْ على نارهِ هُدَى

نَزَعْتُ فلا الساقي لَدَيَّ براكِعٍ ... وليستْ أباريقُ المُدامَةِ سُجَّدًا(٣)

وتستدعي التهنئة، وما فيها من البهجة والسرور، من الشاعر الحاذق أن يبدأ قصيدته، بما يُناسب شعور هذه البهجة، من الكلمات السهلة، والرقيقة، يقول ابن نباتة في تهنئة الأفضل بمولود :

هِلالٌ بأُفْقِ المُلْكِ تزهى سُعُودُه ... وشِبْلٌ بغابِ السُّمْرِ تربى أُسُودُه (٤)

فكلمة «هلال» وهي حالة القمر في بداية ظهوره، تقابل حال المولود في أول أيام حياته، والشبل ابن الأسد الصغير هو المولود الجديد، فقد اختار الشاعر الكلمات المناسبة لحال التهنئة في هذا البيت.

ونجد الصفيّ الحليّ، يستهل قصيدته التي قالها في حماة مُسمِّطاً فيها قصيدة ابن زيدون بقوله :

كانَ الزَّمَانُ بِلُقْيَاكُمْ يُمنِّينا ... وحادِثُ الدَّهْرِ بالتَّفريقِ يُثْنِينَا

فَعِنْدَما صَدَقَتْ فيكم أمانينا ... أضحى التنائي بديلاً من تدانينا

وناب عن طيبِ لُقْيانا تَجافِينا (٥)

وقد راعى الشاعر الحال، عندما تحدّث بصيغة الماضي عن الفراق وقدّم اللقاء على التفريق، وطابق أيضاً بين اللقاء والتفريق ليدلّل على تغيّر الحال.

ويؤخذ عليه المطلع الغزلي، الذي بدأ به قصيدته في مدح الأفضل، عند تسلُّمه

(٣) ابن نباتة: الديوان، ص١٣٩. الصدى: العطش الشديد، الوسيط ص٥١١. نَزَعت: نزع عن الأمر، كفّ وانتهى، الوسيط ٩١٣.

(٤) المصدر نفسه، ص١٣٩.

(٥) الصفيّ الحليّ : الديوان، ص٣٥٩.

عرش حماة، بعد وفاة والده، فإنّ المطلع لم يكن يناسب حال الأفضل، وما كان عليه من انتظارٍ وخوفٍ من أن لا يوافق الملك الناصر على تولّيه الحكم في حماة. حيث نراه يقول في مقدمة غزليّة :

عانَدَهُ في الحُبِّ أعوانُـــــه وخانَهُ في الرَّدِ إخوانُـــــه

مُتَيَّمٌ ليسَ لهُ ناصِـــــرٌ أوّلُ من عاداهُ سُلوانُـــــه (٦)

وأجاد في قصيدة عزّى بها الأفضل، عند وفاة المؤيد عندما بدأها بحكمةٍ، تبيّن أنّ لا بقاء لأحدٍ في هذه الدنيا، حيث نراه يقول :

خَفِّضْ هُمومَكَ فالحياةُ غَـــرورُ ورَحى المَنونِ على الأنامِ تَـــدُورُ (٧)

ونجد أيضاً المطالع الغزليّة، التي تميّزت بالخفّة، والعبارات ذات الوقع الجميل، كما ورد في قول الشهاب الحاجبي :

عَمّا جَرى من أدْمُعِي لا تسالوا فمَدامِعي أخبارُها تَتَسَلْسَـــلُ (٨)

وقد يكون المطلع خالياً من الجزالة، ليس فيه حرارة الشعور، فيغدو مجموعة من الكلمات الموزونة، كقول الصفيّ الحليّ في قصيدة، هنأ فيها الأفضل بعيد النحر :

زمانُ الرَّبيـــعِ شَبابُ الزَّمـــانِ

وحُسْنُ الوجـودِ وجُودُ الحِسَـــانِ

وأمْنُ البَليـــغِ بُلوغُ الأمانـــي (٩)

ويتّضح لنا الفرق بين هذا المطلع، ومطلعٍ آخر للشاعر نفسه في قصيدة رثاء، للملك الأفضل، دلّ على مقدار الحزن والألم الذي شعر به الحليّ، وقاله شعراً :

ما للجبالِ الرَّاسياتِ تَســـيرُ أفآن بَعْثٌ لِلْوَرى ونُشـــورُ (١٠)

---

(٦) الصفيّ الحليّ: الديوان، ص ٢٢٠.

(٧) المصدر نفسه، ص٢٨٥

(٨) ابن حجة الحموي : خزانة الأدب، ج٢، ص٢٠٢.

(٩) الصفيّ الحليّ : الديوان، ص٢٣٤.

(١٠) المصدر نفسه، ص٣٨.

وعبّر الشاعر عن حالته بالإستفهام، والتهويل لعظم المصيبة وشدّتها. وتطالعنا أيضاً بدايات لقصائده تميّزت بالخفة والحركة مثل قول ابن نباتة:

بَدَتْ في رداء الشَّعرِ باسمة الثغرِ   فَعَوَّذتُها بالشَّمسِ والليل والفَجْرِ (11)

وقوله في قصيدته التي عارض فيها أسعد بن مماتي :

أفدي قَمَرْ عَقلي قَمَـــــــــرْ   ثُمَّ غَدَرْ لَمّا قَـــــــــدَرْ

فلا وَزرْ، ولا مَفـــــــــرّ   يا من شَهر، سَيْفَ الحَــوَرْ (12)

والعنصر الآخر في بناء القصيدة، هو المقدّمة التي تأتي بعد المطلع، وتسبق الغرض الرئيس للقصيدة. وقد تنوّعت هذه المقدّمات، في عهد المؤيد وابنه بين المقدمة الغزلية، التي احتوت على نوعين من الغزل : غزل المذكر، وغزل المؤنث، إلاّ أن غزل المذكر غلب على قصائدها، أو وصف الطبيعة، والحنين، والحكمة والموعظة،، ووصف الخمر والساقي والساقية. وأكثر قصائد هذه الفترة وهي في عهد المؤيد وابنه، تبدأ بالغزل، إلاّ بعض قصائد في الرثاء. وعلى الرغم من أنّ الشعراء حافظوا على تقليدية المقدمة من البدء بالغزل، إلاّ أن هذا التقليد لم يكن حرفياً، فقد تغيّرت مفاهيم كثيرة عندهم فلا نجد وصفاً للناقة، ولا الرحلة، ولا عناء السفر.

والغزل المذكر نوعٌ من التقليد، الذي شاع في هذا العصر، وإنْ عُرِف عن بعض الشعراء، اقتناء الغِلْمان، والولع بهم، ومنهم صفيّ الدِّين الحليُّ، «الذي عُرف عنه اقتناؤه للغلمان وشغفه بهم، حتى التوسل والبكاء لفراقهم»(13).

ويقول متغزِّلاً بأحد مماليك الأفضل عندما جاءه يحمل هدايا منه :

مُوَلَّدُ التُّركِ وكم من كمــــدِ   مُوَلَّدٍ من ذلك المولَّـــــــدِ

مُعْتَدِلُ القَدِّ عليه كُمَّـــــةٌ   فهو بها كالألفِ المُشَـــــدَّدِ

(11) ابن نباتة : الديوان، ص195.

(12) المصدر نفسه، ص193: أسعد بن مماتي: وزير وأديب، كان ناظر الدواوين بمصر، توفي بحلب، ومن كتبه قوانين الدواوين، وديوان شعر، ولد 544هـ وتوفي 606هـ (الأعلام، الزركلي، ج1، ص302).

(13) ياسين الأيوبي : صفيّ الدين الحليُّ، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1971، ص232.

قال المجوسُ إنَّ نورَ نَارِهـــم ... لو لم تُشابِه خَدَّهُ لم تُعْبَـــدِ (١٤)

ومنه قول عمر بن العديم في عطّار :

أفديه عَطّاراً شَهيّ اللّمــــى ... أحوَر فتّاناً كحُورِ الجِنـــانِ

بي غَمرَةٌ منه فيا لَيْتَـــهُ ... لو جاء لي يوماً بما اللسـانِ (١٥)

ومن الغزل المؤنث قول ابن نباتة :

صُدُودُكِ يا لمياءُ عنّي ولا البُعْدُ ... إذا لم يَكُنْ مِنْ واحدٍ منهما بُـدُّ

برُوحيَ من لمياءَ عِطْفٌ إذا زها ... على الغُصْنِ قال الغُصْنُ ما أنا والقدُّ (١٦)

ونجد المقدّمات، التي يصف فيها الشاعر الكأس، والشراب، ومجلس الندمان، ولعلّ هذا تقليد عام، كما سبق، لأنّ المصادر لم تذكر للمؤيد وابنه الأفضل، مجالس خمرٍ وشرابٍ ومن هذه المقدّمات، قول الحليّ :

وزَوِّج بماء الحيا السَّلْسَـــلِ ... عُروساً من الخَمـــــرِ

أدِرْها مُعَتَّقَـــةً ... خَنْدَريســــا

تُميتُ العُقُـولَ ... وتُحْيِي النُّفُوسـا

إذا ما سَبَـــتْ ... بِسَنَاها الكُؤوسـا

تُشَاهِدُ كُلاًّ مــن ... الصَّحْبِ مُوسَـى (١٧)

ويقول ابن نباتة أيضاً :

عَوِّضْ بكأسِكَ ما أتلفت من نَشبٍ ... فالكاسُ من فضّةٍ والرّاحُ مِنْ ذَهَبِ

وأخطُبْ إلى الشُّرْبِ أمّ الدّهرِ إن نسبت ... أختَ المسرةِ واللهو ابنة العِنَـــــبِ

---

(١٤) صفيّ الحليّ، الديوان، ص٢٢٣. كُمَّةٌ : القلنسوة المدورة تغطي الرأس، الوسيط، ص٧٩٨.

(١٥) الصفدي : أعيان العصر، ج٢، ص٢٩٨. غَمْرةٌ : الغَمْرةُ : الشِّدّة، الوسيط، ص٦٦١.

(١٦) ابن نباتة : الديوان، ص١٣٥. عِطْفٌ : العطف : الجانب، وهو من الإنسان من لدن رأسه إلى وركه. الوسيط، ص٦٠٨.

(١٧) الصفيّ الحليّ : الديوان، ص٢٣٤. خندريسا: الخمر القديمة، الوسيط، ج١، ص٢٥٨.

غرّاءُ حاليةُ الأعطافِ تَخْطُرُ فــي ثَوْبٍ من النُّورِ أو عِقْدٍ من الحَبَبِ (١٨)

وقد تكون المقدّمة في الدعاء كقول الصفيّ الحليّ في الملك المؤيد :

جَزَاكَ اللّهُ عن حُسناكَ خيـراً وكانَ لكَ المُهَيْمِنُ خَيـرَ راعِ

فقد قَصّرت بالإحسانِ لَفظـي كما طَوّلتَ بالإنعامِ بَاعِـي (١٩)

وحسن التخلص من مقوّمات بناء القصيدة، ويكون بالانتقال من جزء إلى آخر في القصيدة، مع مراعاة ربط أجزاء الكلام ببعضه، بطريقة تجعل القصيدة منسجمة في نسجها وألفاظها، وليس فيها انقطاع بين أجزاء الكلام.

ومن التخلصات الجيدة في شعر الحليّ، الذي قاله في الملك المؤيد حسن تخلصه، في إحدى موشّحاته، فقد أحسن الانتقال من الغزل إلى المديح، يقول :

بشعري فهو حَضْراتُ المَجَالِس وفاكِهَةُ المُفاكِهِ والمُجالِـس

أما قالَ الـــذي في الحُسنِ زَيّـــدْ

ومَنْ وَجَدَ النَّـدى قيداً تَقَيَّـــدْ

فها أنا في حِمَــى المَلِكُ المؤيَّــــدْ (٢٠)

فجعل الندى الذي يتقيد به، هو حمى الملك المؤيد، فأحسن ربط المقطع بما سبقه. وقوله أيضاً في قصيدة أخرى يمدح بها الأفضل :

والأُفقُ حالٍ بنُجومِ الدُّجَــى قد كُلّلَتْ بالدُّرّ تيجانُـــه

كأنّما الجوزاءُ فيهِ، وقــد حَفّ بها البَدرُ وكيوَانُـــه

بيتُ بني أيوبَ، إذ شُيِّــدَتْ بالملكِ النّاصرِ أركانُــه (٢١)

فقد انتقل الشاعر من الوصف إلى المديح، عندما ربط التشبيه في البيت الثاني

---

(١٨) ابن نباتة : الديوان، ص٢١. النَّشب : المال، العقار، الوسيط، ج٢، ص٩٢١. الحَبَبُ: الأسنان المنضّدة، الوسيط، ج١، ١٥١.

(١٩) الصفيّ الحليّ : الديوان، ص٢١٩.

(٢٠) المصدر السابق نفسه، ص٢١٥.

(٢١) المصدر السابق نفسه، ص٢٢.

بالبيت الثالث.

ومنه قول ابن نباتة، عندما تخلّص من الغزل إلى المديح بأسلوبٍ جميل، عزّز فيه الشاعر البيت الذي يليه بالمعنى :

آهاً لوردٍ فوقَ خدِّكَ أحمـــرَ ... لو أنَّ ذاكَ الوردَ كان نصيبـــي
ولواحظٍ ترثُ الملاحة في الظُّبا ... إرثَ السماحةِ في بني أيـــوبِ
فتحت بنو أيوبَ أبوابَ الرَّجا ... وأتَتْ بحارُهُمو بكلِّ عَجيـــبِ (٢٢)

ومن حيث طول القصائد وقصرها فقد تراوحت بين القصائد الطويلة مثل قصيدة ابن نباتة المسمّاة «مصائد الشوارد» والقصائد المتوسطة، كقصائد، المدح، والرثاء. والقصائد القصيرة مثل الإخوانيات، والمقطوعات في أغراض محدّدة.

وقد ختمت القصائد، بأبيات تناسب الحال، من حيث طلب السقيا والدعوة بالبقاء في كثير من القصائد، ومن ذلك قول الحليّ في إحدى مدائح المؤيد :

فلا أرَتْنَا الأيّامُ فيـــك ردىً ... ولا أماطَتْ عن حاسدٍ حَزَنَـــهْ
وعمرَّ اللّهُ حاسديكَ لكــــي ... تعيشَ في الذُّلِ عيشةً خَشِنَـــهْ (٢٣)

وقول ابن نباتة في المؤيد أيضاً :

سُقياً لدُنياكَ لا كفٌّ بخائبـــةٍ ... فيها لديك ولا وصفٌ بأفّـــاكِ
مَنْ كانَ في خِيفَةِ الإنفاقِ يُمسِكُها ... فأنْتَ تُنفِقُها من خوفِ إمْسَـاكِ (٢٤)

٢- الصورة الشعريّة :

وتشمل الاستعارات والكنايات والتشبيهات، لما لها من دورٍ كبيرٍ في إعطاء العمل الأدبي، شعراً ونثراً، ميّزةً تجعله محبّباً، لأنه يحتوي من الصور الجميلة، والتشهبيات الرائعة، وبلاغة وتمكنٍ من أداء المعنى. وقد ورد عدد كبير من الصور

(٢٢) ابن نباتة : الديوان، ص٢٠ . الظُّبا : حد السيف، الوسيط، ٥٧٥.
(٢٣) الصفيّ الحليّ : الديوان، ص٢١٢.
(٢٤) ابن نباتة : الديوان، ص٣٦١.

الشعرية في أشعار شعراء المؤيد وابنه الأفضل، منها ما هو تقليدي، ومنها ما هو تجديدي. ومن الصور التقليدية تشبيه الممدوح في جوده وكرمه بالسحاب، على نحو ما نرى في قول الصفيّ الحليّ :

سَحابُ جُودٍ على الوَرَى هَطَــــلا لا بَرقُهُ مُبطيءُ النّــوالِ ولا

حَمَـــــاةُ أصبَحَـتْ للأنام حِمىً خُلَّـــبَ

حويتَ مُلكاً على الملوكِ سَمَـــا

بَحراً غَدا بالعُلومِ مُلتطِمـــــا (٢٥)

فالممدوح بحرٌ وسحاب، وهي صورة مألوفة، والمحبوبة غزال خفيف رشيق، والقدّ غصنٌ ليّن، والوجه هلال وبدر، يقول ابن نباتة :

يا غَزَالاً رَنا وغُصْنَاً تَثنَّــى وهِلالاً سَما وبدراً أنَـــارا (٢٦)

ويأتي الحليّ بالصورة الفلكيّة للجوزاء ليبيّن مكانة الملك المؤيد :

كأنّما الجَوْزاءُ فيه وقـــد حَفَّ بها البَدْرُ وكيوانُــــه

بيتُ بني أيوبَ إذ شُيِّـدَتْ بالملكِ النّاصرِ أركانُـــه (٢٧)

فالجوزاء في السماء وضوؤها الساطع وتحيط بها النجوم كالملك الناصر الذي هو نجم بني أيوب.

ومن الصور الجديدة أن الشاعر لا يصف جمال عين المحبوب، وإنما أقرب شيء إليها وهو الحاجب، والخد ليس ورداً وإنّما نار تصلي المحبَّ:

وعَيْنَاكَ قد فوّقتْ أسهمـــاً فَمنْ دَلّهُنّ على مَقْتَلِـــي

وخدُّكَ مَوقَدةٌ نَـــارُهُ وقلبي بِجُذْوَتِها يَصْطَلِـــي (٢٨)

ونجد ما سمّي بالتشبيه المقلوب، فالممدوح الذي كان يشبّه بالسحاب في أبياتٍ

(٢٥) الصفيّ الحليّ : الديوان، ص٢١٤.

(٢٦) ابن نباتة : الديوان، ص١٩٠.

(٢٧) الصفيّ الحليّ : الديوان، ص٢٢١.

(٢٨) المصدر نفسه، ص٢٢٦.

سابقة، أصبح السحاب يشبّه به في الجود والعطاء. على نحو ما نرى عند ابن نباتة في مدح الأفضل :

وأبيه ما للسُّحُبِ مثلُ بنَانِــهِ ... وانظر إليها إذ تغيضُ وتَنضَبُ

ما سُمِّيَتْ بالسُّحْبِ إلا أنهــا ... في أُفْقِهَا من خجلةٍ تَتَسَحَّــبُ (٢٩)

والبحر يشبّه بالممدوح، في الكرم والعطاء، يقول الصفيّ الحليّ في المؤيد :

مَلِكٌ لو أنَّ البِحَارَ تُشْبِهُــهُ ... لأصبحَ البْحرُ باذِلاً سُفُنَــــه (٣٠)

ومن الصور الجميلة لكرم الممدوح، قول ابن نباتة :

لا يَقْرَبُ الصَّبْرُ قلبي أو يُفارِقُه ... كأنّهُ المالُ في كَفِّ ابن أيــوبِ (٣١)

ومنها قوله أيضاً في المؤيد :

هاجرٌ حرف لا إذا سُئِلَ الجودَ ... كهجرانِ واصلِ للــــــرّاءِ(٣٢)

وصورة جميلة أخرى، عندما أتى الصفيّ الحليّ بتشبيه سرعة انتشار ذكر الأفضل، يقول :

فانْظُر إلى زهْرِ الرِّياضِ المُقْبِلِ ... إذْ جادَهُ دَمْعُ السَّحابِ المُسبِــلِ

يَضُوعُ من شَذاهُ عَرْفُ المَنْــدِلِ ... كأنّهُ ذِكْرُ المليكِ الأفضَـــــل

إذا طَوَاهُ الوَفدُ في الأرضِ انْتَشَـــر (٣٣)

فهذه الأزهار الجميلة، ذات الرائحة الزكيّة، تشبه ذكر الأفضل في سرعة انتشاره الذي تسير به الركبان.

ونجد في القصائد، التشخيص، وبث الحياة في المعاني المعنويّة، مثل : الفخار

---

(٢٩) ابن نباتة : الديوان، ص٢٥. تغيض : غاض الماء، نزل في الأرض وغاب فيها، الوسيط، ص٦٦٨.

(٣٠) الصفيّ الحليّ : الديوان، ص٢١١.

(٣١) ابن نباتة : الديوان، ص٢١.

(٣٢) المصدر نفسه، ص٥.

(٣٣) الصفيّ الحليّ : الديوان، ص٢٣٢. عَرْف : العرف: الرائحة مطلقاً، وأكثر ما يستعمل في الطيبة منها، الوسيط، ص٥٩٥.

والسؤدد، كما في البيتين التاليين كما نرى في قول الحليّ :

من آل أيّوبَ الذينَ أصبحـــوا كَواكِباً بها الأنامُ تَهتَــــدِي

من كُلِّ خفّاقِ اللواءِ لابـــسٍ ثوبَ الفَخارِ مطرَّزاً بالسؤدَدِ (٣٤)

بل إنَّ السماح قد قضى شهيداً لولا وجود الأفضل، يقول الحليّ :

ولولا وجُودُكَ كان السَّمـــاحُ تَحْتَ الصَّفَائحِ والجَنْــــدَلِ (٣٥)

وعناصر الطبيعة أيضاً، تتكلم وتنبعث فيها الحياة على نحو ما نرى في قول ابن نباتــة :

والأرْضُ ناطِقَةٌ عن صُنْعِ بارِئِهَا إلى الوَرَى وعجيبٌ نُطْقُ خَرساءِ (٣٦)

بل إنّ ابن نباتة، بثّ الحياة في أجزاء الكلمات، وهي الحروف ليجعلها تقوم بما يقوم به البشر، من ركوع وامتنان للملك المؤيد، يقول :

ركَعت لذِكْراهُ الحروفُ فلم تَكَدْ تَتَبَيَّنُ الألِفاتِ من دالاتِهَـــا (٣٧)

والدهر أيضاً هو جَمَلٌ، يجثم على الليالي بهمومه وما يحمله من حوادث، يقول ابن نباتة :

أهاً لِذِكْرِ ليالٍ ما فَطِنَتْ لهـا حتّى أناخَ عليها الدَّهْرُ فانتزحتْ (٣٨)

وقد استفاد الشعراء، من المصطلحات اللغوية، في التجسيم والتشخيص على نحو ما نرى عند ابن نباتة :

لامُ العَذارِ أطَالَتْ فيكَ تَسْهِيدي كأنَّها لِغرامي لامُ تَوكِيــــدِ (٣٩)

---

(٣٤) الصفيّ الحليّ: الديوان، ص٢٢٤.
(٣٥) المصدر نفسه، ص٢٢٤.
(٣٦) ابن نباتة : الديوان، ص٥.
(٣٧) المصدر نفسه، ص٦٦.
(٣٨) المصدر نفسه، ص٩٧.
(٣٩) المصدر نفسه، ص١٢٦.

وقوله :

لا تَجعلِ اسميَ للعُذّالِ مُنْتَصِباً   فما لتعريف وَجْدي فيكَ تَنكِيرُ (٤٠)

واستخدم ابن نباتة معلوماته الفلكية أيضاً في مدح المؤيد :

والشائدين على كيوانَ بيتَ علىً   تَغيبُ زُهرُ الدَّراري وهو لم يَغِبِ

بيتٌ من الفَخْرِ شادُوه على عمدٍ   وبالمجرّةِ مدُّوهُ على طَنَـــبِ (٤١)

وقد استخدم الشعراء الطبيعة في تكوين صورهم أيضاً، يقول الحليّ :

فَحبّذا العاصي وطيبُ شِعبِـهِ   ومائِهِ المُسلسَلِ المُجَعَّـــدِ

والفُلْكُ فَوقَ لُجّهِ كأنَّهــا   عقارِبٌ تَدُبُّ فَوْقَ مِبْـــرَدِ (٤٢)

وقد رسم لنا ابن العديم لوحة فنيّة جميلة تزخر بالحركة والحياة وجمال الطبيعة، يقول:

كأنّ وجه النهر إذ حفت بــه   أشجارُهُ فصافحته الأغصُـنُ

مرآةُ غيدٍ قد وقَفْنَ حَوْلَهـا   ينظرن فيها أيهنَّ أحســنُ (٤٣)

وقول ابن نباتة :

يَتَثنّى كَقامَةِ الغُصْنِ اللـدْ   نِ ويَعْطُو كالظَّبْيَةِ الأدمــاءِ (٤٤)

كما استمدّ الشعراء بعض صورهم الشعرية من التراث العربي، والأمثال، والحوادث التاريخية، والدينية، ومنها قول الحليّ :

إنْ ذُكِرَ العِلْمُ فنُعمانُــهُ   أو ذُكِرَ الحكمُ فلُقمانُــهُ (٤٥)

---

(٤٠) ابن نباتة: الديوان، ص١٨٥.
(٤١) المصدر نفسه، ص٢٣.
(٤٢) الصفيّ الحليّ : الديوان، ص٢٢٢.
(٤٣) الصفدي: أعيان العصر، ج٢، ص٢٩٨.
(٤٤) ابن نباتة : الديوان، ص٤.
(٤٥) الحليّ : الديوان، ص٢٢٢.

وقول ابن نباتة :

جائرُ الحُكْمَ قَلْبُهُ لي صَخْــرٌ   وبكائي له بُكاءُ خَنْسَـــاءِ ([46])

وقول ابن نباتة :

مَلِكٌ بِأدنى سَطْوِه ونَوالِـــهِ   أنسى ندى هَرَمٍ وبأسَ شبيبِ ([47])

وقول الشهاب محمود :

مَنْ حَاتِمٌ يَومَ القِرَى والنَّـدا   مَنْ عامِرٌ يَوْمَ الوَغَى والجِـلادِ

مَنْ أحْنَفٌ في الحِلْمِ دَعْ ذِكْرَهُ   ولا تَقِسْ قُسّاً به في إيـــادِ ([48])

وقول ابن حمّاد الذي استخدم مصطلحات فقهيّه في شعره، حيث كان مفتياً :

يتلو المُلامَ على سَمْعِي فيُكَذِّبُهُ   قَلْبي بِنَاءً على ما قَدْ رأى بَصَري ([49])

ومن الثقافة اللغوية، قول الحليّ :

وَدَعْ طِوالاً عُرِفتْ بِوَسْمِهَــا   وأرْبُعَاً لم يَبْقَ غَيرُ رَسْمِهَـا

واجعلْ سرُورَ النَّفسِ أسنى قسمُها   وادخلْ في بَحْثِ إنْ واسمِهـا

وخلّني من ذِكْرِ كانَ والخَبَـــــر ([50])

وموضوع التعريف والتنكير في النحو باب كبير تطرّق إليه الشعراء، يقول ابن نباتة :

لا تَجْعلِ اسمي للعُذّالِ مُنْتَصِباً   فما لِتَعريفِ وَجْدي فيكَ تَنْكيرُ ([51])

والثقافة الشعريّة تحدّث فيها الشعراء وطوّعوها لأغراضهم، يقول الحليّ :

---

(٤٦) ابن نباتة : الديوان، ص٤.

(٤٧) المصدر نفسه، ص٢٠.

(٤٨) الصفدي : أعيان العصر، ج١، ص١٦٣.

(٤٩) المصدر نفسه، ج٣، ص٣٥٩.

(٥٠) الحليّ : الديوان، ص٢٢٨.

(٥١) ابن نباتة : الديوان، ص١٨٥.

لَوْ لَمْ يَكُنْ الشِّعْرُ للمُحاوِلِ صَعْباً ... ما أصْبَحَ من دونه البُيوتُ بأقْفَالْ (٥٢)

وقوله :

بَيْتُ بَنِي أيوبَ إذ شُيِّـــدَتْ ... بالمَلِكِ النَّاصِرِ أركانُــــه

بَيْتُ أثيلٌ بَحْرُهُ وافِــــرٌ ... قد سَلِمَتْ في المَجْدِ أوزَانُـــه (٥٣)

والثقافة العربية بما فيها من حوادث تاريخية واجتماعية ودينية استمدّ منها الشعراء صوراً كثيرة، على نحو ما نرى عند الحليّ :

والرِّيحُ تَجْري رَخاءً بين جَدْوَلِها ... والطَّيْرُ بَيْنَ بَنَّاءٍ وغَـــوَّاصِ (٥٤)

وقول ابن حمّاد :

بِجَانِبِ خَدِّهِ أنَستُ نَـــاراً ... ولكِنِّي وجدْتُ بها ضَلالَـــة (٥٥)

وقول الشهاب الحاجبي :

وفعلتمْ بي ما يَسُرُّ عواذِلِــي ... ما شِئْتُم يا أهلَ بدرٍ فافْعَلُـوا (٥٦)

ويرد ذكر الجنة والجزاء في الآخرة، يقول الحليّ :

فلم تَقُلْ عَنْكَ نَفْسٌ في تملْمُلِهَا ... يا جَنَّةَ الخُلدِ أبدلنا بِسَلسَلِهَـا

والكَوْثَرِ العَذْبِ زقوماً وغُسْلِينَــــا (٥٧)

وقد ضمّن الشعراء في أبياتهم من أشعار شعراء آخرين مثل ابن نباتة، الذي ضمّن قول أبي تمّام في فتح عمورية، يقول :

---

(٥٢) الحليّ : الديوان، ص٢١٨.

(٥٣) المصدر نفسه، ص٢٢٠. رخاء : الريح اللّيّنة . اللسان، مادة (رخا)، ص٣١٥.

(٥٤) المصدر نفسه، ص٢٩٠.

(٥٥) الصفدي: أعيان العصر، ج٣، ص٣٥٩.

(٥٦) ابن حجة: الخزانة، ج٢، ص٢٠٢.

(٥٧) الحليّ : الديوان، ص٣٦٣. الكوثر: نهرفي الجنة، تفسير الجلالين، ص٨٢٤. غسلينا: صديد أهل النار، تفسير الجلالين، ص٧٦٣.

يا تَاليَ العَذْلِ كُتُباً في لَواحِظِـهِ   (السَّيْفَ أصدَقُ أنْبَاءً من الكُتُبِ) (٥٨)

وقوله من شعر طرفة :

تحدِّثُكَ الأنْفَاسُ فيها عن اللُّمـا   (ويأتيكَ بالأخْبَارِ من لم تُـزَوِّدِ)

فَشِمْ بارقاً قد خوَّلتُكَ ولا تَشِـمْ   (لِخَولةَ أطلالٌ بِبُرقةِ ثَهْمَـدِ) (٥٩)

وتظهر أيضاً عناصر اللون والحركة في أشعار شعراء المؤيد وابنه الأفضل، على نحو ما نرى في قول الحليِّ :

يُرِيكَ من عارِضيْهِ وفَرْقِـهِ   ضِدَّيْنِ قد زادا غليلَ جَسَـدي

فَذَاكَ خَطٌّ أسودٌ في أبْيَـضٍ   وذاكَ خَطٌّ أبيضٌ في أسْـوَدِ (٦٠)

وقول ابن نباتة :

فَمَا يَصُدُّ كما والحالُ داعِيَـةٌ   عَنْ شُرْبِ فَاقِعَةٍ للهمِّ صفـراءِ

وعنصر الصوت في قوله أيضاً :

وسُكراً أحيطَتْ أباريقُ المُدامِ بِهِ   فرُجِّعَتْ صَوْتَ تمتامٍ وفأفَـاءِ (٦١)

وقول ابن طرطور :

وكأنَّي الوَرْقَاءُ مَنْ فُرقهِ الإلفِ   تَلَهَّبْ بالسَّجْعِ فـي الأوراقِ (٦٢)

وقد يجمع الشاعر أحياناً بين أكثر من صورة، كقول الحليِّ :

وناجِمُ الأزْهارِ من مُنْظَـمٍ   على شواطيهِ ومن مُنضَّـدِ

مِنْ زَهْرٍ مُفَتَّحٍ أو غُصُـنٍ   مُرَنَّحٍ أو طائرٍ مُغَـرِّدِ (٦٣)

---

(٥٨) ابن نباتة: الديوان، ص٢٢.

(٥٩) المصدر نفسه، ص١٢٨. شم: من شام الشيء أي تطلّع نحوه. اللسان، ص٣٢١. بارق: السحاب، اللسان، مادة (برق) ج٤، ص١٤.

(٦٠) الحليُّ : الديوان، ص٢٢٣.

(٦١) ابن نباتة : الديوان، ص٥.

(٦٢) الصفدي: أعيان العصر، ج٢، ص٩٦. السجع: صوت الحمام عندما يهدل، اللسان: مادة (سجع)، ص١٥٠.

(٦٣) الصفيّ الحليّ : الديوان، ص٢٢٤. ناجم: من نجم: ونجم الشيء طلع وظهر. اللسان،، مادة (نجم) ص٥٦٨.

وقول ابن نباتة :

شرفٌ في تواضعٍ ونـــوالٌ ... في اعتذارٍ وهيبةٌ في حيـــاءِ (٦٤)

وقول الحليّ :

من آل أيّوبَ الّذينَ أصبحـوا ... كَوَاكِباً بها الأنَامُ تَهْتَـــدِي

من كُلِّ خَفّاقِ اللّواءِ لابِـــسٍ ... ثَوْبَ الفَخَارِ مطرَّزاً بالسُـؤدَدِ

مهّذبٍ مُحَبَّبٍ مُجَـــــرَّبٍ ... للمُجتني، والمُجْتلي، والمُجَتـدي

فَقوْلهُ، وطوْلُهُ، وحَوْلُـــهُ ... للمُعتَني، والمعتفي، والمُعتَـدي (٦٥)

وأحياناً أخرى ترد أبيات طويلة في وصف شيء واحد، مثل وصف هلال العيد عند ابن نباتة، حيث حاول الشاعر حشد عددٍ كبيرٍ من الأشكال لوصف هذا الهلال ولعله نوع من الحلوى على شكل هلال، فـهـو مـرّة قـوس، وأخرى مـخلب نسـر، أو منجل، وخنجر، وراكع الظهر، وزورق:

كأنّ شَكْلَ هِلالِ العِيدِ فـــي يَدِهِ ... قوسٌ على مُهَجِ الأضْدادِ موتُــورُ

أو مخلبٌ مدّهُ نسر السَّماءِ لهم ... فكلّ طائرِ قلبٍ منه مذعُـــورُ

أو منجَلٌ بحصاد القوم منعَطِفٌ ... أو خنجرٌ مرهفُ النَّصْلَين مَطْـرورُ

أو نعلِ تبرٍ أجادَت في هديتـهِ ... إلى جوادِ ابن أيوبَ المقاديـــرُ

أو راكعُ الظهر شكراً في الظلام على ... مَنْ فَضْلُهُ في السَّمَاءِ والأرض مَشْكورُ

أو زَوْرَقٌ جاءَ فيه العِيدُ مُنحدراً ... حَيْثُ الدُّجَى كعُبابِ البحرُ مَسجورُ

أو لا فقل شَفَةٌ للكأس مائلــةٌ ... تَذكُرُ العيش أنَّ العيشَ مذكـــورُ

أو لا فَمِن رمضَانَ النون قد سَقَطتْ ... لما مضى وهو من شوّالَ مَحْصُـورُ (٦٦)

---

(٦٤) ابن نباتة: الديوان، ص٤.

(٦٥) الحليّ : الديوان، ص٢٢٢. المجتني: من جنى الذنب، عليه جناية، اللسان، ص١٥٤. المعتني: من عنا: وهو طالب الرأي الجيد، اللسان، ص١٠٢. المجتلي: جلا القوم عن أوطانهم، خرجوا من بلد إلى بلد. المعتفي: طالب المعروف، اللسان، مادة (عنا)، ص٧٤.

(٦٦) ابن نباتة: الديوان، ١٨٦-١٨٨. موتور: الطالب للثأر، لسان العرب، (مادة وتر)، ص٢٧٤.) مطرور: من طرر: وطرّة كل شيء طرفه، اللسان، ص٥٥٠. مسجور: كثير الماء، اللسان، مادة (سجر)، ص٣٤٦. محصور: من حصر ومعناه: جبسه عن السفر، المصدر لسان العرب، ج٢، ص١٩٥.

- **الصورة البديعية** :

وتشمل الصورة البديعة: الطباق، والجناس، والتورية، وغيرها من ألوان البديع. وقد اهتم الأدباء في حماة وفي ظل الملك المؤيد في هذا العصر (المملوكي) بالصنعة البديعية كثيراً، وأصبحت مقياساً للإبداع، ولهذا فقد أكثر الشعراء منها في قصائدهم.

ومن الألوان البديعية التي ظهرت وأصبحت منهجاً واضحاً لكثير من الشعراء؛ الجناس، ومن الكتب التي اهتمّت به كتاب «جنان الجناس» للصفدي.

ومن صور الجناس التي ظهرت في عهد المؤيد وابنه الأفضل، قول الحليّ الذي مثّل هذا المذهب:

لا راجَعَ الطّرفُ باللّقا وَسَنَـــهْ   إن ذاقَ غُمْضاً من بعدِكم وسِنِـــه (٦٧)

وقد قال هذه القصيدة يشكر فيها الملك المؤيد الذي اقترح عليه هذه القافية. ولا يخفى الجناس هنا بين وسَنَهْ، وسِنَهْ، ومن الجناس أيضاً قول الحليّ من موشحٍ اقترح عليه وزنه الملك المؤيد، حيث اهتمّ الحليّ بالجناس كثيراً، ولعلّ هذا الاهتمام يعود إلى تمكّن الحليّ من شعره وقدرته على الموافقة بين الوزن مع ايراد اللفظ المناسب :

بروحي جَوذَرٌ في القَلْبِ كانِس   تَراهُ نافراً في زِيّ آنـــــس

وأحوَى أحــوَرِ   الأحداقِ ألَمــى

تَكادُ خُــدُودُهُ   بالوهَمِ تَدمَــى

كأنّ الحُســنَ   لمّا منه تَمّــا

وآثَــرَ أنّ ذاكَ   الرّوضَ يُحمَــى

غَدا للوَردُ في خَدّيهِ غـــارِس   وظَلّ له بسَيفِ اللّحظِ حــارِس (٦٨)

ويظهر الجناس هنا بين كانس، وأنس، وغارس، وحارس، وأحور وأحوى.

ومن الجناس قول ابن نباتة في مديح مؤيدي :

---

(٦٧) لصفيّ الحليّ : الديوان، ص.٢١٠.

(٦٨) المصدر السابق نفسه، ص٢١٥.

مَنْ مُعِيني على رشاً صِرْتُ من مَا ءِ دُمُوعي عليه مِثْلَ الرِّشَـــاءِ (٦٩)

وقوله يمدح الملك الأفضل :

مَسْلسَلُ الدَّمعِ أسيرُ الفُــؤادِ يَهيمُ بالتذكارِ في ألــــف وادِ (٧٠)

وقول الشهاب محمود في قصيدته التي مدح بها المؤيد :

مِيعادُ صَبْرِي وسَلْوِي المَعَــادُ فأرخْ امرءاً يُسليهِ طُول البُعادِ (٧١)

والجناس في الأبيات السابقة بين رشاً ورشاء، والفؤاد وألف واد، والمعاد والبعاد.

والأمثلة على الجناس كثيرة جداً في قصائد الشعراء الذين قصدوا المؤيد وابنه الأفضل، فقد كانت السمة الظاهرة عندهم في ذلك الوقت، استخدم الجناس كثيراً. ومن الجناس قول الشهاب محمود في قصيدة طويلة مدح فيها الملك المؤيد بمناسبة عودة المعرّة بعد نزعها منه عام ٧١٥هـ إلاّ أن طبيعة المؤيد في كتابه المختصر القائمة على الاختصار جعلته يثبت لنا من هذه القصيدة ثلاثة أبيات فقط، يقول الشهاب محمود:

بكَ تَزْهى مواكِبُ وأسِـــرَّه ولك الشمس والقواضب أسرَّه

وبأيامك التي هــــي روضٌ للأماني تجني ثمار المســـرَّه

بك كُلُّ الدنيا تَهْنى ويُضْحي قَدْرُها عالياً وكيف المَعَــــرَّه (٧٢)

وقد ساعد الجناس الإيقاع والموسيقى في هذا البيت وأفاد في إعطاء البيت المعنى المراد، حيث جانس الشاعر بين العروض والضرب في هذا البيت.

ومن الجناس أن ينهي الشاعر عدّة أبيات بكلمة واحدة، إلا أن المعنى يختلف، وهذا من ذكاء الشاعر وثروته اللغوية التي ساعدته في الإفادة من الجناس في إضفاء

(٦٩) ابن نباتة : الديوان، ص٤.

(٧٠) ابن نباتة: الديوان، ص١٣٧.

(٧١) الصفدي : أعيان العصر، ج١، ص١٦٤.

(٧٢) أبو الفداء: المختصر، ج٤، ص٧٩.

الرشاقة والعذوبة على قوافيه، ونجده عند الحليّ في أحد موشّحاته، يقول في مدح المؤيد:

ملِيكٌ هو اللّيثُ يحمي حِمـاهْ
إذا ما أتاه نزيلٌ حمـاهْ
سليلُ الملوك الكماةُ الحمـاهْ
ملوكٌ بهم ظلّ وادي حمـاهْ

يطول فخاراً على الأعزلِ ويسمو على النّسـر (٧٣)

ومن التفنّن في هذا اللون البديعي أن تكون القصيدة كلها تحتوي على الجناس بين آخر كلمة في العروض وآخر كلمة في الضرب، ولم يقف الأمر عند هذا الحدّ بل إن الجناس يأخذ بعداً لغوياً، فتكون الكلمة في الشطر الأول على وزن فاعل، والكلمة في الشرط الثاني على وزن فاعله، يقول الحليّ في الملك الأفضل :

لا زال سَعْدُك دائمـاً ونحور ضدّك داميـه
وعدُو مُلكِكَ هائمـاً وسَحابُ جُودِكَ هاميـه
وحَسودُ فَضْلِكَ سائماً وسعود جَدّك ساميـه (٧٤)

ويبقى الجناس على هذا النحو حتّى آخر القصيدة.

والجناس هو أكثر الأنواع البديعيّة استخداماً في شعر شعراء المؤيد الذين أكثروا منه، ونوّعوا فيه وتفنّنوا، بهدف الرقة والعذوبة حيناً، أو إظهار البراعة حيناً آخر، أو التصريع في قصائدهم. ويشبه هذا النوع من الجناس الذي يمكن أن نسميه الجناس المعكوس ما اتبعه ابن مقاتل في أحد أزجاله حيث ينهي كل بيت بشطر من الزجل يحتوي على كلمتين متجانستين معكوستين، وقد التزم بهذا حتى نهاية زجله(٧٥).

---

(٧٣) الحلي: الديوان، ص٢٣٥.
(٧٤) المصدر نفسه، ص٢٣٦.
(٧٥) ابن حجة : الخزانة، ج١، ص٩٤.

- **التورية** :

التورية كالجناس، فقد كانت مجالاً يظهر الشاعر من خلاله قدرته الشعرية على التلاعب بالألفاظ، ويعطي لشعره بعض الغموض والإبهام، بل إنْ استخدام الفنون البديعية كان علامة الإبداع في العصر المملوكي، ومثّل مذهب التورية «القاضي الفاضل»(٧٦)، وتبعه من الشعراء ابن نباتة الذي سار على منهج الفاضل حيث أكثر من التورية في شعره. ومن توريات ابن نباتة :

قامَ يَرنو بِمُقلَةٍ كَحـــــلاءِ　　　علّمَتْني الجنونَ بالســـوداءِ (٧٧)

والتورية هنا في كلمة السوداء، وهي سواد العين، وهذا المعنى الأول، والمعنى الثاني قصد به الشاعر «السوداء» وهي نوع من الصرع يسمى بالعاميّة «سويداء». ومن تورياته في ردّه على مكاتبة للملك المؤيد :

فَدَيْتُكَ من مَلك يُكاتِبُ عَبْـدَهُ　　　بأحْرُفِهِ اللأتي حَكَتْهَا الكَواكِبُ

مَلِكٌ رَقى وأنْحَلَني الأســـى　　　فها أنا عَبْدٌ رقيقٌ مُكَاتَـــبُ (٧٨)

والتورية في عجز البيت الثاني في كلمة «مُكَاتَب) فهي تعني اسم المفعول من الفعل كاتبَ، وتعني مصطلح المكاتبة وهي التي تتّم بين العبد وسيده ليصير العبد حُراً بالاتفاق على دفع مبلغ من المال (٧٩).

وقول الحليّ في تهنئة الأفضل عندما تولّى حكم حماة :

زَكّاكُمُ قُربانُ إيمانِكُـــــم　　　بهِ وزَكّى الغَيرَ إيمانُـــــهُ

مَنْ يكُ إسماعيلُ أصلاً لــــه　　　لا بَدعَ أن يُقبَلَ قَربانُـــهُ (٨٠)

---

(٧٦) ابن حجة : الخزانة، ج٢، ص٢٠٢ وما بعدها.
(٧٧) المصدر، ج٢، ص١٤٣.
(٧٨) المصدر نفسه، ج٢، ص١٤٣.
(٧٩) ابن حجة : خزانة الأدب، ج٢، ص١٤٣.
(٨٠) الحليّ : الديوان، ص٢٢٢.

والتورية في كلمة إسماعيل، فالمعنى القريب هو الملك المؤيد إسماعيل وما كان يقدّمه للملك الناصر علاقته به التي جعلت الناصر يقبل ابنه وريثاً له في حماة، والمعنى البعيد هو القربان الذي قدّمه سيدنا إبراهيم عليه السلام لفداء حياة سيدنا إسماعيل عليه السلام.

ويشير ابن حجة إلى ندرة ورود التورية عند الحليّ بقوله : «إنّ الشيخ صفيّ الدّين كان أجنبياً فيها -يعني التورية- ولهذا لم أنظمه في سلك الجماعة الذين مشوا في نظم التورية تحت العلم الفاضلي والعلم النباتي، وتعرّض إلى التورية في بعض المواضع، ولكن سبكها في غير قوالبها لأنّها لم تكن في طباعه» (٨١)، ومن توررياته:

أطعت داعي الهوى رغماً على العاصي لما نزلنا على ناعورة العاصي (٨٢)

حيث تحمل كلمة العاصي الأولى معنيين، الأول الشخص العاصي، والثاني اسم النهر.

ومن توريات ابن نباتة :

واحرباً من رشإٍ خـــاذلٍ ما لي على عِشْقَتِهِ نُصـرَهْ

مُهَفْهَفٌ تَعرِفُ من جَفْنِـه علامَةَ التأنيثِ بالكَسْـرَةْ (٨٣)

والتورية في الشطر الثاني من البيت، والمعنى القريب هو أن هذه الفتاة خجولة تغضّ بصرها عند رؤيته، والمعنى الآخر البعيد هو أن من علامات التأنيث خاصة جمع المؤنث السالم في حالتي الجر والنصب هي الكسرة.

ومن التوريات أيضاً قول علاء الدين غانم :

حماةُ في بَهْجَتِها جَنَّـــة وهي من الغَمِّ لنا جُنَّـــة

(٨١) ابن حجة : الخزانة، ج ٢، ص٢١١.

(٨٢) الحليّ : الديوان، ص٢٩٠.

(٨٣) ابن نباتة : الديوان، ص١٨٨.

ولا تيأسُنَّ من رحمةِ اللّـــــه　　　قد أبْصَرْتُمْ العاصيَ في الجَنّـةِ (٨٤)

والتورية أيضاً في الشطر الأخير من البيت الثاني، والمعنى القريب هو أن الشخص العاصي قد تشمله رحمة الله فيدخله الجنّة، والمعنى المقصود وهو الذي أراده الشاعر هو أن النهر العاصي موجود في حماة التي هي كالجنة.

- **الطباق** :

والطباق وسيلة لإظهار حسن الأشياء التي يظهر جمالها بوجود أضدادها، وهو في الشعر نوع من التنويع الموسيقي في كلام الشاعر، ودلالة لتغيّر الحال والتضاد،والطباق يكون في الأسماء أو الأفعال، ومن الطباق قول الحليّ في شكر المؤيد:

أسلاهُ عن أهْلِهِ صَنيعُكُـــــمُ　　　به وأنْساهُ ظِلُّكُم وطَنَـــــــهْ

يُعلِنُ بالمدْحِ والثَّنَاءِ وقـــــد　　　أشبَه في الودِّ سِرُّهُ عَلَنَـــــهْ (٨٥)

والطباق هنا بين كلمتي سرّ، وعلن. وقوله في أحد موشّحاته المدحيّة في الملك المؤيد:

أفَضْتَ عليَّ للنُّعْمَى مَلابِـــس　　　فصارَ لديَّ رَطْباً كلُّ يابِـــس

أأزعُمُ أنَّنـــي　　　بالمدْحِ جـــازِي

وهل تُجــزَى　　　الحقِيقَةُ بالمجَــازِ

ولكِنْ في ارتجالي وارتجـــــازِي

إذا قصّرتُ فاللّـــهُ المجــــازِي

فلو نَظَمتُ من مَدحي نفَائِـس　　　فإنّي من قَضاءِ الحقِّ آيِـــس (٨٦)

---

(٨٤) النابلسي، عبدالغني بن إسماعيل (ت ١١٤٣هـ): الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام، (مخطوط)، تقديم وإعداد: أحمد عبدالمجيد هريدي، الهيئة المصرية العامة، ١٩٨٦، ص٥٠. علي بن محمد بن سلمان بن حمائل القاضي علاء الدين بن غانم، كاتب وشاعر مشهور، ت٧٣٧هـ (أعيان العصر، ج٢، ص٢٤٠).

(٨٥) الحليّ : الديوان، ص٢١٢.

(٨٦) المصدر نفسه، ص٢١٧.

والطباق في الأبيات السابقة بين كلمة رطب، ويابس، وكلمة الحقيقة وكلمة المجاز.

وقوله في قصيدة أُخرى مدح بها الأفضل بن المؤيد :

ويا سيوفَ لحظٍ من أحبَبْتُـــــهُ جُهدَك عن سفكِ دمي لا تُغمـدي

ويا غوادي عبرتي تحَـــدَّري ويا بَوادي زفرتي تَصَعَّــــدِي (٨٧)

ومن الطباق قول ابن نباتة في مدح الأفضل أيضاً :

فلأهدينَّ فريدةً لمُمَــــدَّحٍ أضحى بنيل نداهُ شعري مُفْـردا

حَسْبُ ابن شادٍ أن يراني للثنا عبداً وحسبي أن أراهُ سَيِّـــدا (٨٨)

وقوله يمدحه أيضاً:

المَلِكُ العَابِدُ نام الــــوَرَى بِعَدْلِهِ وهو كَثِيرُ السُّهَـــادِ

ذو الجُودِ في عُسرٍ ويُسْرٍ ومَنْ مِثْلُ ذَوي التَّجريبِ في كُلِّ نـادِ (٨٩)

ونجد الطباق في أبيات الحليِّ السابقة في البيت الثاني بين كلمة غوادي وبوادي، وبين الفعلين تحدَّري وتصعَّدي، أما أبيات ابن نباتة، فالطباق فيها بين كلمة عبد وكلمة سيد، والفعل نام وكلمة السهاد، وكلمة عسر ويسر.

ومن الطباق أيضاً قول ابن نباتة في مدح المؤيد :

هذي الحمائم في مَنابرِ أيكِهَـــا تُملي الغِنَى والطَّلُ يكتُبُ في الوَرَقْ

والقُضُبُ تَخفِضُ للسَّلامِ رؤوسها والزَّهْرُ يَرْفَعُ زائريه على الحَدَقْ (٩٠)

حيث طابق الشاعر بين الفعلين تخفض، ويرفع، ومنه قوله في مقدّمة غزليّة لإحدى قصائده في الملك المؤيد :

تركِيَّةُ للقان يُنسب خَدُّهَـــا واصبوتي منه بأحمرَ قانِـــي

---

(٨٧) المصدر نفسه، ص٢٢٣.

(٨٨) ابن نباتة : الديوان، ص١٣٥.

(٨٩) المصدر نفسه، ص١٣٧.

(٩٠) المصدر نفسه، ص٣٢٧.

خَدٌّ يُريكَ تنعُّماً وتَلهُّبــــاً يا من رأى الجنّاتِ في النيــرانِ (٩١)

والطباق في البيت الأخير بين منعماً وتلهُّباً، والجنّات والنيران.

ومن الطباق، قول الشهاب محمود الحلبي :

وطابَقَ الشَّوْقُ لهبي فمـــا دَمْعِي فَظَلا بين خَافٍ وبـــادِ

وقوله :

من أُسْرَةٍ أعَلوا مَنارَ الهُـدى وذَلّلوا أعناقَ أهلِ العنـــادِ (٩٢)

والطباق هنا بين خافٍ وبادٍ، وأعلوا وذللوا. ومن الطباق قول المؤيد :

أحسِنْ به طِرْفاً أفوتُ به القضا إن رُمْتُه في مطلب أو مَهْـرَبِ

مثلَ الغزالة ما بَدتْ في مشرقٍ إلا بدت أنوارُها في المغـــرِبِ (٩٣)

وقد يكون البيت الواحد محتوياً على أكثر من مثال للطباق، مثاله قول الحليّ في الأفضل :

تلاقيه في الحَربِ صعبَ المـراسِ وفي السلمِ ذا الخلقُ الأسهـلِ (٩٤)

فالطباق بين حرب وسلم، صعب المراس وسهل الخلق.

- لغة الشعر :

وتتلخص لغة الشعر في السهولة أحياناً، والجزالة أحياناً أخرى، وتختلف لغة الشعر باختلاف الغرض الشعري، فالغزل تكون ألفاظه سهلة ورقيقة وعذبة، بينما يناسب شعر المدح أو الرثاء أو الفخر الألفاظ الجزلة القوية.

---

(٩١) ابن نباتة : الديوان، ص٤٨٣.

(٩٢) الصفدي: أعيان العصر، ج١، ص١٦٤. هكذا ورد البيت في المخطوط وأظن أن الكلمة هي (مدامعي).

(٩٣) المصدر نفسه، ج١، ص١٦٣.

(٩٤) الحلي: الديوان، ص٢٢٦.

ولغة الشعر في عهد المؤيد وابنه الأفضل، اختلفت باختلاف موضوعاتها، فكان هناك: الجزالة والرصانة، والسهولة والعذوبة، إلا أنّ الصورة العامّة هي السهولة وعدم التعقيد، وتوخّي اليسر والألفة في ألفاظ الشاعر، والإنسجام في التراكيب. وعلى الرغم من هذه السهولة في شعر العصر المملوكي، والتي كانت ناتجة عن صفة العصر بعامّة من حيث غلبة غير العرب على أمور الحياة وابتعاد العرب نتيجة اختلاطهم بغير العرب عن اللغة الفصيحة، وشيوع الكثير من الألفاظ غير العربية أيضاً، فكانت السهولة في لغة الشعر مجاراة لغير العرب، ليستطيعوا بهذا فهم ما يُقال من شعر ونثر. إلاّ أن التقليد للقدماء والذي انتشر في هذا العصر من أجل التعبير عن التمسّك بالتراث العربي، ساعد على المحافظة على فصاحة وجزالة لغة الشعر.

ولعلّ تقليد الحليّ وتسميطه لقصيدة ابن زيدون النونيّة جعله ينتقي ألفاظه لتناسب ألفاظ ابن زيدون، كما أنه استطاع أن يمزج الألفاظ لتؤدي معنىً جميلاً وتحقّق تركيباً سليماً، يقول الحليّ في الملك المؤيد :

كان الزّمانُ بلُقياكُم يُمنّيَنـــا وحادثُ الدّهْرِ بالتفريقِ يثْنينَـا

فعندما صَدَقتْ فيكُم أمانِينــا أضْحَى التّنائي بَديلاً من تَدانينَـا

ونابَ عن طيبِ لُقيانا تَجافينَـــا

خِلنا الزّمانَ بلُقياكُم يُسامِحُنـا لكي تُزانَ بذكراكم مدائِحُنـــا

فعِنْدَمَا سمَحَتْ فيكم قرائِحُنـا بنتم وبنّا فما ابتلّت جوانِحُنَـــا

شوقاً إليكمُ ولا جَفّتْ مآقِينَـــا (٩٥)

وقد استخدم الشاعر هنا الألفاظ الموحية بالقوة والجزالة مثل التنائي، القرائح، البين، والمآقي، كما أنه استطاع أن يعبّر عن حزنه باستخدامه للتسلسل المنطقي للأحداث، فهناك النعيم والهناء بعد العناء والعذاب، وبعد أن يستقر الحال بالشاعر يضن الزمان عليه بوفاة الملك المؤيد فيتزعزع هذا الهدوء مما يجلعه دائم البكاء.

ومن الألفاظ الجزلة أيضاً قول الحليّ في مدح المؤيد :

(٩٥) الحلي: الديوان، ص٣٥٩.

ولو أتى الأصمَعِيُّ يُنشِـــدُهُ   شعراً لأصبَحَ من خوفٍ به لَحِنَـهْ

ولو رَعَى الكَنَّ عبارَتَـــــهُ   أزالَ من سِحْرِ لفظِهِ لكنَـــــهْ (٩٦)

فقد استخدم الشاعر المعنى المعجمي لكلمة لحن، ولَكَنْ، والتي أعطت المعنى الدقيق لما يريده ويدلّل عليه من فصاحة وبلاغة المؤيد، فاللحن واللكنه في الكلام هي عكس الفصاحة والبلاغة.

ومن ألفاظه الجزلة القوية التي عبّر فيها عن جوانب شخصية الملك الأفضل، يقول الحليّ :

ويَغْتَنِي بالمُلْدِ من سُمُرِ القَنَـا   عَنْ كُلِّ مَجْدولِ القوامِ أمْلَـــدِ

خَلائِقٌ تُعدي النَّسِيمَ رِقَـــةً   وسَطوَةٌ تُذيبُ قَلْبَ الجَلْمَــــدِ

وبأسُ مَلكٍ مَجْدُهُ من عامِـــرٍ   وفيضُ جودِ كَفِّهِ من أجْـــوَدِ (٩٧)

وتتكرر هذه الجزالة والقوة في شعر الحليّ في قصائده المديحية والرثائية، فمن قصيدته التي رثى فيها الملك الأفضل يقول :

يَسْخُو وصَوبُ المُزنِ يَحْبِسُ قَطْرَهُ   عَنَّا ويَعْدِلُ والزَّمانُ يَجُـورُ

فإذا سَخَا ذَلَّ النُّضارُ بِكَفِّـــهِ   كَرَماً وعَزَّله الغَداةَ نَظيـــرُ

يروي حَديثَ الجُودِ عنهُ مُعنْعَنـاً   فَحَديثُهُ بَينَ الوَرَى مأثُــورُ

من مَعْشَرٍ ما شَكَّ طَالِبُ جُودِهِمْ   أنّ الثَّنَاءَ عليهِمُ مَحْصُــورُ

قومٌ إذا صَمَتَ الرّواةُ لِفَضْلِهِــم   أثْنَى عليهم مِنْبَرٌ وسَرِيــرُ (٩٨)

فلو لم تكن هذه الأبيات للحليّ لقلنا إنّها لشاعرٍ عربي قديم لما فيها من القوة التي تجعلها بعيدة عن بساطة وسهولة التعبير في العصر المملوكي، فالطباق في البيت الأول، والصورة الفنية في الشطر الثاني من البيت الأخير (أثنى عليهم منبرٌ وسرير) وما تشمله هاتان الكلمتان من معان تفيد العلم والكرم والرفعة والصورة

(٩٦) الصفيّ الحليّ: الديوان، ص٢١٢.

(٩٧) المصدر نفسه، ص٢٢٤.

(٩٨) المصدر نفسه، ص٢٨١.

التقليدية للسخاء، كل هذه تجعلنا نقول إنّ هذه الأبيات دلّت على المعنى الذي أراده الشاعر.

وفي قول ابن نباتة، نلحظ التوافق بين المعنى واختيار اللفظ المناسب له وقدرة الشاعر في بيتين من الشعر أن يُجمل أهم ما تميّز به المؤيد :

له بدائع لفظ صاحبت كرمـــاً   كأنّهُنّ نجومٌ ذاتُ أنـــــواءِ

وأنملٌ في الوغى والسلم كاتبةٌ   إما بأسمرَ نضوٍ أو بِسَمْــراءِ (٩٩)

ومثلما وجدنا الجزالة، نجد السهولة في شعر الغزل والتهنئة وفي بعض قصائد المدح، ومن ذلك قول الحليّ في أحد موشّحاته المدحيّة في الملك المؤيد :

عمادُ الدِّينِ مُغني كُلُّ بائِـــسٍ   ومن تَغدُو الأسودُ له فَرائِـــس

أيا مِلِكاً حماني   مِنْ زمانِـــــي

وأعطاني أمانـــي   والأمانـــــي

خَفَضْتَ برفـــع   شاني كُلُّ شانـــي

وشَيَّدتَ المعَالِـــي والمَعَانِـــي (٩٩)

فالكلمات كما نرى سهلة، واضحة، بعيدة عن التعقيد، ومعانيها واضحة مفهومة ونستطيع أن نكتبها نثراً لتعطي المعنى المراد منها فلا نجد فرقاً بينها نثراً وشعراً.

ومن ذلك قوله في مقدّمة غزليّة لقصيدة مدح بها الأفضل :

عانَدَهُ في الحُبِّ أعوانُـــــهُ   وخانَهُ في الرَّدِّ إخوانُــــــهُ

مُتَيَّمٌ ليسَ لَهُ ناصِـــــرٌ   أوّلُ من عاداهُ سُلوانُـــــهُ (١٠٠)

والألفاظ هنا سهلة، ذات جرس موسيقي مناسب للغزل، وقد اختار الشاعر البحر السريع، حيثُ ساعد في خفّة الكلمات وسلاستها، وهذا ليس عجزاً من الشاعر، وإنّما هو مجاراة لواقع الحياة الاجتماعيّة وما تقتضي من سهولة ويسر.

(٩٩) ابن نباتة : الديوان، ص٦.

(٩٩) الحليّ: الديوان، ص٢١٦.

(١٠٠) المصدر نفسه، ص٢٢٠.

وقد يكون توخّي السهولة أحياناً على حساب المعنى، فيتّجه الشاعر إلى الإهتمام باللفظ ومن البديع، مما يجعل الكلام مبتذلاً، ومن ذلك قول الحليّ في تهنئة الأفضل بعيد الأضحى عام ٧٤٠هـ:

زَمَانُ الرّبيــــع   شَبابُ الزَّمَـــانِ
وحُسنُ الوُجُـودِ   وجُودُ الحِسَـــانِ

وأمنُ البَليـــغِ   بلوغُ الأمانِـــي (١٠١)

ونجد السهولة والخفّة أيضاً في شعر ابن نباتة، ومن ذلك مقدّمة قصيدة مدحيّة في الملك المؤيد:

هُنَّ الوجوهُ الناضِـــره   عيني إليها ناظِـــرَه
آهاً لها عيناً علـــى   تلكَ الأزاهرِ ماطِـــرَه

رقبَ الوُشاةُ جُفُونَهَـــا   فإذا هُم بالسَّاهِـــرَه (١٠٢)

حيث الكلمات السهولة والوزن الخفيف من مجزوء الكامل، والمعاني الواضحة القريبة من الفهم أيضاً. ونجدها أيضاً في قصيدة أخرى لابن نباتة اقترح عليه المؤيد فيها معارضة قصيدة لأسعد بن مماتي:

أفدِي قَمَرْ عَقْلِي قَمَـــرْ   ثُمَّ غَدَرْ لمَّا قَـــدَرْ
فلا وَزَرْ ولا مَفَـــرّ   يا مَنْ شَهَرَ سَيْفَ الحَـوَرْ

على البَشَرْ فَما فَتَــرْ   حَتَّى استَعَرْ وهَج الفكــرْ (١٠٣)

فنحن لا نجد صعوبة في لفظ الكلمات، ولا في معانيها، ويزيدها سهولة أنّها من مجزوء الرجز وهو من البحور التي تغنى كلماتها بسهولة ويسر.

---

(١٠١) الصفيّ الحليّ: الديوان، ص٢٣٤.

(١٠٢) ابن نباتة: الديوان، ص١٨٦. وفي هذا إشارة إلى قوله تعالى: «وجوهٌ يومئذٍ ناضرة، إلى ربها ناظرة»، سورة القيامة، آية ٢٢، ٢٣.

(١٠٣) المصدر نفسه، ص١٩٣؛ وأسعد بن مماتي: وزير وأديب، كان ناظر الدواوين بمصر، وتوفي بحلب، من كتبه قوانين الدواوين، وديوان شعر، ولد ٥٤٤هـ ت٦٠٦، (الأعلام): الزركلي، ج١، ص٣٠٢.

ونجد التكرار كثيراً في شعر شعراء الملك المؤيد وابنه الأفضل، خاصّة وأن أكثر هذا الشعر رسمي يتلخّص في المدح أو الرثاء أو التهنئة أو الوصف، والتكرار في المعاني أحياناً، وأحياناً أخرى في الألفاظ حتى أنّ بعض القصائد لا يفرّقها عن غيرها سوى الإسم أو الشاعر، فالممدوح كريم، وعالم، وهذا متكرر في قصائد المدح والرثاء والمحبوبة غزال جميل كالغصن في التثني، ومن التكرار اللفظي قول الصفيّ الحليّ في مدح الأفضل :

أروَعُ محسودُ العَلاءِ أمجَـــدُ　　　من نَسْلِ مَحسودِ العلاءِ أمجَـدِ (١٠٤)

المؤمنُ الموَحِّدُ ابنِ المؤمنِ المــ　　　ـموَحِّدِ ابنِ المؤمنِ الموَحِّـــدِ

السيّدُ ابنُ السيّدِ ابنِ السيّـدِ　　　ابنِ السيّدِ ابنِ السيّدِ ابنِ السيّدِ (١٠٥)

والتكرار هنا لا يُخلّ بالمعنى لأنّ لكل كلمة مدلولها الخاص، فالمؤمن الأول هو الأفضل، والمؤمن الثاني الملك المؤيد، وكذلك الأمر في البيت الثاني.

ومن التكرار، قول الحليّ يرثي الملك الأفضل :

ما للجبالِ الرّاسياتِ تَسـيرُ　　　أفآن بَعثٌ للوَرَى ونُشـــورُ

أم زالَتِ الدّنيا فيَذبُلَ يَذبُـلُ　　　منها ويَدعي بالثّبورِ ثَبِيـــرُ

أم أخبِرَتْ أنّ ابنَ أيوبٍ قضى　　　فتكادُ من حُزنٍ عليه تَمـــورُ (١٠٦)

وغاية التكرار هنا ليعبّر الشاعر عن أثر الخبر بوفاة الملك الأفضل بن المؤيد، ومن القصيدة نفسها يقول :

أين الّذي كَسَبَ الثّناءَ بسَعْيِهِ　　　لتجارَةٍ في المَجْدِ لَيسَ تَبـورُ

أين الذي ساسَ البلادَ بخاطرٍ　　　كالبَحرِ ليس لصَفوهِ تَكديـرُ

---

(١٠٤) الحليّ : الديوان، ص٢٢٤.

(١٠٥) المصدر نفسه، ص٢٢٢.

(١٠٦) المصدر نفسه، ص٣٨٠.

أينَ الّذي عَمَّ الأنامَ بأنعُمٍ   يُطوَى الزّمانُ وذِكرُها مَنْشورُ (١٠٧)

وقد ورد التكرار عند ابن نباتة في إحدى قصائده في الملك المؤيد، وذلك عند وصفه شكل هلال العيد في يد المؤيد، حيث ردّد الحرف (أو) في أول البيت عشر مرات(١٠٨)، وفي قصيدة أخرى في رثاء المؤيد كرّر الشاعر لفظة (ما للندى) عدّة مرّات، وأداة التمنّي (ليت) ثلاث مرات، و (أعزز علي) ثلاث مرات، و (هلاّ) مرتين، وأداة التحسّر (لهفي) ست مرات، و (كان) ثلاث مرات، و (مَنْ) ثلاث مرات (١٠٩)

وقد يختلط بلغة القصيدة الفصيحة بعض الألفاظ والقوالب العاميّة أو الأعجميّة والتي انتشرت كثيراً في هذا العصر.

ومن المفاهيم العاميّة التي استخدمها الشعراء قول ابن نباتة :

قَامَتْ قِيامَةُ قلبي في هواكَ فإنْ   أسكُتْ فقد شَهِدَتْ بالسُّقْمِ أعضائي (١١٠)

فقوله قامت قيامة قلبي هو مصطلح يستخدمه العامة كثيراً في كلامهم وأورده ابن نباتة هنا في هذا البيت.

والغالب في خرجات الموشّحات أن تكون عاميّة إلاّ أن الملاحظة الجديرة بالاهتمام أن خرجات الموشّحات التي جاءت في أغلبها على لسان الحلي وابن نباتة في عهد المؤيد لم يختمها الشعراء بخرجات عاميّة، بل هي فصيحة بعيدة عن العامية، مثل قول الحليّ في آخر قفل من موشّحٍ مدحي في المؤيد :

عبدٌ على فرط حُبّكم جُبِلا   عليكم إن قام أو رحلا (١١١)

وقوله في خرجة أخرى :

(١٠٧) الحليّ : الديوان، ص٣٨١

(١٠٨) ابن نباتة : الديوان، ص١٨٦.

(١٠٩) المصدر نفسه، ص٥٧١.

(١١٠) المصدر نفسه، ص٥.

(١١١) الحليّ : الديوان، ص٢١٤.

فلو نظّمتُ من مدحي نفائـــس فإني من قضاءِ الحقِّ آئـــس (١١٢)

وقول ابنة صاحب حماة ويرجّح صاحب شفاء القلوب أنها من بنات المؤيد :

ويقصر نَهرُ دمعـــي وهي سائِـــلْ
بنثرِ اللفظِ .. من ثغرِ نظيمِ مُنضَّـــدْ
عقائقه على الدُرِ اليتيـــم تبــدّدْ (١١٣)

أمّا الخرجة في الموشّح الذي عارض فيه المؤيد موشّح ابن زيدون فإنها عامية، يقول فيها:

مضى رسولي إلى معذِّبَتِـــي وعادَ في بهجةٍ مُجـــدَّده
وقال: قالت: تعال في عَجِـــلِ لمنزلي قبل أن يجي رَجُلـــي
واصعد وجُزْ من طاقاتـــي ولا تَخَف من جاراتـــي (١١٤)

كما أن الأزجال أيضاً كانت قائمة على العاميّة كذلك، والتي كان إمامها في حماة علي ابن مقاتل الحموي.

ومن العاميّة أيضاً قول ابن نباتة :

طُولُ النّهارِ لِبابِ ذا مِنْ بَابِ ذا أسعَى لَعَمرِ أبيكَ سَعْيَ ظلالِ (١١٥)

وقد ترد بعض الكلمات الأعجمية أحياناً في أبيات الشعراء، ومنها قول ابن نباتة:

يا لها دَمعَةٌ على الخَدِّ حَمـــرا ءُ بدت من سوداءَ في صفـراء
فكأنّي حَمَلتُ (رَنْك) بن أيـــو بَ على وَجْنَتِي لِفَـــرطِ ولاءِ (١١٦)

وكلمة (رنك) هنا أعجميّة وهي العلامة العسكريّة التي كان يضعها الأيوبيون على

(١١٢) العليّ : الديوان، ص٢١٧.
(١١٣) الحنبلي: شفاء القلوب، ص٤٦٧.
(١١٤) الصفدي: أعيان العصر، ج١، ص١٦٣.
(١١٥) ابن نباتة: الديوان، ص٤٠٠.
(١١٦) المصدر نفسه، ص٤.

رؤوسهم.

ونجد في اللغة أيضاً صرف ما لا ينصرف للضرورة الشعرية، وتسهيل المهموز أيضاً، وذلك كله من أجل إقامة الوزن في الأبيات، ويقابل التسهيل والحذف في لغة الشعر اشباع بعض الحركات فتظهر حرفاً كاملاً ومثاله أزجال ابن مقاتل الحموي، التي كان يشبع فيها الكلمات.

- **القافية والأوزان الشعريّة** :

القافية والوزن في الشعر كل واحد لا يفترقان، وذلك لأنّ القافية تعطي مجالاً للشعر، وتساعد في توالي الإيقاع، والوزن هو الأساس في الشعر الذي بدونه يصبح نثراً حتى وإن كان وزنه قائماً على تفعيلة واحدة كما في الشعر الحر. ومن هنا فإن الشواهد الشعرية التي بين أيدينا كانت فيها القافية المقيّدة والمطلقة، والمصرعة، والمكررة، ويظهر لدينا التزام بالقافية في أغلب الشعر الذي بين أيدينا، ونجد تنوعاً في الوزن والقافية من خلال بعض الأوزان المستحدثة، أو الأزجال، والموشّحات، والمسمّطات، والدوبيت.

وقد اهتمّ شعراء المؤيد وابنه الأفضل بالقافية والوزن الشعري حيث نظموا قصائدهم الفصيحة على البحور الشعرية المعروفة، وكانت القوافي التي استعملها الشعراء قريبة للطبع، وغير معقّدة ولا تكثر فيها الضرورات الشعريّة، ومن القوافي السهلة الميسّرة قول الحليّ :

سِوَى حُسنِ وجهِكَ لم يحلُ لـي   وغيرُكَ في القَلبِ لم يَحلُـــلِ
فكيفَ سَلْوي ولي طِينَـــــةٌ   على غيرِ حُبِّكَ لَمْ تُجبَـــــلِ
أتَزْعَمُ أنّي أُطيعُ الوُشَـــــاةِ   وأُصغِي إلى عَذَلِ العُــــذَّلِ (١١٧)

فحرف اللام في آخر القصيدة المتحرك جعل الأبيات ذات جرس موسيقي، وحركته بالكسر أكسبته جمالاً وأبعدت الشاعر عن التسكين غير المحبّب في القوافي، وكما نجد القافية المطلقة نجد القافية المقيّدة المسكّنة عند ابن نباتة:

(١١٧) الحليّ: الديوان، ص٢٢٦.

نَفسٌ عن المُحِبِّ ما جَادَتْ ولا غفلَتْ ... بأيِّ ذَنْبٍ وقَاكَ اللّه قد قُتِلَـتْ
وعينُ صبٍ إلى مرآكَ قد لَمَحَتْ ... كفى من الدَّمْعِ والتَّسهيدِ ما حَمَلَتْ

دَعْهَا ومَدْمعِهَا الجاري فقد لَقِيَتْ ... ما قدَّمَتْ من أذى قلبي وما عَمِلَتْ (١١٨)

وقد أفاد الشعراء من الفنون البديعيّة في استعمال القوافي، خاصة الجناس، فقد ينتهي كل بيت بعبارةٍ واحدةٍ مثل قول الحليّ في رسالة بعث بها للملك المؤيد:

يا سَادَةً حُمِّلْتُ من بَعدِهِـــم ... أكثرَ من عَهدِي ومن طَوقِـــي

أصبَحتُ كالوَرقاءِ في مَدحِكُم ... لَمَّا غَدا إنعامكمُ طوقِـــــي (١١٩)

حيث انتهى البيت الأول بكلمة (طوقي)، وكذلك البيت الثاني مما سهَّل على الشاعر قافيته. ومنها أيضاً أن يبدأ البيت وأن ينتهي بكلمة واحدة، كقول الحليّ وهو ما يُسمى بردّ الإعجاز على الصدور :

زَمَانُ الرَّبيــــعِ ... شَبَابُ الزَّمَـــانِ
وحُسْنُ الوُجُـــودِ ... وُجُودُ الحِسَـــانِ

وأمْنُ البَلِيــــغِ ... بُلوُغُ الأمَانِـــي (١٢٠)

ويشبه هذا ما يسمّى بالتصريع وهو اتفاق آخر كلمة في الشطر الأول في وزنها مع آخر كلمة في الشطر الثاني في الوزن، ومثال ذلك قول الحليّ في رماية البندق في حماة عام ٧٤٠هـ، وهذه الظاهرة تكاد تكون أكثر الأمور بروزاً فيما يتعلق بالقافية:

قم بي فقد ساعَدَنَا صَرْفُ القَدَرْ ... وجاءَ طِيبُ عَيْشِنا على قَـــدَرْ
فَكَمْ علا قَدْرُ امرىءٍ وما قَـــدَرْ ... فارضَع بنا دَرَّ الهَنا إن تَلْقَ دَرّ

فالشَّهمُ مَنْ حَازَ السـرورَ إن قَـــدَرْ (١٢١)

ولا يخفى أثر كلمة (قدر) في جمال القافية وموسيقيتها.

---

(١١٨) ابن نباتة: الديوان، ص٣٧٥.
(١١٩) الحليّ : الديوان، ص٣١٦.
(١٢٠) المصدر نفسه، ص٣٣٤.
(١٢١) المصدر نفسه، ص٢٢٨.

وأورد الشعراء أيضاً في قوافيهم ما عرف بلزوم ما لا يلزم، ومن القصائد التي التزموا بها في هذا الموشّح لزوم ما لا يلزم في الاقفال فيما بينها، والأبيات فيما بينها، ومن هذا الموشّح :

لأنّ الغيث يُسالُ وهو حابس — وليس يجود إلاّ وهو عابس
جعلت البيض — دامية المآقي
وسُمر الخطّ ترقى — في التراقي
مساعٍ للعُلى — أضحت مراقي
وتلك الصالحاتُ — هي البواقي (١٢٢)

ونرى اتفاق آخر كلمة في كل بيت من الأبيات السابقة في مقطع (قي) وهذا هو لزوم ما لا يلزم، حيث جعل الحليّ حرف القاف قبل الياء في الأبيات السابقة جميعها، وهذا نوع من إظهار البراعة والقدرة الشعرية، خاصّة وأنه نظمه بطلب من المؤيد الذي أراد أن يكشف هذه المقدرة عنده. ومن ذلك قصيدة ابن نباتة في تهنئة الأفضل بمولود جديد، يقول :

هنيئاً لبيت الفضل أنّ عمادَه — مقيمٌ وأنّ المُلْكَ باقٍ عميدُه
وأن وليد الأفضل الملك قد محا — عن الناس حُزناً لا ينادي وليدُه (١٢٣)

وقد يخرج الشاعر أحياناً عن القافية الموحّدة ليظهر مقدرته الشعريّة على تغيير قافية قصيدته، ومثال ذلك ما ورد في أرجوزة ابن نباتة التي سمّاها «مصائد الشوارد» ووصف فيها الصيد في حماة، ومنها :

أثْنَى شذَا الرّوضِ على فَضْلِ السُّحُبِ — واشتَمَلَتْ بالوشْيِ أردافُ الكُثُبِ
ما بينَ نورٍ مُسفرِ اللّثـامِ — وزَهْرٍ يَضْحَكُ في الأكْمَامِ
إن كانت الأرضُ لها ذَخَائـرُ — فهي لَعَمْري هذهِ الأزاهِـرُ

(١٢٢) الحليّ : الديوان، ص٢١٧.
(١٢٣) ابن نباتة: الديوان، ص١٣٨.

قد بَسطتْها الأرضُ الغَمَائِـــمِ   بَسْطَ الدنانيرِ على الدراهِـــمِ (١٢٤)

فنجد أن كلمة القافية في كل بيت اختلفت في بيتها الأخير، فجاءت كل كلمة على قافية تختلف عن الأخرى.

وقد كانت الموشّحات والمسمّطات والدوبيت مجالاً واسعاً للتنوّع في القافية وقياساً للشعر التقليدي الذي قاله شعراء المؤيد، كابن نباتة، والحليّ، والمؤيد نفسه وغيرهم، فإنّ هذه الأنواع كانت من أجل إبراز القدرة الشعرية التي أشرنا إليها سابقاً اتفاقاً مع روح العصر التي تجعل من الأدباء والشعراء يقولون ويكتبون في كل شيءٍ ليمكنهم ذلك من مواكبة هذه الروح الطامحة للتنوّع وإن كان هذا على حساب المعنى والجودة.

والموشّحات في حماة، كثرت بسبب ولع المؤيد نفسه بهذا الفن الشعري والذي قاله فيه موشحاً عارض فيه ابن زيدون، وقد أراد لهذا الفن الشعري أن يكون على ألسنة شعرائه، فكان هذا في عدّة موشّحات، كما أن الزجل انتشر على يد الزجّال الحموي ابن مقاتل الذي تشير المصادر إلى أنّه صاحب ديوان زجل من جزئين.

وقد اشترك مع هذه الألوان الشعرية شعر الطرد الذي شهد تنوّعاً كبيراً في قوافيه، ويكفينا من ذلك الارجوزة السابقة لابن نباتة والتي بلغ عدد أبياتها (١٧٠) بيتاً من الشعر شملت كل الحروف الهجائية، وقد أتاح طول هذه الارجوزة للشاعر أن يبدع في تنوّع قوافيه، ومنها زيادة على ما سبق :

سرنا على اسم الله والمناجِـــحْ   نعوم في الأقطار بالسوابِـــحْ

خيلٌ تحاذي الصَّيد حيث مــا لا   كأنّها أضحَت له ظِـــــــلالا

تسعى لها قوائم لا تُتبَـــــعُ   وكيف لا وهي الرياح الأربـــعُ (١٢٥)

وقصيدة أخرى للحليّ في الطرد أيضاً ماثلت سابقتها في تنوّع القافية، يقول :

وانظر إلى الأطيار في مطارهـا   واعتبر الجَفْة باعتبارهـــــا

(١٢٤) ابن نباتة: الديوان، ص٥٨٥.

(١٢٥) المصدر نفسه، ص٥٨٨.

إذ لا تطير مع سوى أنظارهـــا فلا تضعْ نفسك عن مِقدارِهـــا

مع غيرِ ذي الجنس وكن على حـــذَرْ

أو مِلْ إلى العمُقِ بعزمٍ ثاقـــبِ فإنّها من أحسَنِ الناقـــبِ

فاعجب لما فيه من الغرائـــب من المراعي وجليلٍ واجـــبِ

أصنافهُ معدودةٌ لا تُحتضَـــرْ (١٢٦)

ومن موشّح لابن نباتة في مدح المؤيد أيضاً ، قوله :

إليَّ بكأسك الأشهى إليّـــا ولا تبخل بعسجدها عليّـــا

معتقةٌ تدارُ على الندامـــا

كأنَّ على ترائبها نظامـــا

من الرّاح التي محت الظلامـــا (١٢٧)

وكما تنوّعت القافية تنوّع الوزن، حيث تراوحت الأوزان بين البحور القوية كالكامل، والطويل، والرمل، والخفيفة كالهزج، والرجز وخاصة الشعر الخاص بالموشّحات وشعر الغزل.

ونجد قصيدة الحليّ التي نظمها بناءً على طلب المؤيد منه الذي اختار له بحر المنسرح الذي يُعدّ من البحور النادرة الاستعمال ليقول فيه فأجابه إلى ذلك. ولا بدّ من الإشارة إلى أن أغلب قصائد وموشّحات الحليّ قد قالها بطلب من المؤيد الذي يتخيّر له الوزن والقافية، وهذا يؤكد لنا قدرة المؤيد الشعرية ومعرفته الجيدة له بل أن يختار الصعب والنادر للقول فيه، ومن المنسرح يقول الحليّ :

طال على الصّب عُمرُ جَفْوَتكُـــمْ بكُلِّ يومٍ من الفراقِ سَنَـــهْ

صَبٌّ أجابَ الغرامَ، حين دعـــا طوعاً، وألقى إلى الهوى رَسَنَهْ (١٢٨)

ومنه قول المؤيد نفسه :

كم من دمٍ حلّتْ وما نَدِمَـــتْ تفعلُ ما تشتهي فلا عُدِمَـــتْ

---

(١٢٦) الحليّ : الديوان، ص٢٣.

(١٢٧) ابن نباتة: الديوان، ص٥٩٤.

(١٢٨) الحليّ : الديوان، ص٢١١.

لو أمكن الشمسَ عند رؤيتهـا   لثمُ مواطي أقدامها لثمـــتْ (١٢٩)

ومن الرجز قول ابن نباتة في مصائد الشوارد :

يا لك من صَيْدٍ مُقِرُّ العيـــنِ   يُرضي الصحابَ وهو ذو وجهينِ

صَيدَ الملوك الصَّيد بالكواسـر   والخيلِ في وجهِ الصباح السافرِ (١٣٠)

ومن الوافر قول المؤيد :

سرى مسرى الصَّبا فعجبتُ منــه   من الهجرانِ كيف صبا إليّـــا

وكيف ألمّ بي من غير وعـــــدٍ   وفارقني ولم يعطف عليّـــا (١٣١)

وقد نظم ابن نباتة أيضاً أحد موشّحاته على البحر الوافر، وقد جاء هذا الموشّح رقيقاً عذباً ساهم الجناس في خفّة كلماته، يقول في المؤيد :

فيا لندى طوى الأقطار طيّـــا   وأنشَرَ حاتماً عندي وطيّـــا

حلفتُ ببشرِك الوضّاح حقـــا

لقد فُقْتَ الأنامَ عُـــــــــلاً (١٣٢)

وقد كان للموشّحات والمسمطات، والدوبيت دورها في إضفاء الحيوية على الوزن، خاصّة وأن بعض الموشّحات لم تلتزم بالبحور الشعريّة. ويتمثّل الخروج على الأوزان في الأزجال التي لم يكن لها وزن تستقر عليها بل هي مجموعة من التفعيلات قد تختلف من بيت إلى آخر، ومثاله قول ابن مقاتل في تعريضه بزجالي دمشق، حيث كانت بينهم وبين زجّالي حماة منافسة كبيرة(١٣٣).

كما اقترح المؤيد على الحليّ وزن موشح آخر وهو من الوافر :

غَدَا للوَردِ في خدّيْهِ غـــارِس   وظَلّ لهُ بسَيْفِ اللّحْظِ حَـارِسِ

---

(١٢٩) الصفدي : أعيان العصر، ج١، ص١٦٣.

(١٣٠) ابن نباتة : الديوان، ص٥٨٨.

(١٣١) الصفدي : أعيان العصر، ج١، ص١٦٣.

(١٣٢) ابن نباتة : الديوان، ص٥٩٤.

(١٣٣) ابن حجة : خزانة الأدب، ج١، ص٣١٥.

جَلا في كَفّـــــه كأسَ الحُمَيّـــــا

فَقَابَلَ نُورُهـــــا بَدَدَ المُحَيّـــــا

وطافَ بكأسِـــــه فينا وحَيّـــــا

فَغَادَر مَيِّـــــتَ العُشّاقِ حَيّـــــا (١٣٤)

ونرى في بعض القصائد وخاصة الغزليّة والخمرية النغمة الغنائية، فهي تسير على نغمات متوالية تجعلها قابلة للغناء خاصة وأن الغناء كان يعتمد على الأوزان السهلة الميسّرة، ومنه قول ابن نباتة، وهو من مجزوء الكامل :

هُنَّ الوجوهُ الناضِـــــره عيني إليها ناظـــــرَه

أهاً لها عيناً علـــــى تلكَ الأزاهرِ ماطِـــــرَه

رقبَ الوُشاةُ جُفُونَهَـــــا فإذا هُم بالسّاهِـــــرَه (١٣٥)

ومن مجزوء الرمل قوله :

لا وخمرٍ بابليـــــة في ثنايا لؤلؤيـــــة

لا رقى سفح دموعـــــي في هوى تلك الثنيـــــة (١٤٠)

ونجد الترصيع أيضاً الذي كان له دوره في إغناء الموسيقى الداخليّة وتحقيق الإيقاع، ومنه قول الحليّ :

من آلِ أيّوبِ الّذينَ أصبَحـــوا كواكِباً بها الأنَامُ تَهْتَـــدِي

مُهَذّبٍ مُحَبّبٍ مُجَـــرّبٍ للمُجتَني والمُجْتَلي والمُجتَـدِي

فَقَولُهُ، وطَوْلُهُ، وحَوْلُـــهُ للمُعتَني، والمعتفي، والمُعتَـدي (١٣٧)

---

(١٣٤) الحليّ : الديوان، ص٣١٥.

(١٣٥) ابن نباتة : الديوان، ص١٨٧.

(١٤٠) المصدر نفسه، ص٥٦١.

(١٣٧) الحلي : الديوان، ص٢٢٤.

الفصل الثالث

النثر في عهد المؤيد وابنه الأفضل

- دراسة موضوعية -

أ- الرسائل الديوانية

ب- الرسائل الأدبيـــة

ج- الرسائل الإخوانيــة

د. النثر التأليفـــــي

الفصل الثالث

النثر في عهد المؤيد وابنه الأفضل من ٧١٠ - ٧٤٢هـ

- دراسة موضوعية -

اهتمّ ملوك حماة بالنثر، مثل اهتمامهم بالشعر، وكان لهم فيه مؤلفات عدّة منها: مضمار الحقائق وسر الخلائق للملك المنصور محمد، ومؤلفات الملك المؤيد شاهد على ذلك، فقد كتب في الجغرافية تقويم البلدان، وفي التاريخ، المختصر في أخبار البشر، وكتب الكنّاش في عدّة علوم، ونوادر العلوم وغيرها(١)، هذا زيادة على العدد الكبير من الكتب التي كان يمتلكها والتي قام بتوزيعها على أصدقائه قبل وفاته، كما أنّ حماة زخرت بعددٍ من خزائن الكتب مثل، مكتبة البارزي قاضي حماة، وخزانة الكتب بجامع المؤيد، التي احتوت على ما يقارب «سبعة آلاف كتاب»(٢).

وقد شجّع الملك المؤيد على الكتابة النثرية، كما شجّع قول الشعر من قبل، حتّى مؤلفات ابن نباتة النثرية تكاد تكون كلها بطلب من الملك المؤيد، ومن هذه المؤلفات التي كتبها للمؤيد: الفاضل من إنشاء الفاضل، وشعائر البيت التقوي، ورسالة السيف والقلم، ومطلع الفوائد ومجمع الفرائد وغيرها.

وقد ضمّت حماة في عهد المؤيد وابنه، عدداً من العلماء منهم قاضي حماة، هبة الله البارزي الذي اشتهر عنه اهتمامه بالكتب كثيراً وحرصه عليها حتى أنه «كان عنده من كل مؤلف نسختان وثلاثة، وكان إذا سمع بتصنيف لأحد من أهل عصره أعدّ المال اللازم لاستنساخ ذلك الكتاب. وله عددٌ كبيرٌ من الكتب التي كتبها أثناء وجوده في حماة، ومنها: بديع القرآن، وشرح الشاطبية، والشِّرعة في السبعة، والناسخ والمنسوخ، وشرح الحاوي، وكتاب في العروض وغير ذلك من مؤلفاته الكثيرة»(٣).

ويوسف بن محمد بن حمّاد الحموي الذي كانت له معرفة جيدة بالفقه والنحو، وبدر

(١) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٩، ص١٧٤.

(٢) إحسان العظم: (مقال:حماة في عصر أبي الفداء)، مهرجان أبي الفداء، ص١٨٢.

(٣) الصفدي: أعيان العصر (مخطوط)، ج٣، ص٣١١.

الدين محمد بن يعقوب ابن النحوية وهو من علماء العربية في المعاني والبيان، وأسد اليهودي، وهو أحد أطباء اليهود وكانت تربطه بالملك المؤيد صداقة وطيدة، وابن الفقاعي* وكان مشهوراً بالقراءات والتجويد والفقه والنحو والأدب، ويعقوب بن عبدالرحمن** خطيب القلعة الحموي وكان ماهراً في العربية أيضاً (٤). ومن مجالس هؤلاء العلماء ومحاوراتهم في حماة ما ذكره صاحب الدرر «على لسان شمس الدين بن الذهيبي أنه كان يوماً عند القاضي شرف الدين البارزي بحماة وعنده صدر الدين بن الوكيل*** وصلاح الدين بن المغيزل**** فتباحثا من الصباح إلى أن أذن الظهر، فقال لهما القاضي شرف الدين : طول الله للمسلمين في عمركما سروراً بهما»(٥).

وقد كانت حماة مليئة بالمدارس التي ضمّت عدداً من هؤلاء العلماء وغيرهم، يُعَلِّمون في مدارسها علوم العربية والشريعة وغيرها، وقد سبق ذكر أسماء بعض هذه المدارس في التمهيد.

وقد تمثّل النثر في عهد المؤيد وابنه، بالرسائل الإخوانية والأدبية، والديوانية، والنثر التأليفي من كتب ومؤلفات شتّى.

أ- <u>الرسائل الإخوانية</u> :

ونسبة إلى اسم هذه الرسائل، فهي ذات صفة وجدانية تربط كاتبها بمن يكتب

---

* إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن سعدالله الحموي، الشيخ الفقيه المقري، المعروف بابن الفقاعي، كان عارفاً بالقراءات، والتجويد والأداء والترتيل مع المعرفة بالنحو والأدب، ولد ٦٤٢هـ وتوفي ٧١٥هـ (أعيان العصر، ج١، ص١٧٠).

** يعقوب بن عبدالرحمن بن عثمان خطيب القلعة الحموي، اشتغل بالفقه ومهر فيه وشارك في الفنون حتى اشتهر في حماة، وكان عارفاً بالقراءات، وله مصنّفات كثيرة، ت٧٧٤هـ (الدرر، ج٥، ص٢٠٩).

(٤) انظر: العسقلاني: الدرر الكامنة، ج١، ص٤٠٢، ج٥، ص٥٧، ٢٠٩، ٢٤٩، ٢٥٠؛ الصفدي: أعيان العصر، ج١، ص١٥٧، ١٧٠.

*** ابن الوكيل: صدر الدين أبو عبدالله الشافعي المعروف بابن الوكيل، عالم وفقيه حفظ ديوان المتنبي، والمقامات وغيرها من العلوم الكثيرة، ت٧١٦هـ (أعيان العصر، ج٢، ص١٠٣).

**** ابن المغيزل: عبدالله أحمد بن محمد بن محمد بن نصرالله ابن المغيزل الحموي ولي مشيخة الشيوخ في حماة، كان يعرف علوماً كثيرة، ت٧٣٣هـ (أعيان العصر، ج٣، ص٣٥٩).

(٥) العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٥، ص٢٤٥.

له رابطة صداقة أو قرابة، وموضوعات الرسائل الإخوانية تتعدد، فقد تكون التهنئة أو التعزية، أو الشكر، أو الاعتذار وغير ذلك.

ومن الإخوانيات في تلك الفترة وتلك المدينة رسالتان لابن الوردي، الأولى يعزّي فيها بوفاة قاضي القضاة شرف الدين هبة الله بن البارزي، وكتبها إلى ابن ابنه نجم الدين، والرسالة الثانية يهنىء فيها صاحباً له تولّى نظر المال بحماة (٦).

ومن رسالة التهنئة التي كتبها ابن الوردي إلى صديقه، الذي تولّى نظر المال بحماة وقد افتتحها بالشعر :

يُقَبِّلُ الأرْضَ مَشُوقاً قائـــلاً ... ومُستَكِّنُ الحبِّ منه ظاهِـــرُ
يَا جيرةَ حِمَى (حَمَاةَ) استوطنوا ... طَرْفِي إليكُم حيثُ كُنْتُم ناظِـرُ
أعجَزُ عن وَصْفِي ضَمِيرى لَكُـمُ ... إذ لم يُجُزْ أن تُوْصَفَ الضَمائِـرُ (٧)

حيث يعبّر ابن الوردي في هذه الأبيات، عن فرحه وابتهاجه لتسلم هذا الصديق، نظر المال بحماة، ولا يجد تعبيراً أفضل من الشعر الذي ينبع من وجدانه، ثم يتابع التهنئة نثراً فيقول: «ويُنهي أنّ الملوك كان يقول لقلعة حماة هنيئاً مريأً، (وقد جعل ربّك تحتَكِ سَرِيّا)، والآن هنيئاً للسريّ الفاخر، بمجاورة بحرك الزاخر، ولعمري لقد حقّ لابن مقاتل توشيع التوشيح، وأن يقتدي بالملائكة حتى يُسمع له زجل بالتسبيح، ولما عزا (منك) بثالث وهما من هما أنشدت مضمناً عني وعنهما:

قَدْ جَمَّلَ المولى حماةَ بِفَضْلِـــهِ ... فَدِمَشْقُ تَحْسُدُهَا على تمكينِهَـــا
بَسَمَتْ فَأعْجَبَنِي تَبَسُّمُ ثَغْرِهَـــا ... فَلَثَمْتُ فاهَا آخذاً بقرُونِهَـــا

فحُميتْ حماة من أعانة الصيب، وإصابة العين، وتمّ سرور أم الحسن بالحسين »(٨).

والكاتب يصوّر هنا ما يعلقه من آمال على هذا الصديق، وفرح حماة وأهلها، ابتهاجاً بهذا الصديق.

---

(٦) ابن الوردي، عمر بن المظفر (ت ٧٤٩هـ): الديوان، تحقيق أحمد فوزي الهيب، دار القلم، الكويت، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م، ص١٧٩، ١٠٤.

(٧) ابن الوردي: الديوان، ص١٧٨، ١٧٩.

(٨) المصدر نفسه، ص١٧٨ وما بعدها.

والرسالة الأخرى لابن الوردي في التعزية بوفاة قاضي قضاة حماة شرف الدين البارزي ويقول فيها ابن الوردي: «ويُنهي أنه بلغ المملوك، انهداد الطود الشامخ، وزوال الجبل الباذخ، الذي بكته السماء والأرض، وقابلت فيه المكروه بالنّدْب وذلك فرض، فشرقت أجفان المملوك بالدموع (كما شرقت صدر القناة من الدمّ)، وأحرق لبه من الضلوع، فراق ومن فارقت غير مذمم، وساواه في حزنه الوارد والصادر، واجتمع الناس لمأتم ظاهر، فالعلوم تبكيه، والمحاسن تعزّي فيه، والأقلام تمشي على الرؤوس لفقده، والمصنّفات تلبس حداد المداد من بعده، ولما صلّي عليه يوم الجمعة صلاة الغائب بحلب، ارتفع الضجيج واشتد النشيج وغلب، فلا خاص إلاّ حزن قلبه، ولا عام إلاّ طار لبّه، فإنه مصاب زلزل الأرض، وهدم الكرام المحض، وسلب الأبدان قواها، ومنع عيون الأعيان كراها، ولكنّ عزّى الناس لفقده، كون مولانا الخليفة من بعده، فإنك خلفٌ عظيم، لسلفٍ كريم، وأنت أولى من قابل هذا الفادح القادح بالرضى وسلّم إلى الله فيما مضى»(٩).

سَلِّمْ إلى اللّه فَكُلُّ الـــــذي ساءَكَ أو سَرَّكَ مِنْ عِنْــــدِهِ
إنَّ الّذي الوحشةُ فـــــي دارِهِ تُؤنِسُهُ الرَّحمةُ في لَحْــــدِهِ

فإن الله سبحانه وتعالى، يُحيي ما كانت الحياة أصلح، ويميت إذا كان الموت أروح، وقد نظم المملوك فيه مرثية أعجزه عن تحريرها اضطرام صدره، وحمله على تسطيرها انتهاب صبره، وهي :

بُرغْمي أنَّ بَيتَكم يُضَـــــامُ ويبعدُ عَنْكُم القاضي الإمَــامُ
سراجٌ في العُلومِ أضاءَ دَهْــراً علَى الدُّنيا لِغَيْبَتِهِ ظَـــلامُ
تَعطّلتْ المَكَارِمُ والمَعَالِـــــي وَمَاتَ العِلْمُ وارتَفعَ الطَغَــامُ
عَجِبْتُ لِفكرَتِي سمحتْ بِنَظْـمٍ أيُسعِدُني على شيخي نِظَـــامُ
وأرثيه رثَاءً مستقيمــــــاً ويمكنني القوافي والكَـــلامُ
ولو أنْصَفْتُهُ لقَضَيْتُ نَحْبِـــي ففي عُنُقِي له نِعَمٌ جِسَـــامُ

(٩) المصدر السابق نفسه، ص١٠٤ وما بعدها.

حشا أُذُني بدُرّ ٍ ساقطتـــــهُ   عُيُوني يَوْمَ حُمَّ له الحِمـــــامُ (١٠)

وهي قصيدة طويلة نظمها ابن الوردي في رثاء أستاذه، وضمّنها رسالة التعزية، ونجد ابن الوردي في هذه الرسالة، صاحب عاطفة صادقة ومعبّرة، عما يكنّه من حزن لفقده أستاذه، ويعود السبب في هذا إلى أن البارزي أستاذه الذي أخذ عنه العلم، ومن هنا فالرابطة بينه وبين أستاذه قوية، يقول شعراً :

أنَا تِلْمِيذُ بيتِكُم قديمـــــاً   بِكُم فَخْري إذا افتخرَ الأنَـــامُ

وقد جمع ابن الوردي في هذه الرسالة، بين الشعر والنثر، ليعبّر عن عواطفه التي شعر بها، عندما عرف خبر وفاة البارزي، وبيّن لنا عِظَم المصيبة وأثرها عندما قال: «انهداد الطود الشامخ، وزوال الجبل الباذخ». ولا ينسى المكانة العلمية للبارزي فإنه يشير إليها : «فالعلوم تبكيه، والمحاسن تعزي فيه، والأقلام تمشي على الرؤوس لفقده، والمصنّفات تلبس الحداد من بعده»(١١)، ويؤكد هذا المعنى شعراً عندما يقول:

سِرَاجٌ في العُلُومِ أضَاءَ دَهْـــراً   على الدُّنيا لغَيْبَتِهِ ظَــــلامُ

تَعطَّلتْ المَكَارِمُ والمَعَالِـــــي   وَمَاتَ العِلْمُ وارتَفعَ الطَغَـــامُ

وهذه الفاجعة، تجعل ابن الوردي، يستذكر أعلاماً آخرين أودى بهم الرّدى، ومنهم الكتاني، وابن جملة:

أيا عامَنَا لا كُنْتَ عَامـــــاً   فَمِثْلُكَ ما مضَى في الدَّهرِ عَـامُ

أتَفْجَعُنَا بكتَّانِيِّ مِصْـــــرَ   وكان بها لِسَاكِنِها اعْتِصَـــامُ

وتَفْتِكُ بابن جُملَةَ * في دمشقِ   ويَعْلوها لِمَصْرَعِهِ القَتَـــامُ

وَخَيْرُ حماةَ تَجْعَلُهُ خِتَامــــاً   أذابَ قُلُوبَنَا هذا الخِتَـــامُ

ولأنّ البارزي أحد العلماء والقضاة المشهورين، الذين عرفهم الناس، فإنّ الحزن

---

(١٠) المصدر السابق نفسه، ص١٠٥ وما بعدها.

(١١) ابن الوردي: الديوان، ص١٠٤ وما بعدها. ابن الوردي: عمر بن مظفر بن عمر زين الدين ابن الوردي، الفقيه الشافعي، نشأ بحلب، وتفقّه بها، ونظم البهجة الوردية، وله كتب ومقامات، ت٧٤٩هـ (الشوكاني: البدر الطالع: ج١، ص٥١٤).

* ابن جملة: يوسف بن إبراهيم بن جملة، قاضي القضاة بالشام، ت٧٣٨هـ (أعيان العصر، ج٣، ص٣٢٤).

والتفجع عليه، كان عاماً شاملاً، يقول ابن الوردي: «ولمّا صُلِّي عليه يوم الجمعة صلاة الغائب بحلب، ارتفع الضجيج واشتد النشيج وغلب، فلا خاص إلا حزن قلبه، ولا عام إلا طار لبّه»، ويرفد هذا شعراً :

ولما قَامَ نَاعِيه استَطَـارَتْ | عُقُولُ النَّاسِ واضْطَرَبَ الأَنَامُ
ولو يَبْقَى سَلَونا مَنْ سِوَاه | فإنْ بِمَوْتِهِ ماتَ الكِرَامُ

ويختم الرسالة بالعزاء الجميل، والدعوة بالرحمة للمتوفى، وتوسم الخير بمن خلفه، ودعوته إلى الصبر على القضاء، يقول : «ولكن عَزَّى الناس لفقده، كون مولانا الخليفة من بعده فإنّك خلف عظيم، لسلفٍ كريم، وأنت أولى من قابل هذا الفادح القادح بالرضى، وسلمّ إلى الله فيما مضى، فإنّ الله سبحانه وتعالى، يحيي ما كانت الحياة أصلح، ويُميت إذا كان الموت أروح»([١٢]).

- <u>الرسائل الأدبيّة</u> :

وهي إحدى الموضوعات الأدبيّة التي اهتمّ بها الشعراء والكتّاب في العصر المملوكي، «وتأخذ في أغلبها شكل المحاورة أو المناظرة، وتكون بين بعض المتناقضات مثل المدن والأقطار، وأنواع الأزهار والفاكهة، والأطيار، ومختلف الحيوان، والتراب والنار»([١٣]). ومن الرسائل الأدبية موازنة بين السيف والقلم للقلقشندي، وأخرى في الموازنة بينهما لابن الوردي. ويطالعنا في عهد المؤيد رسالة أدبية لابن نباتة الذي حرص أن يخوض في كل الأنواع الأدبية التي عرفت في عهده، ورسالته في المناظرة بين السيف والقلم، ونجد أنّ ابن نباتة قد وقع اختياره على شيئين اهتمّ بهما أهل زمانه، وهما السيف أداة الجهاد والحرب، والقلم أداة الثقافة والكتابة، والسيف والقلم هما مجال الفخر في عصر ابن نباتة.

وكتب ابن نباتة هذه الرسالة للملك المؤيد صاحب حماة، وقد جعله حكماً بين

(١٢) ابن الوردي: الديوان، ص١٠٤ وما بعدها.

(١٣) محمود رزق سليم: عصر سلاطين المماليك، ج٥، ص٢٦٤.

السيف والقلم في نهاية الرسالة، ويقدّم ابن حجة لهذه الرسالة عندما ذكرها حيث بيّن براعة ودقّة وإتقان ابن نباتة فيها، يقول: «وقد عَنّ لي هنا أن أرفع للمتأخرين في التقديم رأيه، ليعلم المُنكر الفرق بين البداية والنهاية، فإنّ الشيخ جمال الدين أظهر في المغايرة بين السيف والقلم ما صدق به قول القائل :

وإنّي وإنْ كُنْتُ الأخيرَ زَمَانُـــهُ   لآتٍ بما لم تَستَطِعْهُ الأوائِـــل (١٤)

ويبدو أن ابن نباتة قد كتب هذه الرسالة في إحدى لياليه أيّام كان بحماة في عهد الملك المؤيد، وذلك لتكراره اسم الملك المؤيد في هذه الرسالة (١٥).

يبدأ ابن نباتة المفاخرة على لسان القلم، ولعلّ هذا يبيّن إيثار ابن نباتة القلم على السيف، ويصوّر لنا ابن نباتة محاسن القلم، فبدأ هذه المحاسن بآية قرآنية كريمة، ليدلّل بذلك على أهمية القلم، من خلال قسم الله سبحانه وتعالى به، ويستهلّ الحديث بالتحميد والصلاة على النبيّ عليه السلام، كما يوضّح دور القلم وأهميته في تسيير الكثير من أمور الحياة السياسية، والعلمية، والاجتماعية، والاقتصادية، يقول ابن نباتة على لسان القلم : «فبرز القلم بإفصاحه ونشط لارتياحه، ورقي من الأنامل على أعواده وقام خطيباً بمحاسنة في حلّة مراده، والتفت إلى السيف فقال: «بسم الله الرحمن الرحيم والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون »(١٦)، الحمد لله الذي علمّ بالقلم، وشرفه بالقسم، وخط به ما قدر وقسم، «وصلى الله على سيدنا محمد» الذي قال «جف القلم »(١٧) بما هو كائن، وعلى آله وصحبه، ذوي المجد المبين ، وكل مجدٍ بائن، صلاة واضحة السطور قائمة من أدراج الصدور، ما نقلت صحف البحار غواديها، وكتبت أقلام النور على مهارق الدياجي حكمة باريها أما بعد،

---

(١٤) ابن حجة الحموي: خزانة الأدب، ج١، ص٢٣.

(١٥) محمود رزق سليم: عصر سلاطين المماليك، ج٥، ص٢٦٨.

(١٦) سورة القلم، آية ١.

(١٧) (رفعت الأقلام وجفّت الصحف)، مسند أحمد بن حنبل، ج١، ص٢٩٢، ٢٠٢.

فإن القلم منار الدين والدنيا، ونظام الشرف والعليا، ومجاديح[18] سحب الخير إذا احتاجت الهمم إلى السقيا، ومفتاح باب اليُمن المُجرّب إذا أعيا، وسفير الملك المُحَجَّب، وعذيق[19] الملك المُرَجَّب، وزمام أموره السائرة، وقادمة أجنحته الطائرة، ومطلق أرزاق عفاته ([20]) المتواترة، وأنملة الهدى المشيرة إلى ذخائر الدنيا والآخرة، به رقم كتاب الله الذي (لا يأتيه الباطل) ([21])وسنة نبيه -صلى الله عليه وسلم- التي تُهذِّب الخواطر والخواطل[22]، فبينه وبين من يفاخره الكتاب والسنّة، وحسبه ما جرى على يده الكريمة من مِنّة، وفي مراضي الدول عونة للشائدين، ويعين الله في ليالي النفس»([23]).

«تقلب وجهه في الساجدين، وإن نظمت فرائد العلوم فإنما هو سلكها، وإن علت أسرة الكتب فإنما هو مُلكها، وإن رقمت برود البيان فإنما هو جلالها وإن تشعبت فنون الحكم فإنما هو أمانها ومالها، وإذا انقسمت أمور الممالك، فإنما هو عصمتها وثمالها([24])، وإن اجتمعت رعايا الصنائع، فإنما هو إمامها المتلفع بسواده، وإن زخرت بحار الأفكار فإنا هو المستخرج دررها من ظلمات مداده، وإن وعد أوفى بجلب

(18) مجاديح: أنواء، مفردها مجدح (لسان العرب، ج1، ص420)، مادة (جدح).

(19) عذيق: تصغيراً لعذق النخلة، وهو تصغير تعظيم، ومنه حديث السقيفة، أنا عذيقها المرجب، لسان لعرب، ج4، ص238، مادة (عذق).

(20) عفاته: عفو المال: ما يفضل عن النفقة (لسان العرب، ج7، ص75، مادة (عفا).

(21) فصلت، آية 42.

(22) الخواطل: الخطل: الاضطراب، ورجل أخطل، اللسان، إذا كان مضطرب اللسان مفوهاً (لسان العرب، ج5، ص209).

(23) ابن حجة : الخزانة ، ج1، ص230-231.

(24) ثمالها: أثمال: المال القليل يبقى في أسفل الحوض أو أي إناء، لسان العرب، ج5، ص91.

النفع وإن أوعد أخاف كأنما يستمد من النقع(٢٥)» (٢٦).

هذا وهو لسان الملوك الخاطب، ورسيلها لأبكار الفتوح والخاطب، والمنفق في تعمير دولها ومحصول أنفاسه، والمتحمل أمورها الشاقة على عينه ورأسه، والمتيقظ لجهاد أعدائها والسيف في جفنه نائم والمجهز لبأسها وكرمها جيشي الحروب والمكارم، والجاري بما أمر الله من العدل والإحسان، والمسود الناصر فكأنما هو لعين الدهر إنسان، طالما ذب عن حرمها فشدّ الله أزره، ورفع ذكره، وقام في المحامات عن دينها أشعث أغبر، لو أقسم على الله لأبرّه(٢٧)، وقاتل على البعد والصوارم في القرب، وأوتي من معجزات النبوة نوعاً من النصر بالرعب(٢٨)، وبعث جحافل السطور فالقسي دالات، والرماح ألفات واللامات لامات، والهمزات كواسر الطير التي تتبع الجحافل، والأتربة عجاجها المحمّر من دم الكلى والمفاصل، فهو صاحب فضيلتي العلم والعلم وساحب ذيلي الفخار في الحرب والسلم، لا يعاديه إلاّ من سفّه نفسه ولبس لبسه وطبع على قلبه، وفل(٢٩) الجدال من غربة(٣٠)، وخرج في وزن المعارضة عن ضربه(٣١)، وكيف يعادي من إذا كرع في نفسه قيل «إنا أعطيناك الكوثر»(٣٢)، وإذا ذكر شانئه السيف قيل»(٣٣)، «إنّ شانئك هو الأبتر»(٣٤)، أقول قولي هذا وأستغفر الله من الشرف وخيلائه، والفخار وكبريائه وأتوكل على الله فيما حكم، وأسأله

(٢٥) النقع: السم القاتل، ونقع السم في أنياب الحية اجتمع (لسان العرب، ج٤، ص٣٦٠) مادة (نقع).
(٢٦) ابن حجة : خزانة الأدب، ج١، ص٢٣٠.
(٢٧) «ربّ أشعث مرفوع بالأبواب لو اقسم على الله لأبرّه»، صحيح مسلم، باب البرّ، ص١٢٨.
(٢٨) «ونصرت بالرعب شهراً يُرعب مني العدو مسيرة شهر»، صحيح مسلم، باب المساجد، ص٥٢.
(٢٩) الفلّ: الثلم في أي شيء كان، (لسان العرب، ج٥، ص٥٣٠، مادة :فلل).
(٣٠) الغرب: حد الشيء (لسان العرب، ج١، ص٦٤١، مادة: غرب).
(٣١) المثال والهيئة، (لسان العرب، ج١، ص٥٤٨، مادة: ضرب).
(٣٢) سورة الكوثر، آية ١.
(٣٣) ابن حجة : الخزانة، ج١، ص٢٣١.
(٣٤) سورة الكوثر، آية ٣.

التدبير فيما جرى به من القلم، ثم أكتفي بما ذكره من أدواته، وحبس على كرسي دواته، متمثلاً يقول القائل :

قلمٌ يفلّ(٣٥) الجيشَ وهو عرمرم(٣٦) والبيض ما سلّت من الأغماد(٣٧)

وهبت له الآجام(٣٨) حيث تشابها كرم السيول وصولة الآساد(٣٩)

ويرد السيف على القلم بمثل ما احتّج، من استخدام الآيات القرآنية الكريمة، الدالة على فضل السيف، ويحتجّ بذكر بعض هذه الآيات، يقول السيف في هذه المناظرة: «بسم الله الرحمن الرحيم، «وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد، ومنافع للناس»(٤٠)، «وليعلم من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز»(٤١) الحمد لله الذي جعل الجنّة تحت ظلال السيوف(٤٢)، وشرّع حدّها في ذوي العصيان فاغصّهم بماء الحتوف، وشيد مراتب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيانٌ مرصوص(٤٣)، وعقد مرصوف(٤٤)، وأجناهم من ورق حديدها الأخضر ثمار نعيمها الدانية القطوف، وصلىّ الله على سيدنا محمد هازم الألوف، وعلى آله وصحبه الذين طالما محوا بريف الصوارم سطور الصفوف، صلاة عاطرة في الأنوف، حالية بها الأسماع

(٣٥) يفلّ : فلّ القوم، هزمهم، (لسان العرب، ج٥، ص٥٢٠، مادة : فل).
(٣٦) عرمرم: جيش عرمرم: كثير، (لسان العرب، ج٥، ص٣٩٧، مادة : عرم).
(٣٧) الأغماد: مفردها غمد، وهو موضع السيف، (لسان العرب، ج٢، ص٣٢٦، مادة : غمد).
(٣٨) الآجام: الأجمة: منبت الشجر، (لسان العرب، ج٦، ص٨، مادة : أجم).
(٣٩) الصولة: السطوة، (لسان العرب، ج٥، ص٣٨٧، مادة : صول).
(٤٠) سورة الحديد، آية ٢٥.
(٤١) سورة الحديد، آية ٢٥.
(٤٢) (وأعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف)، صحيح البخاري، باب الجهاد، ص١١٢.
(٤٣) مرصوص: رص النبيان، أحكمه وضمه إلى بعضه، (لسان العرب، ج٣، ص٤١، مادة : رصص).
(٤٤) مرصوف: رصف الشيء، ضم الشيء إلى بعضه ونظمه، (لسان العرب، ج٤، ص١١٩).

كالشنـــــوف(٤٥)»(٤٦).

أمّا بعد فإن السيف زند الحق الوري(٤٧) وزنده القوي، وحدّه الفارق بين الرشيد والغوي، والنجم الهادي إلى العز وسبيله، الثغر الباسم عن تباشير قلوله، به أظهر الله الإسلام وقد جنح خفاء، وجلى شخص الدين الحنيفي وقد جمح جفاء، وأجرى سيوفه بالأباطح فأما الحق فمكث والباطل فذهب جفاء(٤٨)، وحملته اليد الشريفة النبوية وخصّته على الأقلام بهذه المزية، وأوضحت به للحق منهاجاً، وأطلعته في ليالي النقع والشك سراجاً وهّاجاً، وفتحت باب الدين بمصباحه حتى دخل فيه الناس أفواجاً، فهو ذو الرأي الصائب، وشهاب العزم الثاقب(٤٩)، وسماء العز التي زيّنت من آثاره بزينة الكواكب، والحد الذي كأنه ماء دافق يخرج عند قطع الأجساد من بين الصلب والترائب(٥٠)، لا تجحد آثاره، ولا ينكر قراره، إذا اشتبت في الدّجى والنقع ناره يجمع بين الحالتين البأس والكرم، ويصاغ في طوق الحليتين، فهو إمّا طوق في نحور الأعداء وإمّا خلخال في عراقيب أهل النقم، ويحسم به أهواء الفتن المضلة، ويحذف بهمته الجازمة حروف العلّة، وإذا انحنى في سماء القتام بالضرب، فقل يسألونك عن الأهلة(٥١)، فهو القوي الاستطاعة، الطويل المعمر إذا قصف(٥٢) سواه في ساعة فما أولاه بطول الإحسان، وما أجمل ذكره في أخبار المعمرين ومقاتل الفرسان،

---

(٤٥) الشنوف: القرط في الأذن، (لسان العرب، ج٤، ص١٨٣، مادة : شنف).

(٤٦) ابن حجة: الخزانة، ج١، ص٢٣٢.

(٤٧) الزند: العود الأعلى الذي يقتدح به النار، (لسان العرب، ج٢، ص١٩٥، مادة : زند).
الورى، خروج النار: ورت الزناد إذا خرجت ناره، (لسان العرب، ج٦، ص٣٨٨، مادة : وري).

(٤٨) سورة الإسراء، آية ٨١. جفاء:

(٤٩) الثاقب: المضيء، (لسان العرب، ج١، ص٢٤٠، مادة : ثقب).

(٥٠) الترائب: عظام الصدر، (لسان العرب، ج١، ص٢٣٠، مادة : ترت).

(٥١) سورة البقرة، آية ١٨٩.

(٥٢) قصف: القصف الكسر، (لسان العرب، ج٤، ص٢٨٣، مادة : قصف).

كأن الغيث في غمده للطالب المنتجع(٥٣)، وكأنه زند يستضاء به، إلاّ أن دفع الدماء شرره الملتمع، كم قد مدّ فأدرك الطلاب، ودعا النصر بلسانه المحمّر من أثر الدماء فأجاب، وتشعبت الدول لقائم نصره المنتظر، وخازق أبكار الفتوح بحدّه الذكر، وغدت أيامها به ذات حجول معلومة وغرر(٥٤)»(٥٥). «وشدت به الظهور، وحمدت علائقه في الأمور، واتخذته الملوك حرزاً لسلطانها، وحصناً على أوطانها وقطانها(٥٦)، وجردته على صروف الأقدار في شانها، وجرّدته على صروف الأقدار في شانها، وتدب فما أعيت عليه المصالح، وباشر اللمم، فهو على الحقيقة بين الهدى والضلال، فرق واضح، وأغاث في كل فصل فهو إما لغمده سعد الأخبية وإما لحامله سعد السعود، وما لضده سعد الذابح، يجلس على رؤوس الأعداء قهراً، ويشرح أنباء الشجاعة قائلاً للقلم: (ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبراً)(٥٧)، وهل يفاخر من وقف الموت على بابه، وعضّ الحرب الضروس بنابه وقذفت شياطين القراع بشهبه، ومنح آيات شريفة منها طلوع الشمس من غربه، ومنها أن الله أنشأ برقه، فكان للمارد مصرعاً وللرائد مرتعاً (ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً)(٥٨) كما تخذ من جسدٍ طرساً، وكتب عليه حرفاً لا يُنسى فيه للألباب عبرة، وللأذهان السابحة غمرة بعد غمرة، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم من لفظ يجمع، ورأي إلى الخصام يجنح، ولسان يحوجه اللدد(٥٩)، إلى أن يخرج فيخرج، وأتوكل عليه في صد الباطل وصرفه، وأسأله الإعانة على كل باحث عن حتفه بظلفه ثم اختفى في بعض الخمائل وتمثّل يقول القائل:

سل السيف عن أصل الفخار وفرعه   فإني رأيت السيف أفصح مقــولا

---

(٥٣) منتجع: النجعة عند العرب: المذهب في طلب الكلا في موضعه، (لسان العرب، ج٤، ص٣٤٧).
(٥٤) غرر: غرة الشيء أوله، لسان العرب، ج٢، ص١٤).
(٥٥) ابن حجة : خزانة الأدب، ج١، ص٢٣٣.
(٥٦) قطانها: قطن بالمكان أقام به، (لسان العرب، ج٦، ص٣٤٢، مادة : قطن).
(٥٧) سورة الكهف ، آية ٨٢
(٥٨) سورة الرعد، آية ٢٤.
(٥٩) اللدّد : الخصومة والجدل، (لسان العرب، ج٢، ص٣٩١، مادة : لدد).

فلمّا وعى القلم خطبته الطويلة الطائلة، ونشطته الجليلة الجائلة، وفهم كتابته وتلويحه، وتعريضه بالذم وتصريحه، وتعديله في الحديث وتجريحه استغاث باللفظ النصير، واحتد وما أدراك ما حدّة حدّه القصير وقام في دواته وقعد، واضطرب على وجه القرطاس وارتعد، وعدل إلى السبّ الصراح، ورأى أنه إن سكت تكلم ولكن بأفواه الجراح، فانحرف إلى السيف وقال: أيها المعتز بطبعه، المغتر بلمعه، الناقض حبل الإنس بقطعه، الناسخ بهجيره من ظلال العيش فيأ السراب الذي (يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً)(٦٠)»(٦١).

الحبيب الذي طالما عادت عليه عوائد شرّه الكمين(٦٢)، الإبليس الذي لو أمر لي بالسجود لقال: (خلقتني من نار وخلقته من طين)(٦٣) أتعرض بسبي، وتتعرض لمكايد حربي ألست ذا الخدع البالغة، والحرب خدعة، والمنن النافعة، ولا خير فيمن لا تبغي الأنام نفصه، ألست المسودّ الأحق بقول القائل :

نفس عصام سوّدت عصاما وعلمته الجود والإقداما

أتفاخرني وأنا للوصل وأنت للقطع، وأنا للعطاء وأنت للمنع، وأنا للصلح وأنت للضراب، وأنا للعمارة وأنت للخراب، وأنا المعمّر وأنت المدمّر، وأنت المقلّد وأنا صاحب التقليد، وأنت العابد وأنا المجود ومن أولى من القلم بالتجويد، فما أقبح شبهك، وما أشنع يوماً ترى فيه العيون وجهك، أعلى مثلي يشق(٦٤) القول ويدفع الصوت والصول(٦٥)، وأنا ذو اللفظ المكين، وأنت ممن دخل تحت قوله تعالى: (أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين)(٦٦) فقد تعدّيت جدك، وطلبت ما لم تبلغ

---

(٦٠) سورة النور، آية ٣٩.

(٦١) ابن حجة : خزانة الأدب، ج١، ص٢٣٤.

(٦٢) الكمين: بمعنى كامن، (لسان العرب، ج٦، ص٣٥٩).

(٦٣) سورة الأعراف، آية ١٢.

(٦٤) يشق : الشقاق العداوة والخلاف، (لسان العرب، ج٤، ص١٨٣، مادة : شقق).

(٦٥) الصول: السطوة، (لسان العرب، ج٥، ص٣٨٧).

(٦٦) سورة الزخرف، آية ١٨.

به جهدك هيهات أنا المنتصب لمصالح الدول وأنت في العمد طريح، والمتعب في تمهيدها وأنت غافل مستريح، والساهر وقد مهّد لك في العمد مضجع والجالس عن يمين الملك وأنت عن يساره، فأي الحالتين أرفع، والساعي في تدبير حال القوم، والمغني لنفعهم العم إذا كان نفعك يوماً أو بعض يوم، فاقطع عنك أسباب المفاخرة، وأستر أنيابك عند المكاشرة فما يحسن بالصامت محاورة المفصح، والله يعلم المفسد من المصلح، على أنه لا ينكر لمثلك التصدّي، ولا يستغرب منه على مثلي التعدّي ما أنا أول من أطاع الباري وتجرأت عليه، ومددت يد العدوان إليه، أو لست الذي قيل فيه:

شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة ويستحل دم الحجاج في الحرم(٦٧).

«قد سلبت الرحمة وإنما يرحم الله من عباده الرحماء، وجلبت القوة فلكم هيجت سبة حمراء، وأثرت دهماء، وخمشت الوجوه، وكيف لا وأنت كالظفر كوناً، وقطعت اللذات، ولم لا وأنت كالصبح لوناً، أين بطشك من حلمي، ووجهك من علمي وجسمك من صبحي:

شتان ما بين جسم صيغ من ذهب وذاك جسمي وجسم صيغ من بهق(٦٨)

أين عينك الزرقاء من عيني الكحيلة، ورؤيتك الشنعاء من رؤيتي الجميلة، أين لون الشيب من لون الشباب، وأين نذير الأعداء من رسول الأحباب، هذا وكم أكلت الأكباد غيظاً، وحميت الأضغان، قيظاً وشكوت الصدأ فسقيت ولكن بشواظ(٦٩) من نار وأخنت عليك الأيام حتى انتعل بأبعاضك الحمار، ولولا تعرضك إليّ لما وقعت في المقت، ولولا إساءتك لما كنت تصقل في كلّ وقت، فدع عنك هذا الفخر المديد، وتأمل وصفي إذا (كشف عن عنك الغطاء فبصرك اليوم حديد)(٧٠) وافهم قول ابن الرومي:

إن يخدم القلم السيف الذي خضعت له الرقاب ودانت خوفه الأمم

---

(٦٧) ابن حجة ، الخزانة، ص٢٣٤، ٢٣٥.
(٦٨) البهق: مرض جلدي يجعل الجلد أبيض اللون، (لسان العرب، ج٤، ص٢٩).
(٦٩) شواظ : اللهب الذي لا دخان فيه، (لسان العرب، ج٣، ص٤٤٦، مادة : شوظ).
(٧٠) سورة ق، آية ٢٢.

فالموت والموت لا شيء يعادلــــه　　　ما زال يتبع ما يجري به القلم

بذا قضى الله في الأقلام إذ بريت　　　إنّ السيوف لها مذ أرهفت خدم

ويردّ السيف على هذا القول من قبل القلم :

«أيها المتطاول على قصره، والماشي على طريق غرره، والمتعرض في إلى الدمار، والمتحرش بي فهو كما تقول العامة: (ذنبه قش ويحترس بالنار)، لقد شمرت عن ساقِكَ حتى أغرقتك الغمرات، وأتعبت نفسك فيما لا تدرك إلى أن أذهبها التعب حسرات، أولست الذي طالما أرعش السيف للهيبة عطفك، ونكس للخدمة رأسك وطرفك، وأمر بعض رعيته وهو السكين فقطع قفاك وشق أنفك ورفعك في مهمات خاملة، وحطك وجذبك للاستعمال وقطّك»(٧١).

«فليت شعري كيف جسرت، وعبست على مثلي ويسرت(٧٢)، وأنت السوقة وأنا الملك، وأنا الصادق وأنت الموتفك(٧٣)، وأنت لصون الحطام وأنا لصون الممالك، وأنت لحفظ المزارع وأنا لحفظ المسالك، وأنت للفلاحة وأنا للفلاح، وأنت حاطب الليل من نفسه، وأنا ساري الصباح، وأنا الباصر، وأنت الأرمد، وأنا المخدوم الأبيض، وأنت الخادم الأسود، وأقسم بمن صير في قبضتي أنواع اليمن المسخرة، وجعل شخصك وشخصي كقوله تعالى: (وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة)(٧٤)، وإنك عن بلوغ قدري لأذلّ رتبة، وعن بري كفي لأخيب طلبه، فإني لا أنكر قول بعض أربابك حيث قالوا :

أف لرزق الكتبـــة　　　أف له ما أصعبـــه

يرتشف الرزق بـــه　　　من شق تلك القصبه

يا قلماً يرفع في الطـــرس لوجهي ذنبــــه

---

(٧١) ابن حجة : الخزانة، ج١، ص٢٣٥، ٢٣٦.

(٧٢) يسر: نظر بكرامة شديدة (لسان العرب، ج٢، ص٥٨، مادة : يسر).

(٧٣) المؤتفك: الكذّاب، (لسان العرب، ج٤، ص٣٩٠، مادة : أفك).

(٧٤) سورة الإسراء، آية ١٢.

ما أعرف المسكين إلا   كاتباً ذا متربـــــــه

إن عاينت الديوان وقعت في الحساب والعذاب، أو البلاغة مهرت وبالغت فأنت ساحر كذّاب، أو فخرت بتقييد العلوم، فمالك منها سوى لمحة طرف، أو برقم المصاحف فإنك تعبد الله على حرف، أو جمعت عملاً فإنما جمعك للتكسير، أو رفعت إلى طرفك رجع البصر خاسئاً وهو حسير([٧٥])، وهل أنت في الدول إلا خيال تكتفي الهمم بطيفه، أو أصبع يلعق بها الرزق إذا أكل الضارب بقائم سيفه، وساع على رأسه قل ما أجدى، وسار بما أعطى قليلاً وأكدى([٧٦]) ثم وقف وأكدى، أين أنت من حظى الأسنى([٧٧]) وكفي الأغنى، وما خصصت به من الجوهر الفرد إذا عجزت أنت من العرض الأدنى، كم برزت فما أغنيت في مهمة، وكم خرجت من دواتك لتسطير سيئة، فخرجت كما قيل من ظلمة إلى ظلمة»([٧٨]).

«وهب أنك ما قلت مفتوق اللسان، جريء الجنان، مداخل بمخلبك بين ذوي الاقتناص، معدود من شياطين الدول وأنت في الطرس والنقس بين بناء وغواص، فلو جريت خلفي إلى أن تحفى، وصحت بصريرك إلى أن تخفت وتخفى، فما كنت مني إلا بمنزلة المدرة([٧٩]) من السماك الرامح والعبرة على تيار الخضم الطافح، فلا تعد نفسك بمعجزي فإنك ممن يمين، ولا تحلف لها أن تبلغ مداي فليس لمخضوب البنان يمين ومن صلاح نجمك أن تعترف بفضلي الأكبر، وتؤمن بمعجزتي التي بعثت منك إلى الأسود والأحمر لتستوجب حقاً، وتسلم من نار حر تلظى لا يصلاها إلى الأشقى([٨٠]) إن لم يتضح لرأيك إلا الإصرار، وأبت حصائد لسانك إلا أن توقعك في النار فلا رعى الله

---

(٧٥) سورة الملك، أية ٤.

(٧٦) أكدى: قطع، (لسان العرب، ج٦، ص٢١٧، مادة : كدا).

(٧٧) الأسنى: الأعلى، (لسان العرب، ج٦، ص٤٠٣، مادة : سنا).

(٧٨) ابن حجة : الخزانة، ج١، ص٢٣٧.

(٧٩) مدرة: قطع الطين اليابس، (لسان العرب، ج٣، ص١٦٢، مادة : مدر).

(٨٠) سورة الليل، أية ١٥.

عزائمك القاصرة، ولا جمع عقارب ليل نفسك التي إن عادت فإن نعال السيوف لها حاضرة، ثم قطع الكلام وتمثل بقول أبي تمام :

السيف أصدق أنباء من الكتب   في حدّه الحدّ بين الجدّ واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف في   متونهن جلاء الشك والريب

فلما تحقق تحريف القلم حرجه، وفهم مقدار الغيظ الذي أخرجه وسمع هذه المقالة التي يقطر من جوانبها الدم، ورأى أنه هو البادي بهذه المناقشة والبادي أظلم رجع إلى خداعه وتنحّى عن طريق قراعه([٨١])، وعلم أن الدهر دهره والقدر على حكم الوقت قدره وأنه أحقّ بقول القائل :

لحتها معرب وأعجب مـن ذا   أن أعرابَ غيرها ملحـون

فالتفت إليه وقال: أيها المتلهب في قدحه ([٨٢])، والخارج عمّا نسب إليه من صفحه ما هذه الزيادة في السباب، والتطفيف في كيل الجواب»([٨٣]).

«وأين علم الشيوخ عند جهل الشباب، أما كان الأحسن بك أن تترك هذا الرفث([٨٤])، وتعلم أخاك على الشعث([٨٥])، وتحلم كما زعمت أنك السيد، وتزكو على الغيظ كما يزكو على النار الجيد، أما تعلم أني معينك في تشييد الممالك، ورفيقك فيما تسلكه لنفعها من المسالك أما أنا وأنت للملك كاليدين، وفي تشييده كالركنين الأشدين، وما أراك عبتني في الأكثر ولا يتحول جسدي الذي ليس خلقه علي، وضعفه الذي ليس أمره إليّ، على أن أشهى الخصور أغضها، وأقوى الجفون أضعفها، وأزكى النسيمات أعلها وأدنفها([٨٦])، وهذه سادات العرب تعد ذلك من فضلها الأظهر وحسنها

---

(٨١) قراع: القراع بالضرب، (لسان العرب، ج٤، ص٢٦٦، مادة : قرع).

(٨٢) قدح : عاب ، (لسان العرب، ج١، ص٥٥٥، مادة : قدح).

(٨٣) ابن حجة: الخزانة، ج١، ص٢٣٧-٢٣٨.

(٨٤) الرفث: الفحش في الكلام، (لسان العرب، ج١، ص١٥٤، مادة : رفث).

(٨٥) الشعث: الزلل، (لسان العرب، ج١، ص١٦١). والبيت للنابغة:

ولست بمستبق أخاً لا تلُمُّه   على شعثٍ أيّ الرجالِ المهذّبُ

(٨٦) أدنفها: الدنف : المرض، (لسان العرب، ج٤، ص١٠٧، مادة : دنف).

الأشهر، ولو أنك تقول بالفصاحة وتقف في هذه الساحة، لأسمعتك في ذلك من أشعارهم واتحفتك بما يفخرون به من آثارهم وكذلك عيبك سواد خلقتي التي

أكسبها الحب حلية صبغت   صبغة هب القلوب والحدق

فيا لله ويا للحجر الأسود من هذه الحجة البائرة، والكرة الخاسرة وعلى هذه النسبة ما عبتني به من فقر الأنبياء وذل الحكماء، على أن إطلاقات معروفي معروفة، وسطوات أمري في وجوه الأعداء المكسوفة مكشوفة، فاستغفر الله مما فرط في مقالك، والتقويض من عوائد احتمالك، فلا تشمّت بنا الأضداد ولا تسلّط بفرقتنا المفسدين في الأرض إن الله لا يحب الفساد، وأغضض الآن من خيلائك بعض هذا العفن، ولا تشك أني قسيمك ولو قيل لك (يا داوود أنا جعلناك خليفة في الأرض)(٨٧)، وإن أبيت إلا أن تهدّد وتجرد الشغب وتحدد، فاذكر محلنا من اليد الشريفة السلطانية الملكية المؤيدية، أيد الله نعمها وجازى بالإحسان شيمها، وأيقظ في الآجال والآمال سيفها وقلمها، ولا عطل مشاهد المدح من أنسها، ولا أخلى قرائض البأس والكرم من قيام خمسها، فاقسم من بأسه بالليل وما وسق، ومن بشر طلعته بالقمر إذا اتسق(٨٨)، لو تجاور الأسد والظباء بتلك اليد لوردا بالأمن في منهل، ورتعا في روض لا يجعل، ولو لجأ إليها النهار لما راعه بمشيئة الله الليل بزجر، أو الليل لما غلب على خيطه الأسود الخيط الأبيض من الفجر، وعلى ذلك فما ينبغي لنا بين تلك الأنامل غير سلوك الأدب، والمعاضده على محو الأزمات والنوب والاستقامة على الحق ولا عوج، والحديث من تلك الراحة عن البحر ولا حرج هذه نصيحتي إليك والدين النصيحة»(٨٩).

ونجد هنا أن ابن نباتة بعد أن بيّن خصائص السيف والقلم وما جاء عنهما في الكتاب والسنّة، وما رافق هذا من صور ناطقة جميلة يصل إلى غايته المنشودة، وهي أن السيف والقلم توأمان لا يستغني عنهما عاقل، ويجعل هذا على لسان القلم، وقد

---

(٨٧) سورة ص، آية ٢٦.

(٨٨) وسق: جمع وضم. اتسق: اعتدل ، (لسان العرب، ج٤، ص٣٧٩، ٣٨٠مادة : وسق).

(٨٩) ابن حجة : الخزانة، ج١، ص٢٣٨-٢٣٩.

يكون ابن نباتة قصد ذلك لأنه صاحب قلم وليس صاحب سيف.

ثم يقبل السيف حجة القلم في المصالحة ويثني على الملك المؤيد كما أثنى عليه القلم من قبل «فعند ذلك نكس السيف طرفه، وقبل خديعة العلم قائلاً لأمر ما جدع قصيرٌ أنفه، وأمسك عن المشاغبة ضيقة الذلل، فإن السيف معروفة بالخلل، ثم قال: أيها الضعيف الجبار، والبازغ في ليل المداد نجماً وكم في النجوم غرّار، لقد تظلمت من أمر أنت البادي بظلمه، وتسورت إلى فتح باب أنت السابق إلى فتح ختمة، وقد فهمت الآن ما ذكرت من أمر اليد الشريفة ونعم ما ذكرت، وأحسن بما أشرت، وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره، وقد تغافلت عن قولك الأحسن، ورددتك إلى أمك الدواة كي تقر عينها ولا تحزن، وسألت الله تعالى أن يزيد محاسن تلك اليد العالية تماماً على الذي أحسن فإنها اليد التي :

لو أثر التقبيل في يد منعم　　　لحا براجم(٩٠) كفها التقبيل

والراحة التي :

تسعى القلوب لغوثها(٩١) ولغيثها(٩٢)　　　فيجيبه التأمين والتأميلُ» (٩٣).

«والأنامل التي علّمها الله بالسيف والقلم، ومكّنها من رتبتي العلم والعلم ودارك بكرمها آمال العفاة بعد أن لا ولم، ولولا أن هذا المضمار يضيف عن وصفه السابق إلى غاية الخصل،، ومجده الذي إذا جرّ ذيله ودّ الفضل لو تمسك منه بالفضل، لأكلت في ذكر مجدها الأوضح، وأفصحت في مدحها ولا ينكر لمثلها إن أنطقت الصامت فأفصح، ثم إنك بعدما تقدّم من القول المزيد، والمجادلة التي عزّ أمرها على الحديد، أقررت أنت أننا للملك كاليدين ولم تقر أيضاً اليمين، وفي آفاقه كالقمرين، ولم تذكر أيتا الواضحة الجبين، وما يشفى ضناي ويروي صداي إلا أن يحكم بيننا من لا يردّ حكمه ولا يتهم فهمه، فيظهر أينا المفضول من الفاضل، والمخذول من الخاذل، ويقصر

---

(٩٠) براجم: مفاصل الأصابع، واحده برجم، معجم الوسيط، ج١، ص٤٧، مادة : برج).

(٩١) الغوث: من الإغاثة، بمعنى الإعانة، (لسان العرب، ج١، ص١٧٥).

(٩٢) غيث: العطاء ، (لسان العرب، ج١، ص١٧٥).

(٩٣) ابن حجة : خزانة الأدب، ج١، ص٢٣٩.

عن القول المناظر وقد رأيت أن يحكم بيننا المقام الأعظم، الذي أشرت إلى يده الشريفة وتوسلت بمحاسنها اللطيفة، فإنه مالك زمامنا ومنشيء غمامنا، ومصرف كلامنا، وحامل أعبائنا، الذي ما هوى للهوى، وصاحب أمرنا ونهينا، وبالله ما ضلّ صاحبكم وما غوى، ليفصل الأمر بحكمه، ويقدمنا إلى مجلسه الشريف فيحكم بيننا بعلمه، فقدم خيرة الله على ذلك الاشتراط، وقل بعد تقبيلنا الأرض له في ذلك البساط: خصمان بغى بعضنا على بعض، فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط(٩٤) وأهدنا إلى سواء الصراط، فنشط القلم فرحاً، ومشى في أرض الطرس مرحاً، وطرب لهذا الجواب وخرّ راكعاً وأناب، وقال سمعاً وطاعة، وشكر الله على هذه الساعة.

الآن ظهر ما تبغيان، وقضى الأمر الذي فيه تستفتيان، وحكم بيننا الرأي المنير، ونبأنا بحقيقة الأمر ولا ينبئك مثل خبير ثم تفاصلا على ذلك، وتراضيا على ما يحكم به المالك، وكانوا أحق بها وأهلها»(٩٥).

- <u>الرسائل الديوانية</u> :

كان الإهتمام بديوان الانشاء كبيراً في العصرين الأيوبي والمملوكي. وإن كان قد زاد في العصر المملوكي وذلك أن الرسائل الصادرة من ديوان الإنشاء في ذلك الوقت كانت تشمل جميع الأمور التي تهمّ الرعيّة أو الدولة، أو علاقات الدولة بالدول الأخرى، خاصّة وأن الرسائل الصادرة منه ذات صفة رسميّة.

ونتيجة لأهمية هذا الديوان، فقد كان الإختيار لمن يعمل فيه دقيقاً أيضاً، حيث كانت الشروط كثيرة لمثل هذه الوظيفة، (الكتابة في ديوان الرسائل، أو الإشراف عليه)، فلا بُدّ من الثقافة الواسعة، والدراية بأحوال الأمم والأجناس، والمعرفة الدقيقة للغة العربية، شعرها ونثرها وغيرها من فروع المعرفة الأخرى، وقد تولى ديوان الرسائل وعمل فيه في العصر المملوكي، أهم الكتّاب في ذلك الوقت مثل، القلقشندي صاحب صبح الأعشى، وابن فضل الله العمري صاحب التعريف بالمصطلح الشريف، وكلاهما وضع كتاباً في هذا الفن الكتابي، وقد وضّح لنا القلقشندي في صبح الأعشى

---

(٩٤) تشطط: تتجاوز القدر، (لسان العرب، ج٣، ص٣٣٤، مادة : شطط).

(٩٥) ابن حجة : الخزانة، ج١، ص٢٤٠.

الكثير من الأمور الخاصة بهذا الديوان من حيث مستلزمات الكتابة فيه، وأنواع الرسائل وأساليب الكتابة وغير ذلك. ولعلّ الحرص على وجود كتّاب متمكّنين في ديوان الرسائل، جعل فيه الكثير من الدقّة، في صيغة الخطاب مما يجعل فيها نوعاً من التعقيد، الذي يزيد عن الحدّ أحياناً.

والرسائل الديوانية أنواع كثيرة، تختلف باختلاف موضوعاتها، ومن هذه الرسائل إلى حماة نجد التقليد، والبشارة، والتهنئة، والأدعية وغيرها.

أما من تكتب لهم الرسائل في حماة بعد المؤيد وابنه الأفضل فمنهم «أرباب السيوف، وأرباب الوظائف الدينية وهم القضاة الأربعة، وقضاة العسكر، ومفتي دار العدل، والمحتسب، ووكيل بيت المال، ووظائف التداريس والتصادير، ونظر الأحباس، والحاجب بها» (٩٦).

وقد كان لعلاقة أبي الفداء المميزة بالملك الناصر محمد في مصر، دورها في تميّز مخاطبة أبي الفداء عن غيره من الحكّام في عهده، فقد خدم الملك الناصر عندما كان في الكرك، بعد أن استولى بيبرس الجاشنكير على السلطة في مصر، فكان لهذا أثره في نفس السلطان الناصر، فمنحه لقب ملك حماة، وهو أعلى رتبة سياسية في عهد الناصر لحكام الولايات، وتبع هذا كثير من الاختصاصات التي جعلته مختلفاً عن غيره من النوّاب منها، أن له الحق أن يفعل في حماة ما يشاء من إقطاع وغير ذلك، ولا يؤمر ولا يُنهى، كما أن السلطان الناصر بعد زيارات أبي الفداء الكثيرة لمصر وما رآه من أدب المؤيد وفضائله من خلال مرافقته له في حجة عام ٧١٩هـ زاد تقديره واحترامه له حتى أنه كان يركبه بشعار السلطنة عند زياراته لمصر ويمشي في خدمته أكابر أمراء الناصر حتى نائب الشام في ذلك الوقت كان يمشي في حضرته، وحماة يومئذ نيابة من نيابات الشام (٩٧).

(٩٦) القلقشندي، أحمد بن علي القلقشندي (ت ٨٢١هـ): صبح الأعشى في صناعة الأنشاء، شرح وتعليق محمد حسين شمس الدين، دار الباز، مكة المكرمة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ج١٢، ص١٩٦، ٢٠١.

(٩٧) الشوكاني، محمد بن علي (ت ١٢٥٠ هـ): البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، دار المعرفة، بيروت، ج١، ص١٥١.

وكان الملك الناصر يكتب إليه «أعز الله أنصار المقام الشريف العالي السلطاني الملكي المؤيدي، ونائب الشام وهو أكبر النواب يكتب إليه ويقبل الأرض» و «هذا اللفظ يختص بالسلطان الأعظم وكان الناصر في رسم المكاتب إليه يكتب ذلك» (٩٨)، كما أنه يخاطبه بلفظ (أخي)، وأما غير نائب الشام فيكتب إليه يقبل الأرض وينهي» (٩٩).

وبقيّ هذا الرسم في المكاتبة حتى عهد الملك الأفضل، فكان رسم المكاتبة إليه «أعز الله تعالى أنصار المقام الشريف العالي السلطاني الملكي الأفضلي الناصري ثم الدعاء، وبعد: أصدرنا إلى المقام الشريف والعلاّمة (أخوه) وتعريفه (صاحب حماة) وبقي هذا رسم المكاتبة إلى حماة حتى عزل عنها الأفضل (١٠٠).

- <u>رسائل التقليد</u> :

ومن رسائل التقليد، تقليد الملك المؤيد بمملكة حماة، والمعرّة وبارين تمليكاً، والتقليد بنصه: «فمنه بعد البسملة الحمد لله الذي عقد الملك الشريف بعماده، وأورث الجد السعيد سعادة أجداده، وبلغ ولينا من تباهى ببابه ملوك بني الأيام غاية مراده، فأصبح جامع شملها، ورافع لواء فضلها، وناشر جناح عدلها، ومنه يحمد الله على أن صان بنا الملك وحماة، وكفّ بكف بأسنا المتطاول على استباحة حماة، ومنه ونشهد أن لا إله إلاّ اللّه وأن محمداً رسول الله، أما بعد، فإنّ أولى من عقد له لواء الولاء وتشرّفت باسمه أسرة الملوك وذوي المنابر، وتصرّفت أحكامه في ما يشاء من نواة وأوامر، وتجلى في سماء السلطنة شمسه فقام في دستها مقام من سلف، وأخلف في أيامنا ازاهرة من درج من أسلامه إذ هو ببقائنا إن شاء الله خير خلف، من ورث السلطنة لا عن كلاله، واستحقها بالأصالة والأنالة والجلالة، وأشرقت الأيام بغرّة وجهه

---

(٩٨) العسقلاني: الدرر الكامنة، ج ١، ص٣٩٧.

(٩٩) الشوكاني: البدر الطالع، ج١، ص١٥٢.

(١٠٠) القلقشندي، ج٧، ص١٤٩.

المنير، وتشرّفت به صدور المحافل وتشوق إليه بطن السديد، ومن أصبح لسماء المملكة الحموية وهو زين أملاكها، ومطلع أفلاكها وهو المقام العالي العمادي ابن الملك الأفضل نور الدين علي ابن السلطان الملك المظفّر تقي الدين ولد السلطان الملك المنصور ولد السلطان الملك المظفّر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، وهو الذي ما برحت عيون مملكته إليه متشوفه ولسان الحال يتلو ضمن الغيب قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء إلى أن أظهر الله ما في غيبه المكنون، وأنجز له في أيامنا الوعود وصدقت الظنون، وشيّد الله منه الملك بأرفع عماد، ووصل ملكه بملك أسلافه وسيبقى في عقبه إن شاء الله إلى يوم التناد، فلذلك رسم بالأمر الشريف العالي المولوي السلطاني الملكي الناصري الباهري لا زالت الممالك مغمورة من عطائه، والملوك تسري في ظل كنفه تحت مسبول غطائه، أن يستقر في يد المقام العمادي المشار إليه جميع المملكة الحموية وبلادها وأعمالها وما هو منسوب إليها ومباشرها التي عرفها قلمه وقسمه، ومنابرها التي يذكر فيها اسم الله تعالى واسمه، وكثيرها وقليلها، وحقيرها وجليلها، على عادة الشهيد الملك المظفّر تقي الدين محمود إلى حين وفاته، ومنه وقلدناه ذلك تقليداً، يضمن للنعمة تخليداً، وللسعادة تجديداً، ومنه في آخره، والله تعالى يؤمل بالنصر مغناه ويجمل ببقائه صورة دهر هو معناه، والاعتماد على الخط الشريف أعلاه، وكتب في الخامس والعشرين من ربيع الآخر سنة اثنتي عشرة وسبعمائة حسب المرسوم الشريف. والحمد لله وحده وصلواته على محمد وآله وصحبه وسلم»(١٠١).

ويشير ابن فضل الله في حديثه عن التقاليد إلى أنّ «التقاليد لا تكون إلا لكفلاء الملك، كأكابر النوّاب، والوزراء ومن كان في مقامهما ، وقد يكون لأكابر قضاة القضاة، وأما عامة القضاة فالواجب أنه لا يُسمّى ما يكتب لهم إلا تفاويض» (١٠٢).

أما قطع الورق الذي يكتب فيه التقليد، فإن نائب حماة يكتب له تقليد في

---

(١٠١) المختصر، ج٤، ص٦٨.

(١٠٢) العمري، ابن فضل الله أحمد بن يحيى (ت٧٤٧هـ): التعريف بالمصطلح الشريف، دراسة وتحقيق سمير الدروبي، منشورات عمادة البحث العلمي، جامعة مؤتة، ١٩٩٢، ط١، ص٢١٢.

ورق قطع الثلثين، أما أرباب الوظائف الدينية فإن القضاة الأربعة يكتب لهم في قطع الثلث، وهناك من يكتب له في قطع العادة، مثل قضاة العسكر، ومفتي دار العدل([103]).

وأقسام التقليد أربعة: أو لها الخطبة، يقول ابن فضل الله في الخطبة «وأمّا التقاليد فلا يستفتح إلا بالخطب بالحمد لله وليس إلا» ويقال في عنوانها «تقليد شريف لكفلان بكذا»([104])، وتقليد الملك المؤيد الذي أعطاه أيّاه الناصر سنة ٧١٢هـ بمملكة حماة، والمعرّة وبارين تمليكاً، أورده أبو الفداء في المختصر، إلاّ أنه اختصر منه أشياء، إذ يقول: «ورسم أن يكتب لي التقليد بمملكة حماة والمعرة وبارين تمليكاً ولولا خوف التطويل لأوردنا التقليد عن آخره لكنّا نذكر منه فصولاً يحصل بها الغرض طلباً للاختصار»([105]).

وأول ما بدأ به تقليد الملك المؤيد، هو «البسملة والتحميد، وهذا العنصر الأول من أقسام التقليد: «فمنه بعد البسملة، الحمد لله الذي عضد الملك الشريف بعماده، وأورث الجد السعيد سعادة أجداده، وبلّغ وليّنا من تباهى ببابه ملوك بني الأيام غاية مراده ومنه، فأصبح جامع شملها، ورافع لواء فضلها، وناشر جناح عدلها([106])، ومنه: «يحمد الله على أنه صان بنا الملك وحماه، وكف بكف بأسنا المتطاول على استباق حماة، ومنه، ونشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله»([107]).

أمّا الأقسام الثلاثة الأخرى في التقليد فهي، ذكر مواقع الإنعام للمُقلَّد ورتبته، وما يتبع ذلك، من أوصاف يضفيها التقليد على المقلَّد، وهو الثالث من التقليد، والرابع يكون في الوصايا التي يقدّمها التقليد للمُقلَّد، وقد أشار ابن فضل الله إلى

(١٠٣) القلقشندي، ج١٢، ص١٩٧.
(١٠٤) ابن فضل الله : التعريف، ص١١٦.
(١٠٥) أبو الفداء : المختصر، ج٤، ص٦٨.
(١٠٦) أبو الفداء : المختصر، ج٤، ص٦٨.
(١٠٧) المصدر نفسه، ج٤، ص٦٨.

هذا التقسيم بقوله : «وأمّا التقاليد فلا تستفتح إلا بالخطب ... ثم يذكر ما يسنح من حال الولاية وحال المولى، وأنه لم يرَ أحقّ من ذلك المولىّ، ويسمى ثم، يقال ما يفهم أنه هو المقدم الوصف، أو المتقدم إليه بالإشارة ثم يقال، رسم بالأمر الشريف العالي المولوي، السلطاني، الملكي، الفلاني ويدعى له أن يُقلّد كذا أو أن يفوّض إليه كذا، ثم يوصى بما يناسب تلك الولاية مما لا بُدّ منه، ثم يختم بالدعاء»(١٠٨).

وفي تقليد الملك المؤيد قد لا تكون الأقسام ظاهرة بوضوح لاختصاره من هذا التقليد الشيء الكثير، ومنه بعد الخطبة وهو القسم الذي يتحدث عن أهمية رتبته في حماة، يقول التقليد «أما بعد فإن من أولى من عقد له لواء الولاء، ونشرفت باسمه أسرة الملوك، وذوي المنابر، وتصرّفت أحكامه في ما يشاء من نواهٍ وأوامر، وتجلى في سماء السلطنة شمسه، فقام في دستها مقام من سلف، وأخلف في أيامنا من درج من أسلافه، إذ هو ببقائنا إن شاء الله خير خلفٍ»(١٠٩).

ومن الأوصاف والصفات التي أضفاها عليه التقليد: «ومن أصبح لسماء المملكة الحمويّة وهو زين أملاكها، ومطلع أفلاكها، وهو المقام العالي العمادي... وهو الذي ما برحت عيون مملكته إليه متشوقة، ولسان الحال يتلو ضمن الغيب، قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء إلى أن أظهر الله ما في غيبه المكنون، وأنجز له في أيامنا الوعود وصدق الظنون»، ثم يذكر التقليد في آخره، الغاية منه، ويذكر اسم النيابة التي صدر من أجلها التقليد. «فذلك رُسم بالأمر الشريف العالي المولوي السلطاني الملكي الناصر الباهري، لا زالت المماليك مغمورة من عطائه، والملوك تسري من ظل كنفه تحت مسيول غذائه، أن يستقر في يد المقام العالي العمادي المشار إليه جميع المملكة الحمويّة وبلادها وأعمالها، وما هو منسوب إليها ومباشرتها التي يعرضها قلمه وقسمه ، ومنابرها التي يذكر فيها اسم الله تعالى واسمه، ومنه في آخره والله تعالى يؤهل بالنصر معناه، ويجمّل ببقائه صورة دهرٍ هو معناه، والاعتماد على الخط

---

(١٠٨) ابن فضل الله : التعريف، ص١١٦.

(١٠٩) ابو الفداء : المختصر، ج٤، ص٦٨.

الشريف أعلاه»(١١٠).

- **العهود** :

هي نوع من الرسائل الديوانية يعطي لولاة العهود أكانوا ولاة العهود للسلطنة في مصر، أم ولاة العهود في النيابات. والرسالة التي بين أيدينا هي عهد للملك الأفضل بحكم حماة، بعد والده الملك المؤيد، وقد أشار القلقشندي إلى رسائل العهود في حماة، عندما ذكر أنّ العهد يكتب للحكّام من الأيوبيين في حماة وذلك لأسباب تجعلهم يستحقون مثل هذه العهود، حيث يترتب على هذا العهد «أن سلطانها كان يستقل بإعطاء الإمرة والاقطاعات وتولية القضاء والوزراء وكتّاب السرّ وكل الوظائف، وتكتب المناشير والتواقيع من جهته»(١١١)، ويؤكد على هذه المزية التي تميزت بها حماة «قلت: وكان للمملكة بذلك زيادة أبهة وجمال لكون صاحبها تحت يده من هو متّصف بالسلطنة يتصرف فيه بالولاية والعزل»(١١٢).

وقبل أن نذكر عهد الملك الأفضل بولاية حماة، لا بُدّ أن نذكر قطع الورق، للعهد، وقلمه، وكيفية وضعه في الورق، حيث أورد القلقشندي كل ذلك في صبح الأعشى. ويكتب العهد في قطع ورق البغدادي، ولكن قطع دون القطع الكامل للولايات لأنّه في عهد السلطنة يكتب في البغدادي الكامل، والقلم الذي يكتب به العهد لولي عهد السلطنة بالطومار، أمّا في الولايات فهو دون ذلك(١١٣). أمّا كيفية كتابة العهد في الورقة فقد أشار إليها القلقشندي بالتفصيل في صبح الأعشى(١١٤).

---

(١١٠) أبو الفداء : المختصر، ج٤، ص٦٨.
(١١١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج١٠، ص١٨٦.
(١١٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٠، ص١٨٦.
(١١٣) المصدر نفسه، ج١٠، ص١٩٢، ١٩٣.
(١١٤) المصدر نفسه، ج١٠، ص١٩٢، ١٩٣.

وعهد الملك الأفضل كتبه ابن فضل الله العمري، والذي ورد في الجزء العاشر من صبح الأعشى بنصه: «الحمد لله أقرَّ بنا في أهلة أهله، وتدارك مصاب ملك لولا ولده الأفضل لم يكن له شبيه في فضله، ووهب بنا بيت السلطنة من أبقى البقايا ما يلحق به كل فرع بأصله، ويظهر به رونق السيف في نصله.

نحمده على ما أفاض بمواهبنا من النعم الغزار، وأدخل في طاعتنا الشريفة من ملوك الأقطار، وزاد عطايانا فأضحت وهي ممالك وأقاليم وأمصار، ونشهد أن لا إله إلاّ اللّه وحده لا شريك له شهادة أفلح من مات من ملوك الإسلام عليها، وحرض بها في الجهاد على الشهادة حتى وصل إليها، ومدّ يده لمبايعتنا على إعلائها فسابقت الثريا ببسط يديها، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي شرّف من تسمّى باسمه أو متّ بالقربى إلى نسبه، وصرّف في الأرض من تسمك من رعاية الأمة بسببه، وأكرم به كريم كل قوم وجعل كلمة الفخار كلمة باقية في عقبه، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ما ناح الحمام لحزنه ثم غنّى من طربه، وسلّم تسلمياً كثيراً.

أما بعد، فإننا -ولله الحمد- ممّن نحفظ باحساننا كل وريعة، ونتقبّل لمن أقبل من الملوك على سؤال صدقاتنا الشريفة كل ذريعة، ونتكفل لمن مات على ولائنا بما لو رآه في ولده لسرّه ما جرى، وعلم أنّ هذا الذي كان يتمنّى أن يعيش حتى يُبْصر هذا اليوم ويرى، وكان السلطان الملك المؤيد عماد الدين -قدس الله روحه- هو بقيّة بيته الشريف، وآخر من حلّ من ملوكهم في ذروةعزه المنيف ولم يزل في طاعتنا الشريفة على ما كان من الحُسنى عليه، ومن المحاسن التي لقي الله بها ونورُ إيمانه يسعى بين يديه؛ فوهبنا له من المملكة الحموية المحروسة ما كان قد طال عليه سالف الأمد، ورسمنا له بها عطية باقية للوالد والولد، فلمّا قارب انقضاء أجله، وأشرف على ما قدّمه إلى الله وإلينا من صالح عمله، لم يشغله ما به من مطالعة أبوابنا الشريفة والتذكار بولده، وتقاضي صدقاتنا العميمة بما كان ينتظره قمره المنير لفرقده، وورد من جهة ولده المقام الشريف، العالي، الولديّ، السلطاني، الملكي، الأفضلي، الناصلي، -أعزّ الله أنصاره- ما أزعج القلوب بمصابه في أبيه، وأجرى العيون على من لا نقعُ له شبيه، فوجدنا من الحزن عليه ما أبكى كل سيفٍ دماً، وأنّ كل رمح يقرع سنّه ندما،

وتأسّفنا على ملك كاد يكون من الملائك، وأخٍ كريم أو أعزّ من ذلك، وسلطانٍ عظيم طالما ظهر شنب بوارقه في ثغور الممالك، وقمنا من الحزن في مشاركة أهله بالمندوب، ثم قلنا: لكم في ولده العوض ولا ينكر لكم الصبر يا آل أيوب.

فاقتضت مراسمنا المطاعة أن نرقّيه إلى مقامنا العالي، ونعقد له من ألوية الملك ما تهتز به أطراف العوالي، ونركبه من شعار السلطنة بما تتجمل به مواكبه، وتمتد به عصائبه، وتميس من العجب وتمتد رقابها بالرقبة السلطانية جنائبه، تنزيهاً لخواطركم الكريمة علينا عن قول ليت، وتنويهاً بقدر بيتكم الذي رفع لكم إسماعيل به قواعد البيت: لما نعلمه من المقام العالي الملكي الأفضلي الناصري -أمتع الله ببقائه- من المناقب التي استحق بها أن يكون له عليكم الملك، والعزائم التي قلد بها من الممالك ما تجول به الجياد وتجري به الفلك، مع ماله من الكرم الذي هو أوفى من العهاد بعهد، والفضل الذي اتصل به ميراث الأضلية عن جدّه، والجود الذي جرى البحر معه فاحمرّت من الخجل صفحة خدّه، والوصف الذي لم يرض بالجوزاء واسطة لعقده، والعدل الذي أشبه فيه أباه فما ظلم، والعلم الذي ما خلا به بابه من طلب: إمّا لهدًى وإمّا لكرم، ولم يخرج من كفالة والده إلاّ إلى كفالتنا التي أظلّته بسحبها، وحلّت سماء مملكته بشهبها، وخاطبناه كما كنّا نخاطب والده -رحمه الله- بالمقام الشريف، وأجرينا في ألقابه مجرى الود زيادة له في التشريف، وصرفنا أمره في كل ما كان للملوك أهله فيه تصريف، وسنرشده إلى أوضح طريقة، ويقوم مقام أبيه أو ليس «الناصر» هو أبو الأفضل حقيقة، ورسمنا بطلبه إلى [ما] بين أيدينا الشريفة لنجدّد له في نظرنا الشريف ما يتضاعف به سعوده، ويزداد صعوده، ويتماثل في هذا البيت الشاهنشاهي أبناؤه وآباؤه وجدوده: لتتعمل معه صدقاتنا الشريفة ما هو به جدير، وترفعه إلى أعزّ مكان من صهوة المنبر والسرير، وتكاثر به كل سلطان وما هو إلا جحفل يسير، لتشيد به أركان هذا البيت الكريم، وتحيا عظامه وهي في اللحود عظم رميم، وتعرف الناس أن عنايتنا الشريفة بهم تزيد على ما عهدوه لجدّهم القديم من سمينا الملك الناصر القديم، فخرجت المراسيم الشريفة، العالية، المولوية، السلطانية، الملكية، الناصرية: لا زالت الملكو تتقلد مننها في أعناقها، ولا برحت الممالك من بعض

مواهبها وإطلاقها، أن يقلد هذا السلطان الملك الأفضل -أدام الله نصره- من المملكة الحموية وبلادها، وأمرائها وأجنادها، وعربها وتركمانها وأكرادها، وقضاياها وقضاتها، ورعاياها ورعاتها، وأهل حواضرها وبواديها، وعمرانها وبراريها، جميع ما كان والده -رحمه الله- يتقلده، وبسيفه وقلمه بجريه ويجرّده: من كلّ قليل وكثير، وجليل وحقير، وفي كل مأمور به وأمير، وينظر فيها وفي أهلها ما يعلم أن له ولهم فيه صلاحاً، ويقيم من هيبة سلطانه ما يغنيه أن يعمل أسنّة ويجرّد صفاحاً.

وليحكم فيها وفيمن هو فيها بعدله، ويجمع قلوب أهلها على ولائه كما كانوا عليه لأبيه من قبله، وليكن هو وجنوده وعساكره أقرب في النهوض إلى مصالح الإسلام من رجع نفسه، وأمضى في العزائم مما يشتبه بها من سيفه وقبسه.

وأمّا بقيّة ما يُمْلى من الوصايا، أو يدل عليه من كرم السجايا، فهو -بحمد الله تعالى- غريزة في طباعه، ممتزج به من زمان رضاعه؛ وإنما نذكِّره ببعض ما به يتبرك، ونحضه على اتباع أبيه فإنها الغاية التي لا تدرك؛ والشرع الشريف أهمّ ما يشغل به جميع أوقاته، وتقوى الله فما ينتصر الملك إلا بتقاته، والفكرة في مصالح البلاد والرعايا فإنها مادّة نفقاته، واستكثار الجنود فإنهم حصنه المنيع في ملاقاته، ومبادرة كل مهم في أول ميقاته، وولايات الأعمال لا يعتمد فيها إلا على ثقافته، وإقامة الحدود حتى لا ينصت في تركها إلى رقي رقاته، ورعاية من له على سلفه خدمة سابقة، واستجلاب الأدعية الصالحة لنا وله فإنها للسهام مسابقة؛ وليمض في الأمور عزمه فإنه مذرب، ويبسط العدل والإحسان فإنه بهما إلينا يتقرّب وليأخذ بقلوب الرعايا فإنها تتقلب، وليكرم وفادة الوفود ليقف بهم -لنجاح مقاصدهم- على باب صحيح مجرّب، وليجتهد في الجهاد، ويتيقظ والسيف مكتحل الجفن بالرقاد، ويهتم فإنّ الهمم العالية تقوم بها عوالي الصعاد، ويقوّم البريد فإنّ في تقويمه بقاء الملك وعمارة البلاد، وليقف عند مراسمنا الشريفة لتهديه إلى سبيل الرشاد، ويحسن سلوكه ليطرب بذكره كل أحد ويترنّم كل حاد؛ وغير هذا من كلّ ما عهدناه والده -سقى الله عهده- له سالكاً، ولأزمة أموره الجميلة مالكاً، مما لا يحتاج -مما نعرفه من سيرته المثلى- إلى شرحه، ولا يدل نهاره الساطع على صباحة صبحه،

وليبشر بما جعل له من فضلنا العميم، ويتمسك بوعدنا الشريف أن هذه المملكة له ولأبنائه وأبناء أبنائه ما وجد كفءٌ من نسبهم الصميم، والله تعالى يمدك -أيها الملك الأفضل- بأفضل مزيده، ويحفظ بك ما أبقاه لك أبوك «المؤيد» من تأييد؛ والاعتماد على الخط الشريف أعلاه، إن شاء الله تعالى»(١١٥).

وأوله خطبة العهد، وكلما كانت الخطبة مطوّلة، كلما دلّ هذا على رتبة المخاطب، ويبدأ العهد بذكر اسم من تولّى العهد وهو هنا الأفضل: «هذا عهد شريف عذبت موارده، وحسنّت بحسن النيّة فيه مقاصده، وعاد على البرية باليمن عائدة، من السلطان الأعظم ناصر الدنيا والدين، للمقام الشريف العالي السلطاني الملكي الأفضل محمد»(١١٦).

وتأتي خطبة العهد التي تشمل، الحمد لله والشكر لله: «الحمد لله الذي أقرّ بنا المُلك في أهلّة أهله، وتدارك مصاب مَلِكٌ لولا ولده الأفضل لم يكن له شبيه في فضله، ووهب بنا بيت السلطنة، مَنْ أبقى البقايا ما يلحق به كل فرع بأصله ويظهر به رونق السيف في نصله»(١١٧).

ويذكر العهد مقدار هذه الرتبة ومكانتها لدى السلطان «فإننا ولله الحمد ممن نحفظ بإحساننا كل وديعة، ونتقبّل لمن أقبل من الملوك على سؤال صدقاتنا الشريفة كل ذريعة، ونتكفل لمن مات على ولائنا بما لو رآه في ولده لسرّه ما جرى، وعلم أنّ هذا الذي كان يتمنّى أن يعيش حتى يبصر هذا اليوم ويرى»(١١٨). ثم يذكر العهد الصفات التي يتّصف بها الأفضل، وهي في الغالب الأمانة، والصدق، والشجاعة، والكرم وغيرها، «ومنه، لما نعلمه من المناقب التي استحق بها أن يكون له عليكم الملك والعزائم التي قُلّد بها من الممالك، ما تجولُ به الجياد وتجري بن الفُلك مع ما له من

(١١٥) القلقشندي: صبح الأعشى، ج.١٠، ص١٨٧-١٩١.
(١١٦) المصدر نفسه، ج.١٠، ص١٩٢.
(١١٧) المصدر نفسه، ج.١٠، ص١٩٢.
(١١٨) المصدر نفسه، ج.١٠، ص١٩٢.

الكرم الذي، هو أوفى من العهاد بعهده، والفضل الذي اتصل به ميراثُ الأفضلية عن جده، والجود الذي جرى البحر معه فاحمرّت من الخجل صفحة خدّه»([119]).

ويأتي في آخر العهد وصايا وتوجيهات لهذا الحاكم الجديد، والتي من شأنها أن تضمن له الإستقرار والأمان، ومن هذه الوصايا «وأما بقية ما يملي من الوصايا أو يدُلُّ عليه من كرم السجايا فهو بحمد الله تعالى -عزيزة في طباعه، ممتزج من زمان رضاعه، وإنما نذكره ببعض ما به يُترك، ونحضه على إتّباع أبيه فإنها الغاية التي لا تدرك، والشرع الشريف أهم ما يشغل به جميع أوقاته، وتقوى الله فما ينتصر الملكُ إلا بتقاته، والفكرة في مصالح البلاد والرعايا فإنها مادة نفقاته، واستكثار الجنود فإنهم حصنه المنيع في ملاقاته»([120]).

ويختم العهد بالدعاء «والله تعالى يمدّك أيها الملك الأفضل بأفضل مزيده، ويحفظ بك ما أبقاه لك أبوك (المؤيد) من تأييده والاعتماد على الخط الشريف أعلاه»([121]).

- <u>المراسيم</u> :

وذكر ابن فضل اللّه في التعريف، «أنها تكون في صغائر الأمور التي لا تتعلق بالولاية، وإذا استُفْتِحَتْ المراسيم بالبسملة، دلّ هذا على أهميتها، وما لا يستفتح بالبسمة فهو أقل أهمية، وتكتب المراسيم التي من هذا النوع في ورق قطع الثلث، وقلم التوقيعات» ([122]).

---

(١١٩) القلقشندي : صبح الأعشى، ج١٠، ص١٨٨-١٨٩.
(١٢٠) المصدر نفسه، ج١٠، ص١٩٠.
(١٢١) المصدر نفسه، ج١٠، ص١٩٠.
(١٢٢) ابن فضل الله : التعريف، ص١١٣، ١١٩.
(١٢٣) أبو الفداء : المختصر، ج٤، ص٧٢. المعرّة : وتسمى معرّة النعمان نسبة الى النعمان بن بشير، وهي

والمرسوم الذي بين أيدينا من الملك الناصر محمد إلى الملك المؤيد، وذلك عام ٧١٣هـ عندما أمر السلطان الناصر بإخراج المعرّة عن حماة وذلك بطلب من الملك المؤيد الذي ألحّ على السلطان في ذلك، حتى يستطيع التخلّص من تدخّل بعض أمراء المماليك، الذين كانوا في حماة وانتقلوا إلى حلب؛ فبقيت إقطاعاتهم في حماة، وأخذوا يستغلّون وجود هذه الإقطاعات، لتقديم الشكاوى ضدّه لدى السلطان، فكان لا بُدّ من أجل التخلص من نفوذهم من ذلك، كما يشير في المختصر «فلم أجد لذلك ما يحسمه إلا بتعيين المعرّة وبلادها للأمراء المذكورين وإضافتها إلى حلب»([١٢٣]).

والمرسوم بنصه وهو ليس كاملاً اختصر منه المؤيد أجزاءً: «فلذلك رسم بالأمر الشريف العالي المولوي، الملكي، الناصري، أن يستقر بيده حماة وبارين بجميع حدودها وما هو منسوب إليها من بلاد وضياع وقرايا وجهات وأموال ومعاملات وغير ذلك من كل ما ينسب إلى هذين الإقليمين ويدخل في حكمهما، يتصرف في الجميع كيف شاء من تولية وإقطاع إقطاعات الأمراء والجند وغيرهم من المستخدمين من أرباب الوظائف وترتيب القضاة والخطباء وغيرهما، ويكتب بذلك مناشير وتواقيع من جهته ويجري ذلك على عادة الملك المظفر تقي الدين محمود صاحب حماة، ويقيم على هاتين الجهتين خمسمائة فارس بالعدّة الكاملة من غير نقص، ويبطل حكم حكم ما عليهما من المناشير والتواقيع الشريفة والمسامحات والمحسوب، وكل ما هو مرتب عليهما للأمراء والجند والعرب والتركمان، وغيرهم بحكم الإنعام بهما على المشار رليه على قاعدة الملك المظفر صاحب حماة، وتعويض الجميع عن ذلك بالمعرّة، وإفرادها عن حماة وبارين، فليستقر جميع ما ذكر بيده العالية استقرار الدرر في أسلاكها، والدراري في أفلاكها، يتصرف في أحوالها بين العالمين بنهيه وأمره، ويجري أموالها بين المستوجبين بإنعامه ويده، ولا يمضي فيها أمر بغير منشوره الكريم، ولا يجري معلوم ولا رسم إلا بمرسومه الجاري على سنن سلفه القديم، وليفعل في ذلك بجميع ما أراد، ويتصرف على ما يختار فيما تحت حكمه الكريم وبحكمه من مصالح العباد

(١٢٣) أبو الفداء : المختصر، ج٤، ص٧٢. المعرّة : وتسمى معرّة النعمان نسبة إلى النعمان بن بشير، وهي مدينة قديمة مشهورة، تشتهر بالزيتون، والتين، (ياقوت: معجم البلدان، ج٥، ص١٥٦).

والبلاد، والله تعالى يعلي بمفاخر عماده، ويجعل التأييد والنصر قرين إصداره وإيراده، والخط الشريف حجة بمضمونه إن شاء الله تعالى، كتب في تاسع عشر المحرم سنة ثلاث عشرة وسبعمائة»(١٢٤).

ويشمل المرسوم القرار السلطاني بإخراج المعرّة من حكم المؤيد، ثم بيان اختصاصات المؤيد وتأكيدها في حماة، ومن هذا المرسوم: «فلذلك رُسم بالأمر الشريف العالي المولوي السلطاني الملكي الناصري أن يستقر بيده حماة وبارين بجميع حدودها أمّا اختصاصاته فيها فهي : يتصرف في الجميع كيف شاء من توليةٍ وإقطاع إقطاعات والأمراء والجند وغيرهم من المستخدمين من أرباب الوظائف أو ترتيب القضاة والخطباء وغيرهما ...» (١٢٥).

- **رسائل التعزية** :

ومنها رسالة تعزية للأفضل بموت الملك المؤيد كتبها الصفدي من مصر، وهي: «جعله الله خير خلف، وهذا البيت الأيوبي بما ورثه من المجد المؤثل والمشرّف، وسقى صوب الرحمة أصله الذي فرّع دولته الطاهرة وسلف تقبيل من صدع الهنا جبر قلبه، ومسح كف السرور غمام دمعه الذي يذهب بهُدبه، وينهي بعد الدعاء الذي أجيب بالقبول للخلاصة رفعه، والولاء الذي لم يضق بالعبودية ربعه ولا ذرعه، والثناء الذي أخجل تغريد الحمام في الخمايل سجعه، أنّ مثاله الكريم ورد على يد فلان يتضمن ما قدّره الله تعالى من وفاة المقام الشريف العمادي، والد مولانا قدّس اللّه روحه الكريمه، وسقى تربةً ضمته صوبُ كلُّ ديمةٍ، فوقف الملوك على الخير الذي روّع العباد، وغدا كل قلب كأنما يجر له على شوك القتاد، ونظر إلى النجوم كأنها خرائد سافرات في حداد، فأرسل المملوك دمعه الصبّ على الحبيب الذّاهب، وأذ من قسمة الأحزان بين الأنام نصيبه الواجب، وكيف لا يعمُ الوجودَ هذا المصابُ وتبين الدموع بسحّها سّح

(١٢٤) أبو الفداء : المختصر، ج٤، ص٧٢.

(١٢٥) المصدر نفسه، ج٤، ص٧٢.

السحاب، وقد كورّت الشمس ولا نقول انقض الشهاب، وغيض البحر ولا نقول انقشع الرباب ووهى عماد الملك ولا نقول انضمت الأطناب، وفجع بمن أثلت أياديه الأعناق قبل أن حمل على الرقاب.

ردت صنايعه عليه حيوتـــــه فكأنه من نشرها منشــــــور

وللوقت طالع المملوك العلوم الشريفة بذلك وورد الجواب يتضمن شمول مولانا بالصدقات الشريفة، وإقامته مقام والده قدّس الله روحه، فهنأ الله مولانا بهذه البشرى التي صدّقت الرجاء، والمسرّة التي رقمت سطورها على كافور النهار بعنبر الدجا، وما أحق هذه البشرى أن تهتزّ لها أعطاف المنابر، وأن تنطق بحمدها ألسنة الأقلام بين أفواه المحابر، وأن تعد نعمها أنامل الرايات إذا خفقت، وأن تتورد صفحات السيوف من دم الأعادي إذا امتشقت، والله يجمّل الأيام بدولته الزاهرة، ويجعل الأقدار على مراده ومرامه متظافرة، بمنّه وكرمه، إن شاء الله تعالى»(١١٦).

وقد شملت هذه الرسالة في أولها التعزية، ثم بعد ذلك التهنئة للأفضل بملك حماة، ولعلّ هذا يوضّح لنا الطابع الرسمي، لمثل هذه الرسائل والتي كان هدفها، تبليغ الأفضل بملك حماة، بعد وفاة والده، على الرغم من أن الوقت ليس مناسباً للتهنئة، وبدأ الصفدي رسالته بالدعاء للمؤيد بالرحمة «جعله الله خير خلف، وهذا البيت الأيّوبي بما ورثه من المجد المؤثل والمشرِق، وسقى صوب الرحمة أصله الذي فرّع دولته الطاهرة»(١٢٧). وتصوّر لنا هذا الرسالة، المصاب الأليم الذي عمّ بموت المؤيد. «ورد على يد فلان يتضمن ما قدّره الله تعالى من وفاة المقام الشريف العمادي قدّس الله روحه الكريمة وسقى تربة ضمته صوب كل ديمة فوقف المملوك على الخبر الذي روّع العباد وغدا كل قلب كأنما يُجرّ له على شوك القتاد»(١٢٨).

---

(١١٦) المصدر نفسه، ج٢، ص٤٤٦.

(١٢٧) المصدر نفسه، ج٢، ص٤٤٦.

(١٢٨) المصدر نفسه، ج٢، ص٤٤٦.

ويخلص الصفدي في رسالته من التعزية إلى التهنئة «وورد الجواب الشريف يتضمّن شمول مولانا بالصدقات الشريفة، وإقامته مقام والده قدّس الله روحه، فهنأ الله مولانا بهذه البشرى، التي صدقت الرجا والمسرّة التي رقمت سطورها على كافور النهار، بعنبر الدُّجا وما أحقّ هذه البشرى أن تهتزّ لها أعطاف المنابر»(١٢٩).

- **البشارات** :

ومنها رسالة ببشارة وفاء النيل في مصر، كتبها الصفدي للملك الأفضل، بنصها: «أعزّ الله أنصار المقام الشريف، وجعل رسل الهدى تتوارد على مقامه تترى، وأبهجه بكل ثناءٍ من الخصب، يتحرف له البرق حسداً في قلب السحاب ويتحدى، وسرّه بكل خبر، يتفرّق به مَحَلّ، المحْل ويتفرّى، ونعّمه بكل وارد يقص عليه حديثاً، جعل البرّ بحراً وملأ البحر برّاً، أصدرناها إلى مقامه الكريم تجد رعي عهود، وتقص سلاماً بتردد إليه، تردد انحدار البحر في انحداره وصعوده، ويبث ثناءً لا يزال بين خفق ألويته ويقوده، وتبدي إلى العلم الكريم إنه ورد ركابنا الشريف إلى محل ملكه، ومجرّة فلكه، ومجرى فلكه، فوجدنا النيل المبارك قد جعل الأرض لجة، وأرخى نقاب تياره على وجه كل محجة، وارتفع إلى أن جعل على هضبات السحاب مقره، وزاد إلى أن كاد يمازج نهر المجرّة، وبعث سرايا مقدّماته فتحصنت في كل فج وفجوة، وانعطف حول أزرار الأهرام كالعروة، وشرب دم المحل فهو من تحت جناب القلوع كالقهوة، واتصف بصفات الأولياء، فبينا هو في أقصى الجنوب إذا هو في أقصى الشمال، والأرض للرجل الصالح خطوة، وأصبح في طلب تحليقه مجداً، وأعدّ للجد من تياره سابغة وغدا عَلَنْدا، ومرق كالسهم في خليجه من قسي قناطره، وخنق المحْل لعبداته في محاجره، وبشر أن ألاف الأموال أضعاف ما فيه من الأمواج، وخبرّت رقاعه أنه لم يبق فيها مجتالٌ ولا محتاج فاكمل الستة عشر ذراعاً»(١٣٠).

---

(١٢٩) الصفدي : أعيان العصر، ج٢، ص٤٤٦.

(١٣٠) المصدر نفسه، ج٢، ص٤٤٧.

وتعدّ من الرسائل الوصفية، وقد بدأت بالدعاء: «أعزّ الله أنصار المقام الشريف وجعل رسل الهدى تتوارد على مقامه تترى، وأبهجه بكل ثناء من الخصب يتحرّق له البرق حسداً». ويأتي بعد الدعاء الفرح والبهجة بوفاء النيل ومنه «وتبدّى إلى العلم الكريم أنه ورد ركابنا الشريف إلى محل ملكه، ومجرة فلكه، فوجدنا النيل المبارك قد جعل الأرض لُجّة وأرخى نقاب تياره على وجه كل محجة، وارتفع إلى أن جعل على هضبات السحاب مقرّه، وزاد إلى أن كاد يمازج نهر المجرّة»(١٣١).

وقد أورد القلقشندي وابن فضل الله بعض الصدور والأدعية التي يمكن أن تستخدم في المخاطبات لحاكم حماة (١٣٢).

وقد وجدت خطبة أوردها القلقشندي لعلاء الدين بن غانم الشاعر الحموي قالها باسم مظفّر الدين غانم، وقد صرع لغلفة وأدعى بها للملك المؤيد صاحب حماة، وهي «الحمد الله الذي ظفّر بإصابة الواجب من الطير، ووفرّ من السعادة حظ من أصاب ووافق الصواب، فيمن انتمى إذ تشرّف به وتميّز على الغير، وخَفَر من أسراه إلى من يُحمد لديه صُبحُ سُراه إذ يصبحه من بشره وبرّه كل خير»(١٣٣).

ولم أجد من الخطب غير هذه الخطبة على الرغم من وجود الكثير من الأدباء والعلماء.

(١٣١) الصفدي: أعيان العصر، ج٢، ص٤٤٧.

(١٣٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج١، ص٢٣٥؛ ابن فضل الله: التعريف، ص٩٤.

(١٣٣) القلقشندي: صبح الأعشى، شرح وتعليق محمد حسين شمس الدين، ط١، ج١، ص١٩٨٧، ص٣٧٥.

- **النثر التاليفي :**

لا نبالغ إذا قلنا أن أكثر ظاهرة في العصر المملوكي انتشرت هي كثرة المؤلفات في كافة أصناف المعرفة من تاريخ وجغرافية، وديانات، وفلسفة، وطب وغير ذلك، حتى عرف هذا العصر بعصر الموسوعات التي جمعت فأوعت وساهمت في إحياء التراث العربي، وجعلت صفة الثقافة العامة في ذلك العصر موسوعية أيضا. ومن هذه الموسوعات، نهاية الأرب للنويري، ومسالك الأبصار للعمري وغيرها الكثير. وقد صارت هذه الثقافة الواسعة مجال التفاخر في ذلك الوقت، وكان اقتناء الكتب أيضاً يعني الكثير لمن عاصر ذلك الزمان، ويدلّ على ذلك كثرة المكتبات الخاصة، وخزائن الكتب وخاصة مكتبات العلماء، والأسر المشهورة والحاكمة.

ونتيجة لكل هذه العوامل، فقد كان النثر التاليفي في حماة هو الظاهرة البارزة أكثر من غيرها. وقد ذكرنا المؤلفات النثرية سابقاً، مثل مؤلفات ابن نباتة، والملك المؤيد، وهبة الله البارزي وغيرها.

وسنتحدث باختصار عن اثنين من هذه الكتب، أولهما كتاب ابن نباتة «مطلع الفوائد ومجمع الفرائد» الذي كتبه للملك المؤيد. والثاني كتاب «المختصر في أخبار البشر» وهو أحد كتب الملك المؤيد. وقد بيّن ابن نباتة هدفه من هذا الكتاب، وهو أن يهدي لهذا الملك كتاباً في الأدب الرفيع بحجّة أن الكتب الأخرى كانت تجمع الغث من الأدب وليكون هذا الكتاب ذكرى له عند الملك المؤيد «فرأيت أن أضع بل أرفع له كتاباً يُحضرني وإن غبت في ديوان المسامرة الأدبية»(١٣٤). والهدف الآخر هو ليطّلع المبتدىء في علم الأدب على أقوال العلماء، ومبتدعات الشعراء والكتّاب(١٣٥).

وينقسم الكتاب إلى ثلاثة أقسام، القسم الأول منها في محاسن أقوال العلماء في تأويل المعاني المشكلة، وهو على ثلاثة فصول، الأول منها في نبذة من حديث النبي

(١٣٤) ابن نباتة: مطلع الفوائد ومجمع الفرائد، تحقيق عمر موسى باشا، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٩٧٢، ص٤.

(١٣٥) المصدر نفسه، ص٣٤.

عليه السلام، والفصل الثاني في نبذة من الألفاظ العربية والغريبة، والفصل الثالث في أبيات المعاني القديمة والمحدثة(١٣٦). والقسم الثاني من مبتدعات الشعراء ومخترعاتهم وأبيات قصائدهم، ويشتمل على خمسة أنواع، الأول في المديح، والثاني في الأوصاف، والثالث في النسيب، والرابع في المراثي، والخامس في أغراض مختلفة. والقسم الثالث في مخترعات الكُتّاب ومُعجز رسائلهم، ويشتمل على ثلاثة أنواع: الأول في بدائع المتقدّمين في زمن القاضي الفاضل، والثاني في كتابات القاضي الفاضل، والثالث في الكتّاب بعد القاضي الفاضل.

وأهمية هذا الكتاب تكمن في أنه جمع فيه، قطاف الثقافة العربية الأصلية، كما أن المؤلف عرض في هذا الكتاب بعض الآراء النقدية الهامة، مثل رأيه حول قضية تكفير أبي العلاء المعرّي، وأهمية القسم الثالث من الكتاب وهو الخاص بمعاني الكتاب المختلفة ترجع إلى أن المؤلف حفظ لنا أجمل ما وضعه الكتّاب السابقون واللاحقون، ووقف عند المعاني المخترعة في النثر، وبذلك يكون قد تفرّد بجمعها ونقدها دون غيره من المؤلفين. وزيادة على هذا، فإنّ الكتاب شاهد على عصره لأنه جزء من الكتابة في العصر المملوكي، حفظ لنا من النصوص الكثير والتي فقدت ولا يعثر عليها إلا في هذا الكتاب.

وقد اتسم منهج المؤلف في كتابة هذا ببعض الخصائص الكتابية، مثل الشمولية والاستقصاء، فقد كان المؤلف يعرض المذاهب المختلفة، ويناقشها ويقوّم كل رأي أو مذهب، ثم يعقّب بعد ذلك كله عليه برأيه، ومثال ذلك قول الإمام علي بن أبي طالب -كرّم الله وجهه- لما ضربه ابن ملجم، قال: «فزت وربِّ الكعبة»، حيث يذكر ابن نباتة الآراء المختلفة في هذه القصة، ويرجّح بعضها ويأتي برأيه، يقول: «قال بعضهم، فزت، نجوتُ، وهو من الفوز لأنه رأى أنه قُتِلَ شهيداً، وعرف ما أعدّ الله له بذلك في الآخرة. وقال قومٌ: أراد مُتّ، لأنّ التفويز هو الهلك، ومنه سميت المفازة وهي الأرض المقفرّة المهلكة، وكلا الوجهين متوّجة، والأول أمثل بالمعنى، وبعض أهل اللغة يقول: إنّما سُمِّيت الأرض المقفرةُ مفازة على سبيل الفأل لأنها مهلكة، وهو من نحو قولهم

(١٣٦) ابن نباتة: مطلع الفوائد، ص٦١.

للديغ سليمٌ، وهذا القول ليس بشيء، لأنه إذا كان لتفويز الهلك فلا حاجة لنقل الكلام إلى غيره والاحتجاج بأنها سميت للفال»(١٣٧).

وعندما يذكر قولاً في هذا الكتاب، فإنه يُورد مناسبة هذا القوْل إن كان له مناسبة، وهذا دليل سعة الثقافة والإطلاع من قِبَل ابن نباتة واستيفاء المطلوب، ومثال هذا قوله: «الثمر في البئر وعلى ظهر الجمل» ففي معرض تفسيره لهذا المثل أتى الكاتب بالمناسبة ووضّحها (١٣٨).

ومصادر المؤلف في هذا الكتاب كثيرة، لعلّ أهمّها دواوين الشعراء الذين ذكر من أشعارهم، ويرفد هذا عدد كبير من كتب اللغة والأدب والحديث وغيرها، وهو في الغالب ذكر اسم المصدر الذي أخذ منه، مثل قوله: قال المبرّد، وقال ابن الأنباري(١٣٨)، وأحياناً لا يذكر المصدر مثل قوله، وقال بعض المفسّرين، وقال أهل اللغة. وقد ينقد بعض مصادره التي يأخذ عنها، ومنه ما قاله في مسألة «كسب الزمارة» فإنه يقول وفي كلام ابن قتيبة في هذا الحديث لفظ فيه نظر(١٣٩).

والكتاب الأخر هو، المختصر في أخبار البشر، للملك المؤيد أبي الفداء صاحب حماة، والهدف من وضع هذا الكتاب كما يشير المؤيد «ليكون تذكرة تغنيه عن مراجعة الكتب المطوّلة»(١٤٠) وهذا ليس غريباً في هذا العصر الذي اهتمّ أهله بإقتناء الكتب.

ومصادر هذا الكتاب هي مجموعة كبيرة من الكتب التاريخية، منذ بدء الخليقة حتى عهد المؤلف، ذلك أن المؤلف أراد أن يجمع من هذا العدد الكبير منها مختصراً يستفيد منه في معلومات تاريخية يعود إليها عند الحاجة. ومن هذه الكتب، الكامل في التاريخ لابن الأثير، وتجاريب الأمم لأحمد بن مسكويه، وكتاب البيان عن

(١٣٧) ابن نباتة: مطلع الفوائد، ص٣٥.
(١٣٨) المصدر نفسه، ص٤٦.
(١٣٨) المصدر نفسه، ص٣٦.
(١٣٩) المصدر نفسه، ص٢٥.
(١٤٠) أبو الفداء : المختصر، ج١، ص٣.

تاريخ سني زمان العالم على سبيل الحجة والبرهان لابن عيسى أحمد بن علي المنجم، والتاريخ المظفري لابن أبي الرم، ووفيات الأعيان لابن خلكان وغيرها من كتب التاريخ(١٤١). وزيادة على هذه المصادر، فإنه يعتمد على المشاهدة وعلى الرواية أحياناً أخرى خاصة الأحداث التي عاصرها الكاتب.

ولعلّ أهمية كتاب أبي الفداء كانت في الفترة التي عاشها الملك المؤيد، والتي أرّخ لها في كتابه، وهي الجزء المهم من كتابه إذا عرفنا أن المادة المتبقية هي مختصر لما ورد في كتب أخرى، بما يناسب حاجة هذا الملك، لأنّ هذا المؤلّف هو ذاتي وشخصي يخدم حاجة الملك المؤيد، كما أنه مصدر وثيق يؤرّخ لمملكة حماة وملوكها، وأحوالها الاقتصادية، والسياسية، وتركيبها الاجتماعي، ومدى الحركة الثقافية في حماة، وهذه جميعها وردت في الجزئين الثالث والرابع من المختصر.

ومنهج أبي الفداء في هذا الكتاب لا يختلف عن منهج ابن الأثير في كتابه الكامل فيما يتعلق بالتواريخ الإسلامية، حيث رتّبه على السنين. أمّا التواريخ الإسلامية فلم يلتزم فيها بنظام السنوات. ونلاحظ في هذا الكتاب حرص أبي الفداء على أن يكون التاريخ المذكور دقيقاً، فهو يذكر السنة، واليوم، والشهر، ويبقى هذا في حديثه عن الأحداث التي عاصرها بالذّات.

وقد أولى اهتماماً كبيراً بالعلماء في ترجمته لهم، عند ذكر الوفيات في بعض السنوات، مثل ترجمته للقاضي قطب الدين محمود بن مسعود(١٤٢). كما أورد المؤيد في هذا الكتاب عدداً كبيراً من الشواهد الشعرية الكثيرة التي ترتبط بملوك حماة خاصة، وشعرائهم، ومن ترجم لهم ممن لهم أشعار.

ويعتني أيضاً بضبط الكلمات، وخاصة الأسماء منها، ويحرص على ذلك حرصاً شديداً، ومن ذلك ما ذكره عند حديثه عن عُمْرِ سيدنا آدم، يقول: «ولمّا صار لملائيل من العمر مائة وخمس وستون سنة ولد له (بيرد) بالدال المهملة، والذال المعجمة أيضاً،

---

(١٤١) أبو الفداء : المختصر، ج١، ص٣.

(١٤٢) المصدر نفسه، ج٤، ص٦٣.

ولما صار لبيرد مائة واثنتان سنة ولد له (حنوح) بحاء مهملة ونون وواء وخاء معجمة»(١٤٣).

وعند حديثه عن الأمم البائدة، يذكر، ويفسّر بعض القصص المتوارثة التي عرفت عندهم، ومنها عُمْر لقمان الحكيم والقصة التي كان يتناقلها الناس، يقول: «فلما هلكت عاد كما ذكرنا بقي لقمان بالحرم، فقال له الله تعالى اختر ولا سبيل إلى الخلود، فقال يا رب أعطني عمر سبعة أنسر، فكان يأخذ الفرخ الذكر يخرج من البيضة حتى إذا مات أخذ غيره وكان يعيش كل نسر ثمانين سنة، وكان اسم النسر السابع لبد فلما مات لبد مات لقمان معه، وقد أكثر الناس والعرب في أشعارهم من ذكر هذه الواقعة فلذلك ذكرناها»(١٤٤).

ويستعمل أبو الفداء ثقافته في حديثه عن سيدنا إبراهيم عليه السلام ويرجّح رأيه على غيره، يقول: «وهو إبراهيم بن تارح وهو آزر بن ناحور بن ساروغ بن رعو بن فالغ بن عابر بن شالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح وقد أسقط ذكر قينان بن أرفخشذ وهو بالحقيقة شالح ابن قينان بن أرفخشد فاعلم ذلك»(١٤٥).

---

(١٤٣) أبو الفداء : المختصر، ج١، ص٩.
(١٤٤) المصدر نفسه، ص١٢.
(١٤٥) المصدر نفسه، ج١، ص١٣.

الفصل الرابع

النثر في عهد المؤيد وابنه الأفضل

- دراسة فنيّة -

الفصل الرابع

النثر في عهد الملك المؤيد وابنه الأفضل

من ٧١٠ - ٧٤٢ هـ

- دراسة فنيّة -

ذكرنا في الفصل الثالث أنواع النثر في عهد المؤيد وابنه الأفضل، وقد شملت الرسائل الديوانية، والأدبية، والإخوانية، وبعض المؤلفات في الجغرافية والتاريخ والأدب.

ولعلّ أكثر أنواع الرسائل النثرية وفرة في عهد المؤيد وابنه الأفضل، الكتابة الديوانية، من مصر إلى حماة، إذ عرفت هذه الكتابة، عدداً من كتّاب الرسائل الديوانية، الذين كتبوا هذه الرسائل، مثل: الصفدي، وابن فضل الله العمري، وغيرهما. وهذا يعطينا مدخلاً للدراسة الفنية، والصورة التي ستكون عليها هذه الرسائل من الدقّة والإتقان، إذا عرفنا أن هؤلاء الكتّاب في زمانهم كانوا يملكون زمام الكتابة الديوانية، ويتفنّنون فيها، وقد سبقت الإشارة إلى أهمية كُتّاب الإنشاء وما يتّصفون به من مؤهلات، لتولّي مثل هذا العمل، من معرفة بأنواع العلوم، والفنون وإتقانها. وقد اشتملت هذه الرسائل الديوانية على التقليد، والعهد، والبشارة، والمرسوم، والتعزية وغيرها مما أشارت إليه المصادر ولم تذكره.

وتتكوّن الرسالة الديوانية من مقدمة، وعرض، وخاتمة. وهذه العناصر الثلاثة تشكّل هيكل الرسالة الديوانية، الذي يختصّ كل جزء منه بأمور تدخل في موضوع هذه الرسالة. والمقدمة هي الجزء الأول في الرسالة الديوانية، ومن شروط هذه المقدمة ما أشار إليه الشهاب محمود: «فأمّا التقاليد والتواقيع والمناشير وما يتعلق بذلك، فالأحسن فيها بسط الكلام، وتعتبر كثرته وقلّته بحسب الرُّتب، ويجب أن تُراعي فيها أمور منها: براعة الاستهلال بذكر الرتبة، أو الحال، أو قدر النعمة، أو لقب صاحب التقليد واسمه بحيث لا يكون المطلع أجنبياً من هذه الأحوال، ولا بعيداً عنها، ولا مبايناً لها، ثم يستصحب ما يناسب الغرض ويوافق المقصد من أول الخطبة

إلى آخرها » (1).

ويلزم الكاتب لبراعة الاستهلال في الكتابة، أن تكون الألفاظ والمعاني المستعملة، موافقة لغرض الرسالة. ويكون الإفتتاح إمّا بآية قرآنية، أو بيت من الشعر، أو بشيء من الحديث النبوي، ويشير ابن الأثير إلى هذا قائلاً: «أن يكون مطلع الكتابة عليه جدّةٌ ورشاقة، فإن الكاتب من أجاد المطلع والمقطع، أو يكون مبنياً على مقصد الكتاب، ولهذا باب يُسمى باب المبادىء والافتتاحات»(2)، وتحتوي الافتتاحات على ما يوحي بالغرض الذي كُتبت فيه الرسالة. فإن كانت الرسالة للتهنئة استخدم الكاتب ألفاظاً تدلّ على هذا، وإن كانت للعزاء كتب ما يوحي بأن الرسالة للعزاء.

وحديثنا عن الإفتتاحات في الرسائل الديوانية يدفعنا إلى بيان طبيعة نوع كل من هذه الرسائل، لنتعرف مدى الدقّة المتّبعة، في الألفاظ والمصطلحات التي تستخدم لكل نوع من أنواع هذه الرسائل؛ فالعهود مثلاً: «لا تكون إلاّ للخلفاء عن الخلفاء، أو للملوك، ولا تكون إلاّ عن الخلفاء أو الملوك، والتقاليد أيضاً لا تكون إلاّ لكفلاء الملك كأكابر النوّاب والوزراء ومن كان في معناهما، وقد يكون لأكابر قضاة القضاة، فأمّا عامّة القضاة، فالواجب أن لا يُسمى ما يكتب لهم إلا تفاويض، ومنها تواقيع وهي لعامة أرباب الوظائف، ومنها مراسيم، وهي ما يكتب في صغائر الأمور، التي لا تتعلق بولاية»(3).

ونرى من خلال هذا التقسيم لرتب المكاتبات وتقسيمها تقنيناً واضحاً، ويتبع هذا أن لكلٍ منها ألفاظاً تختصّ بها عن غيرها، بناءً على رتبة المكاتب بها، فالمكاتبة مثلاً إلى الأبواب الشريفة تكون بالقول: «أدام الله تعالى أيام الديوان العزيز ولا

(1) شهاب الدين، محمود بن سليمان الحلبي (ت ٧٢٥هـ): حسن التوسل إلى صناعة الترسل، تحقيق ودراسة أكرم عثمان يوسف، ص٣٦٨.

(2) ابن الأثير، ضياء الدين محمد بن محمد (ت٦٣٧هـ): المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تقديم أحمد الحوفي، وبدوي طبانة، القسم الأول، دار نهضة مصر، القاهرة، ص٩٦.

(3) ابن فضل الله العمري: التعريف، ص١١٢، ١٣.

زالت سيوف أوليائه في رقاب أعدائه»(٤). وهناك صيغ أخرى كثيرة لمخاطبة الأبواب الشريفة ذكرها ابن فضل الله، وهي تقارب هذه الصيغة، أمّا المكاتبة إلى ولاة العهود بالخلافة فتكون بعد الافتتاح، «ضاعف الله تعالى جلال الجانب الشريف، المولوي السيدي النبوي الفلاني»(٥).

وقد تنوّعت افتتاحات الرسائل الديوانية إلى حماة، فنجدها أحياناً تبدأ بالدعاء، وذلك في رسالة التعزية التي بعث بها سيف الدين تنكز إلى الملك الأفضل يعزّيه بوفاة والده الملك المؤيد وقد كتبها الصفدي حيث يقول: «جعله الله خير خلفٍ وهدّا البيت الأيوبي بما ورثه من المجد المؤثل والمشرف، وسقى صوب الرحمة أصله الذي فرّع دولته الطاهرة وسلف، تقبيل من صدع الهناجير قلبه ومسح كف السرور غمام دمعه الذي يذهب مُهدبه»(٦).

ومن رسالة ببشارة النيل كتبها الصفدي له وافتتحها بالدعاء يقول: «أعز الله أنصار المقام الشريف وجعل رسل الهدى تتوارد على مقامه»(٧). وأحياناً أخرى تفتتح الرسالة بالتحميد، خاصّة في رسائل التولية والعهود، ومنها نسخة العهد التي كتبها ابن فضل الله العمري للملك الأفضل بعد وفاة الملك المؤيد، ومنها «الحمد لله الذي أقرّ بنا الملك في أهلّةِ أهله، وتدارك مصاب ملكٍ لولا ولده الأفضل لم يكن له شبيه في فضله، ووهب بنا بيت السلطنة من أبقى البقايا ما يلحق به كل فرعٍ بأصله»(٨)، ومنها أيضاً ما ورد في نسخة التقليد بمملكة حماة والمعرّة وبارين تمليكاً للملك المؤيد سنة ٧١٢هـ وأول التقليد: «الحمد لله الذي عضد الملك الشريف بعماده، وأورث الجد السعيد سعادة أجداده، وبلّغ ولينا من تباهي ملوك بني الأيام غاية

(٤) ابن فضل العمري: التعريف، ص٧.
(٥) المصدر نفسه، ص١٥.
(٦) الصفدي: أعيان العصر، ج٢، ص٤٤٦.
(٧) المصدر نفسه، ج٢، ص٤٤٧.
(٨) القلقشندي: صبح الأعشى، ج١٠، ص١٨٧.

مراده»(٩).

ويستعرض ابن فضل الله العمري افتتاحيات الرسائل الديوانية بقوله: «ومنها مراسيم وهي ما يكتب في صغائر الأمور التي لا تتعلق بولاية، ثم المراسيم منها ما يستفتح بالبسملة وهو الأهمّ، ومنها ما لا يستفتح بها وهو لما هو أدنى». أما التقاليد فيشير إلى أنها لا تستفتح، إلاّ بالخطب بالحمد لله، وليس إلاّ، والتواقيع قد تستفتح بالحمد لله، وقد تستفتح بقول أما بعد حمد اللّه، وقد تستفتح بقول أما بعد فإن، وقد تستفتح بقول إن أولى ما كان كذا، أو ما هذا معناه، وقد تستفتح بقول رسم بالأمر الشريف بالألقاب السلطانية الكاملة والحمد للّه أكبرها»(١٠).

ويؤكد ابن فضل الله أهميّة التحميد في الرسالة الديوانية، فيقول: «وأمّا ما يكتب للملوك عن الملوك مثل: ولاة العهود والمنفردين بصغار البلاد فإنه لا تستفتح عهودهم إلاّ بالخطب، وكلما كثرت التحميدات في الخطب كان أكبر لأنها تدلّ على عظم قدر النعمة»(١١).

والجزء الثاني من الرسالة الديوانية، هو العرض، أو موضوع الرسالة سواءً أكان تهنئة أم تعزية وغيرها. ويلزم قبل الإنتقال إلى موضوع الرسالة أن يتوخّى الكاتب حسن الإنتقال، أو التخلص، وقد نصّ ابن الأثير على هذا وسمّاه «باب التخلص والاقتضاب»(١٢)، «ويكون الإنتقال من المقدّمات إلى الغرض المقصود على وجهين، الأول هو ابتداء الخطاب، أي أن يبدأ الكاتب بذكر ألفاظ أو عبارات تدلّ على ابتدائه بالخطاب، كقوله كتبت، كتابي، خطابي، أما بعد. والوجه الثاني هو ما يذكر فيه الكاتب أنه يردّ علي كتاب المُرسل إليه، كقوله، ألقي، أو ورد، ووصل، ووافاني،

(٩) أبو الفداء: المختصر، ج٢، ص٦٠.
(١٠) ابن الفضل العمري: التعريف، ص١١٣ وما بعدها.
(١١) المصدر نفسه، ص١١٤.
(١٢) ابن الأثير: المثل السائر، ص٩٧.

وقد يحدّد الكاتب تاريخ كتابة رسالته فيقول يوم كذا »([13]). ونجد صوراً من ذلك في النماذج التي بين أيدينا، ففي رسالة التعزية للملك الأفضل نجد بعد المقدمة ما يلي: «وينهي بعد الدعا الذي أجيب بالقبول للخلاصة رفعه، والولا الذي لم يضق بالعبودية ربعه ولا ذرعه، والثنا الذي أخجل تغريد الحمام في الحمايل سجعه، أن مثاله الكريم ورد على يد فلان، يتضمن ما قدّره الله تعالى، من وفاة المقام الشريف العمادي قدس الله روحه الكريمة »([14]). ومنها في بشارة بفيضان النيل كتبها الصفدي له يقول بعد الدعاء «ونُبدي إلى العلم الكريم أنه ورد ركابنا الشريف إلى محل ملكه، ومجرة فلكه، ومجرى فلكه، فوجدنا النيل المبارك قد جعل الأرض لُجَة »([15]).

وفي تقليد الملك المؤيد بسلطنة حماة، نجد بعد الخطبة: «أما بعد فإن من أولى من عقد له لواء الولاء، وتشرّفت باسمه أسرة الملوك وذوي المنابر، وتصرّفت أحكامه في ما يشاء من نواهٍ وأوامر، وتجلّى في سماء السلطنة شمسه فقام في دستها مقام من سلف »([16]). ويبيّن ابن فضل الله هذا الأمر بقوله في التقاليد «فلا تستفتح إلا بالخطب، بالحمد للّه ثم يقال بعدها أما بعد، ثم يذكر ما يسنح من حال الولاية وحال المولى، والتقاليد يقال في عنوانها (تقليد شريف لفلان بكذا)، وأما التفاويض فهي من هذا النمط، غير أنه لا يقال بعد الخطبة إلا: وبعد فإن، ويقول في التواقيع أيضاً «وأما التواقيع فهي على هذا، الأنموذج وقد يقال فيها أن يفوض، وقد يقال، أن يرتب وأن يقرر »([17]).

ثم يأتي بعد ذلك الغرض، أو الموضوع الرئيس في الرسالة وقد يكون، تقليد

---

(١٣) القيسي، فايز : أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، مركز ايداع الرسائل، الجامعة الأردنية، ١٩٨٦، ص٢١٣.

(١٤) الصفدي: أعيان العصر (مخطوط)، ج٢، ص٤٤٦.

(١٥) المصدر، ج٢، ص٤٤٧.

(١٦) أبو الفداء : المختصر، ج٢، ص٦٠.

(١٧) ابن فضل الله: التعريف، ص١١٥ وما بعدها.

بالسلطنة، أو ولاية للعهد، أو تهنئة وغيرها، ويأتي بعده الحديث عن أهمية هذه الرتبة التي وردت في الرسالة ثم بعدها بعض الوصايا للمولى ثم تختتم الرسالة بالدعاء، وقد ذكرنا هذه الأقسام في الدراسة الموضوعية.

«ونلاحظ في الرسائل الديوانية اختلاف صيغة المكاتبة، من شخص إلى آخر بحسب رتبته، فالمكاتبة للقاضي تختلف عنها للوالي، والمكاتبة للحاجب تختلف عنها لقائد الجند، وغير ذلك من الصيغ الخطابية، وقد أشار بعض الباحثين إلى مدى التعقيد والتشعيب في هذه الصيغ، حتى أن الكاتب في ديوان الإنشاء يحتاج إلى معجم ضخم من هذه الصيغ يعود إليه الكُتّاب. ومن صور هذا التقسيم في الخطاب أنهم إذا وصفوا شخصاً بالسامي، خاطبوا من فوقه بالعالي، ومن فوقهما بالكريم، ومن فوقهم بالشريف، وألحقوا بألقاب التفخيم ياء النسب مبالغة في دلالتها فقالوا في القاضي، والصدر، والرئيس، القاضوي، والصدري، والرئيسي، وقيّدوا المقر بالشريف، والجناب بالكريم، والمجلس بالعالي. وبهذا اثقلوا الألفاظ، والزموا الناس فيها بما لم يلزمهم»(١٨). والشواهد على تعدّد أنواع الكتابات بحسب الرتب المخاطبة كثيرة، في صبح الأعشى، والتعريف لابن فضل الله الذي أفرد لها باباً خاصاً أسماه «رتب المكاتبات». ومن أمثلة هذه المخاطبات، مكاتبة إلى نائب حماة بعد العهد الأيوبي، وهي كالتالي: «ضاعف الله تعالى نعمة الجناب العالي والعلامة (أخوه) وتعريفه نائب السلطنة الشريفة بحماة المحروسة»(١٩)، ومخاطبة الحاجب بها كالتالي «صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس السامي والعلامة الاسم، وتعريفه الحاجب بحماة المحروسة»(٢٠).

أمّا رسم المكاتبة للملك المؤيد، فإنّها كالتالي: «أعزّ الله أنصار المقام الشريف

(١٨) محمد عبد المنعم خفاجي: الحياة الأدبية بعد سقوط بغداد، ص٧١.

(١٩) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٧، ص١٩٧.

(٢٠) المصدر نفسه، ج٧، ص١٩٧.

العالي السلطاني الملكي المؤيدي»([21])، ولعلّ المبالغة في مثل هذه الخطابات، هي التي دفعت الكتّاب إلى وضع صيغ من المخاطبات المختلفة، احتياطاً لاستخدامها إذا دعت الحاجة إليها، كما ورد في كتاب صبح الأعشى في الجزء السابع منه، ولعلّ هذه الدقّة في توجيه الخطاب، ترجع إلى أحد أمرين، إمّا الزخرفة اللفظية (كما أشار الخفاجي)، أو أن هذا يعود إلى ما تميّز به كتّاب الديوان غالباً، من صفات أدبية وعلمية واسعة، وأن لديهم مدخراً واسعاً من الألفاظ والعبارات التي تساعدهم في الصياغة الدقيقة ذات الألفاظ المحدّدة([22]). ولعلّ مما يؤكد السبب الثاني، تلك المؤلفات الخاصّة بأدب الدواوين أو النثر الديواني، مثل: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، وكتاب ابن فضل الله العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، وحسن التوسل إلى صناعة الترسل للشهاب محمود، والمثل السائر لابن الأثير.

ومن السمات الفنيّة للرسائل الديوانية، الإهتمام بعبارات التفخيم والتعظيم، وهذا يتفق وروح العصر كما يرى محمود رزق سليم، إذ هو عصر تموج فيه المبالغات والتهاويل، وإراعة الجماهير، بادعاء العدالة، وحماية الدين، واختيار الأكفاء، لولاية الشؤون العامة([23]). والأمثلة السابقة لصيغ الخطاب دليل على مدى المبالغة والتفخيم.

ونجد أيضاً في هذه الرسائل الإطناب، فالمعنى المراد واضح وهو التعيين أو ولاية العهد، إلاّ أنّ ما يحتاج إلى بضعة أسطر يستغرق صفحات. ويأتي هذا الإطناب من خلال تقسيم بعض الرسائل، إلى عدّة أقسام، كما في التقليد، والعهد، وفي حديث الكاتب عن الوصايا للمُولّى، لا يكتفي بقدر معين من الصفات، بل نجده يسرف ويزيد في ذكر العديد منها، ومن هذه الرسائل التي أدى فيها الإطناب إلى طولها تقليد الملك المؤيد الذي ذكر فيه أنه اختصر معظمه لطوله، ومن أمثلة الإطناب حديث الصفدي

---

(٢١) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٩، ص١٧٤.

(٢٢) محمد كامل الفقي: الأدب العربي في العصر المملوكي، ص١٠٨.

(٢٣) محمود رزق سليم: عصر سلاطين المماليك، ج٥، ص١٠٨.

عن خبر وفاة الملك المؤيد، في رسالة التعزية، التي بعث بها إليه، «وينهي بعد الدعا الذي أجيب بالقبول، للخلاصة رفعه، والولا الذي لم يضق بالعبودية ربعه ولا ذرعه، والثنا الذي أخجل تغريد الحمام في الحمايل سجعه، أن مثاله الكريم ورد على يد فلان يتضمن ما قدره الله تعالى من وفاة الشريف العمادي قدّس الله روحه الكريمة، وسقى تربة ضمته صوب كل ديمة، فوقف المملوك على الخبر الذي روّع العباد، وغدا كل قلب كأنّما يجر له على شوك القتاد، ونظر إلى النجوم كأنها، جرايد سافرات في حداد، فأرسل المملوك دمعة الصب، على الحبيب الذاهب، وأخذ من قسمة الأحزان بين الأنام نصيبه الواجب، وكيف لا يعم الوجود هذا المصاب، وتبين الدموع سحها سح السحاب، وقد كوّرت الشمس ولا تقول انقض الشهاب»(٢٤).

ويظهر السجع في الرسائل الديوانية كثيراً، إنْ لم يكن عماد الرسالة الديوانية، ونجد هذا في قول الصفدي في رسالة البشارة للملك الأفضل «أعزّ الله أنصار المقام الشريف، وجعل رسل الهدا تتوارد على مقامه تترى، وأبهجه بكل ثناء من الخصب يتحرق له البرق حسداً، في قلب السحاب ويتحرّى»(٢٥)، ومنها في آخر التقليد الذي كان للملك المؤيد «والله تعالى يؤهل بالنصر مغناه، ويحمل ببقائه صورة دهر هو معناه، والاعتماد على الخط الشريف أعلاه»(٢٦).

وقد اهتمّ الكتّاب في هذا العصر اهتماماً كبيراً بالسجع، بل إنّهم عدّوه من مقاييس قدرة الكاتب على الكتابة، ويؤكد ذلك ابن الأثير بقوله: وقد ذمه بعض أصحابنا من أرباب هذه الصناعة، ولا أرى لذلك وجهاً سوى عجزهم أن يأتوا به، وإلا فلو كان مذموماً لما ورد في القرآن الكريم»(٢٧).

وقد شعر ابن خلدون بوطأة هذا الأسلوب فثار عليه ورأى أن الكتّاب قد خلطوا

(٢٤) الصفدي: أعيان العصر، ج٢، ص٤٤٦.
(٢٥) المصدر نفسه، ج٢، ص٤٤٧.
(٢٦) أبو الفداء: المختصر، ج٢، ص٦٠.
(٢٧) ابن الأثير: المثل السائر، ص٢١٠.

بين الشعر والنثر، من كثرة الأسجاع، والتزام التقفيه، وتقديم النسيب بين يدي الأغراض، وصار هذا المنثور إذا تأملته، من باب الشعر وفنّه لم يفترقا، إلا في الوزن، وهجروا المرسل وتناسوه، خصوصاً أهل المشرق، وما حمل عليه أهل العصر إلا استيلاء العجمة على ألسنتهم، وقصورهم لذلك عن إعطاء الكلام حقّه في مطابقته لمقتضى الحال، فعجزوا عن الكلام المرسل لبعد أمده في البلاغة، وولعوا بهذا السجع يلفقون به ما نقصهم من تطبيق الكلام على المقصود، ويجيزونه بذلك القدر من التزيين بالأسجاع والألقاب البديعية ويغفلون عمّا سوى ذلك»(٢٨).

ونجد الجناس في رسائل حماة الديوانية، ومنه في عهد الأفضل «أن يقلد هذا السلطان الملك الأفضل، أدام الله بنصره من المملكة الحموية، وبلادها، وأمرائها، وأجنادها، وعربها، وتركمانها، وأكرادها، وقضاياها وقضاتها، ورعاياها، ورعاتها»(٢٩). ومنه في مرسوم إخراج المعرّة عن حماة «فليستقر جميع ما ذكر بيده العالية استقرار الدرر في أسلاكها، والدراري في أفلاكها، يتصرف في أموالها بين العالمين بنهيه وأمره، ويجري أموالها بين المستوجبين بإنعامه وبرّه»(٣٠). ومنها في تقليد الملك المؤيد «يحمد على أنه صان بنا الملك وحماه، وكفّ بكف بأسنا المتطاول على استباحة حماة»(٣١).

والطباق كان من سمات هذه الرسائل حيث يبدي الكاتب براعته باستخدام المتضادات، ومنه في تقليد المؤيد «ومنابرها التي يذكر فيها اسم الله تعالى واسمه، وكثيرها وقليلها وحقيرها وجليلها»(٣٢). ومنه في تعزية الأفضل: وسقى صوب

---

(٢٨) ابن خلدون : عبدالرحمن بن خلدون (ت٨٠٨هـ)، المقدمة (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر)، دار الفكر، ج١، ص٥٦٧.

(٢٩) القلقشندي: صبح الأعشى، ج١٠، ص١٨٧.

(٣٠) أبو الفداء : المختصر، ج٤، ص٧٢.

(٣١) المصدر نفسه، ج٤، ص٦٠.

(٣٢) المصدر نفسه، ج٤، ص٦٠.

(٣٣) الصفدي: أعيان العصر، ج٢، ص٤٤٤.

الرحمة أصله الذي فرّع دولته الطاهرة، وسلف تقبيل من صدع الهنا جبر قلبه، ومسح كف السرور غمام دمعه»(٣٣).

أمّا التأثر بالقرآن الكريم، فإنّه يتلخّص في الاقتباسات الواردة في هذه الرسائل، من ألفاظ ومعاني القرآن الكريم التي استعملها الكتّاب في المكان المناسب من النص، لتفي بالغرض منها، ويؤكد ابن الأثير على ضرورة إيراد معاني القرآن الكريم في الكتابة، بقوله: «أن لا يخلو الكتاب من معنى من معاني القرآن الكريم والأخبار النبوية، فإنها معدن الفصاحة والبلاغة»(٣٤). ومن ذلك في تعزية الملك الأفضل «وكيف لا يعم الوجود هذا المصاب، وتبين الدموع بسحّها سح السحاب، وقد (كوّرت الشمس) ولا تقول انقض الشهاب»(٣٥). ونجد الكاتب قد ضمّن بعض معاني القرآن الكريم، المناسبة لغرض العزاء هنا، في قوله تعالى : «إذا الشمس كوّرت»، وقوله تعالى «إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهابٌ ثاقب»(٣٦)، ومنه، «ويكون يوم قدومه يوم الزينة يحشر الناس ضحى، فالله تعالى يجعلها حركة مقرونة بالسعود»(٣٧)، وهذا تضمين لقوله تعالى في سورة طه «قال موعدكم يوم الزينة وأن يُحشر الناس ضُحى»، ومنه «ثمّ قلنا لكم في ولده العوض ولا ينكر لكم الصبر يا آل أيوب»(٣٨)، وقول الكاتب «وتنويها بقدر بيتكم الذي رفع لكم إسماعيل به قواعد البيت»(٣٩). وقد استفاد الكاتب من قصة سيدنا أيوب عليه السلام في قوله تعالى

(٣٣) الصفدي: أعيان العصر، ج٢، ص٤٤٤.
(٣٤) ابن الأثير: المثل السائر، ص٩٩.
(٣٥) الصفدي: أعيان العصر، ج٢، ص٤٤٦.
(٣٦) التكوير، آية (١)؛ الصافات، آية (١٠).
(٣٧) الصفدي: أعيان العصر، ج٢، ص٤٤٦؛ سورة طه، آية (٥٩).
(٣٨) القلقشندي: أعيان العصر، ج٢، ص٤٤٦، سورة طه، آية (٥٩).
(٣٩) المصدر نفسه، ج١٠، ص١٨٧؛ سورة البقرة، آية (١٢٧).
(٤٠) الصفدي: أعيان العصر، ج٢، ص٤٤٦.

«إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب»، وقد استمد الكاتب في رسالته معنى الآية القرآنية «وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل»، حيث يشير إلى بناء الكعبة من قِبَل سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل.

ويظهر في هذه الرسائل التأثر بالقرآن الكريم، من خلال إيراد ألفاظ أو معاني القرآن الكريم والحديث الشريف ، أو التحميدات والتشهّد، والأدعية في كل رسالة، ولعلّ هذا يعود إلى ما ذكره (عبد المنعم خفاجي) سابقاً من أن المماليك كانوا يلجأون إلى إضفاء الصفة الدينية، على ما يقولون ويفعلون، لكسب ودّ المسلمين وإرضاء قلوبهم، لذلك نجدهم قاموا بإحياء الخلافة العباسيّة، وذلك لإضفاء الشرعية على ما يقومون به.

ويستعمل الكتّاب في كتاباتهم الديوانية، مصطلحات العلوم الأخرى كالمصطلحات الفقهية، أو الفلكية، وهذا لا يستغرب، ذلك لأنّ كاتب الإنشاء يتميّز بإلمامه بعدّة علوم، ومن ذلك علم الفقه: «ونظر إلى النجوم كأنها خرايد سافرات في حداد، فأرسل المملوك دمعه الصب، على الحبيب الذاهب، وأخذ من قسمة بين الأنام نصيبه الواجب»(٤٠)، فكلمة النصيب، وكلمة الواجب هي مصطلحات فقهيّة، ومنها «وقمنا من الحزن في مشاركة أهله بالمندوب»(٤١)، والمندوب لفظة فقهيّة.

أمّا الصورة الفنيّة في الرسائل الديوانية، فقد وردت كثيراً فلا يوجد في النصوص التي بين أيدينا معنىً من المعاني، إلاّ وجسّده الكاتب في صورة فنيّة جاءت في غالبها، معقّدة بعيدة المنال عن فهم الإنسان العادي، ومن هنا قال أحد الباحثين «على أن أبرز حقيقة اعتمدها أصحاب مدرسة الزينة ورثوها عن القاضي الفاضل هي إكثارهم من الخيال الشعري في كتاباتهم بحيث يجوبون بالقارىء في فضاءات حالمة، ويحطوّن به على أجنحة ناعمة، فينسى الموضوع الذي يعالجونه أو يكاد»(٤٢).

---

(٤٠) الصفدي: أعيان العصر، ج٢، ص٤٤٦.

(٤١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج١٠، ص١٨٧.

(٤٢) محمد التونجي: التيارات الأدبية إبّان الزحف المغولي، ط١، ١٩٨٧، ص٦٤٧ وما بعدها.

ومن أنواع الخيال في الرسائل ، التشبيهات، والاستعارات والكنايات، ومن التشبيه في رسالة التعزية للملك الأفضل، بوفاة والده يصف الصفدي فيها حالة الحزن، يقول: «وغدا كل قلب كأنّما يُجرّ له على شوك القتاد، ونظر إلى النجوم كأنها جرايد سافرات في حداد»(٤٣). وقوله في بشارة بفيضان النيل «وانعطف حول أزرار الأهرام كالعروة»(٤٤). ومنها، «واستكثار الجنود فإنّهم حصنه المنيع في ملاقاته»(٤٥).

والإستعارات منها «ومسح كف السرور غمام دمعه»(٤٦)، «والولا الذي لم يضق بالعبودية»(٤٧)، «ويتيقظ والسيف مكتحل الجفن بالرُّقاد»(٤٨)، ومن الكنايات قول الكاتب «وسيبقى في عقبه إن شاء الله إلى يوم التناد»(٤٩)، وقول آخر «وأن كل رمح يقرع سنه ندما»(٥٠)، وهذا الحشد الكبير من الصور الفنيّة في الرسائل الديوانية، يقرّبها كثيراً من القصائد الشعرية، بل إنها تكاد لا تختلف عنها إلاّ في الوزن، بل إنّ بعض الكتّاب كانوا شعراء مثل الصفدي، والشهاب محمود، حتّى أن الكاتب يبذل كل جهده لتخرج الصور معه جديدة بعيدة عن فهم القارىء العادي، ولعل لهذا ارتباط بما أشار إليه ابن الأثير بقوله: «أن تكون ألفاظ الكتّاب غير مخلولقة بكثرة الاستعمال، ولا أريد بذلك أن تكون ألفاظاً غريبة فإنّ ذلك عيبٌ فاحش، بل أريد أن تكون الألفاظ المستعملة مسبوكة سبكاً غريباً، يظنّ السامع أنها غير ما في أيدي الناس»(٥١).

---

(٤٣) الصفدي: أعيان العصر، ج٢، ص٤٤٦.

(٤٤) المصدر نفسه، ج٢، ص٤٤٧.

(٤٥) القلقشندي: أعيان العصر، ج١٠، ص١٨٧.

(٤٦) الصفدي: أعيان العصر، ج٢، ٤٤٦.

(٤٧) المصدر نفسه، ج٢، ص٤٤٦.

(٤٨) القلقشندي: صبح الأعشى، ج١٠، ص١٨٧.

(٤٩) أبو الفداء: المختصر، ج٤، ص٦٠.

(٥٠) الصفدي: أعيان العصر، ج٢، ص٤٤٦.

(٥١) ابن الأثير: المثل السائر، ص٩٧.

والحشد الهائل للصور الفنية يسبب التعقيد والتكلف في بعض الأحيان، ولعلّ هذه القطعة تكون مثالاً لهذا التكلف «فهنأ اللّه مولانا بهذه البشرى التي صدّقت الرجاء، والمسرّة التي رقمت سطورها على كافور النهار بعنبر الدّجا، وما أحق هذه البشرى أن تهتزّ لها أعطاف المنابر، وأن تنطق بحمدها ألسنة الأقلام بين أفواه المحابر، وأن تُعدّ نعمها أنامل الرايات إذا خفقت، وأن تتورد صفحات السيوف من دم الأعادي إذا امتشقت»(٥٢).

ولعلّ نصوص الرسائل الديوانية في حماة، المختارة في هذه الدراسة تُعدُّ نموذجاً لعددٍ كبيرٍ من الرسائل التي لم نتمكن من الوصول إليها، إذ يقول الصفدي في حديثه عن الملك الأفضل «وكتبت إليه أجوبة كثيرة عن الأمير سيف الدين منها ما هو جواب عن مشمش كافوري أهداه في باكورة، ومنها ما هو عن رخام ملون أهداه وغير ذلك ، وهي في الجزء الثامن عشر من التذكرة التي لي»(٥٣).

وزيادة على هذا فإنّ بعض هذه الرسائل جاء مختصراً من الرسائل التي درسناها، ويقول الملك المؤيد في هذا «ورسم أن يكتب لي التقليد بمملكة حماة والمعرّة، وبارين تمليكاً ولولا خوف التطويل لأوردنا التقليد عن آخره، لكنّا نذكر منه فصولاً يحصل بها الغرض طلباً للاختصار»(٥٤).

ونجد للرسائل الديوانية جانباً آخر، غير الخصائص الفنيّة والسمات العامة، ذلك أنها سجلت لنا أموراً تاريخية وسياسية، تتعلق بحكم حماة والعادات المتّبعة في الولايات، والمهام والواجبات التي يكلف بها صاحب حماة، وحدود سلطته جغرافياً وسياسياً. ويشير إلى هذه الأهمية الدكتور شوقي ضيف «ويظن كثيرون أن النثر جمد في هذا العصر جموداً شديداً لما ساد في بعض جوانبه من تكلّف في تحرير معانيه ومن سجع مثقل بأصداف البديع، وخاصة في الرسائل الديوانية، كل ذلك لم

(٥٢) الصفدي: أعيان العصر، ج٢، ص٤٤٦.
(٥٣) المصدر نفسه، ج٢، ص٤٤٦.
(٥٤) أبو الفداء: المختصر، ج٢، ص٦٠.

يحل بين كتّاب الدواوين وبين التعبير عن واقع الحياة السياسية تعبيراً كانوا فيه ألسنة ناطقة عن أهل مصر والشام، وعن أهوائهم السياسية ومطامحهم الحربية»(٥٥).

- رسالة السيف والقلم :

وهذه الرسالة الأدبيّة التي أبدع فيها ابن نباتة كثيراً، كانت مجالاً واسعاً هي وغيرها من الرسائل الأدبية لمعرفة الكثير من خصائص الأشياء وخاصة المتضادة منها، ولم يكن ابن نباتة أول من كتب رسالة أدبية في المحاورة بين السيف والقلم، فقد كتب ابن الوردي رسالة بين السيف والقلم، والقلقشندي كتب رسالة مشابهة.

وقد كان من عادة الأدباء أن الكاتب أو الشاعر إذا تناول معنىً، أو فكرة وعرضها في كتاباته أو شعره، فإن غيره من الأدباء يكتب أو يقول في هذا المعنى، ليبيّن مدى تفوّقه وقدرته الأدبية على الكتابة والشعر، ولعلّ رسالة ابن نباتة كانت من هذا القبيل، أراد فيها ابن نباتة أن يظهر تميّزه في هذا المجال على غيره الذين سبقوه في الكتابة، ويبدو أنه قد حقق غايته عندما شهد ابن حجة أنه أظهر وأفضل في المغايرة بين السيف والقلم.

وقد وضع لنا ابن نباتة المفاخرة أو المحاورة بين السيف والقلم في قالب فنّي رفيع، وعلى الرغم من أن الحديث أخذ شكل الحوار، إلاّ أنها حملت كافّة عناصر القصة بما فيها التشويق الذي زاد في جمال هذه المفاخرة.

وكما عرفنا في الفصل السابق أن ابن نباتة قد كتب هذه الرسالة للملك المؤيد صاحب حماة، وهو في ثنايا هذه الرسالة يشير إليه، وكأني بالشاعر ابن نباتة قد أراد أن يأتي بصورة أخرى جديدة لمدح المؤيد، ليست شعراً وأنّما نثراً، فقد تحدث عن صفات هذا الملك وما تميز به، وذلك على لسان القلم تارة، والسيف تارة أخرى عندما اتفقا على أن يكون الملك المؤيد هو الحكم بينهما في الخصومة، التي كانت بينهما، كما أن فيها إشارة أخرى إلى أن هذا الملك ، هو من أرباب السيف والقلم، ولذلك فقد اجتمعا في حضرته وتحاكما لديه لمعرفة كلٍ منهما مكانته عند هذا الملك.

---

(٥٥) شوقي ضيف: مجلة المجلة، عدد ١٢٢، السنة الحادية عشرة، شباط ١٩٦٧، ص١٧.

ويكاد يكون هيكل هذه الرسالة مبنياً في أساسه على التناوب في الحوار بين السيف والقلم، بحيث يشمل هذا التناوب عرض كل واحدٍ منهما لحجته تجاه الآخر، ثم تختتم هذه الرسالة بالحكم بين السيف والقلم أن كلاهما للملك المؤيد بمثابة اليد التي لا يُستغنى عنها.

والظاهرة الفنيّة الواضحة في هذه الرسالة أن الكاتب جمع فيها ما يتعلق بالسيف والقلم من آيات قرآنية وأحاديث نبويّة عن طريق الإقتباس تارة، أو تضمين المعنى تارة أخرى، ومن الأمثلة الكثيرة لذلك قول القلم في بداية خطبته، «بسم الله الرحمن الرحيم، ن والقلم وما يسطرون، ما أنت بنعمة ربك بمجنون»(٥٦)، وقوله «إنّا أعطيناك الكوثر»، وقوله «إن شانئك هو الأبتر»(٥٧)، وقول السيف «وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إنّ الله قوي عزيز»(٥٨)، وقول السيف «ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبرا»(٥٩). أما تضمين معاني القرآن الكريم بمعانيها وليس بنصها، فمنها قول السيف: «وشيد مراتب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص»(٦٠)، وقول السيف أيضاً «فأما الحق فمكث والباطل فذهب جفاء»(٦١). ومن تضمين الأحاديث النبوية ما ورد على لسان القلم من إشارات إلى أحاديث الرسول (عليه السلام)، منها: «وصلى الله على سيدنا محمد الذي قال جفّ القلم بما هو كائن»(٦٢)، وقوله «وقام في المحامات عن

---

(٥٦) ابن حجة: الخزانة، ج١، ص٢٣٠؛ سورة القلم، آية (٢).
(٥٧) المصدر نفسه، ج١، ص٢٣١؛ سورة الكوثر، آية (١)، (٣)
(٥٨) المصدر نفسه، ج١، ص٢٣٢؛ سورة الحديد، آية (٢٥).
(٥٩) المصدر نفسه، ج١، ص٢٣٣؛ سورة الكهف، آية (٨٢).
(٦٠) المصدر نفسه، ج١، ص٢٣٠.
(٦١) المصدر نفسه، ج١، ص٢٣٢.
(٦٢) المصدر نفسه، ج١، ص٢٣٠.

دينها أشعث أغبر، لو أقسم على الله لأبرّه»([63]). ومنها قول السيف: «الحمد للّه الذي جعل الجنة تحت ظلال السيوف»([64]).

وقد رفدت هذه الإقتباسات والتضمينات المعاني التي أرادها ابن نباتة في هذه الرسالة. ولعلّ الاعتماد على الآيات القرآنية والأحاديث النبوية هو الأقرب لإثبات الحجة وبيان المفارقة، كما يرى ابن نباتة، ولهذا فإنه في بداية رسالته جعل الاستهلال بآيات قرآنية كريمة، على لسان السيف والقلم، ولم يكتف ابن نباتة بإيراد الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي ذكرت السيف والقلم، بل إنه تخيّر لها المكان المناسب في هذه المفاخرة لتؤدي المعنى المطلوب، وهذا شيء لا يستطيعه إلا من تمكّن في الأدب ودقّة الاختيار. ومن هذه المواقع غير ما سبق قول ابن نباتة على لسان القلم «أيها المعتزّ بطبعه المغترّ بلمعه، الناقض حبل الأنس بقطعه، الناسخ بهجيره من ظلال العيش فيأ السراب الذي «يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً»([65]). والكاتب هنا جعل النص القرآني جزءاً مكملاً لما أراد قوله فوجدنا سياقاً متكاملاً قد صاغه ابن نباتة، صياغة محكّمة زادته جمالاً. ومن ذلك أيضاً قول القلم «وأنا ذو اللفظ المكين، وأنت ممن دخل تحت قوله تعالى «أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين»([66])، وذلك إشارة منه إلى أن السيف في أغلب الأوقات يكون في غمده الذي هو عادة، محلى ومزخرف، حيث أحسن ابن نباتة وصف حالة السيف من خلال الآية القرآنية الكريمة.

ونجد في هذه المفاخرة أيضاً الأسلوب الخطابي واضحاً عندما يبدأ السيف أو القلم بالبسملة، ثم يحمد اللّه، ويصلي على الرسول عليه السلام، ثم يقول المتكلم أما بعد، وينهي كلامه بالاستغفار والدعاء أيضاً.

وقد كانت هذه الرسالة مسرحاً لثقافة ابن نباتة وإشاراته التاريخية والدينية

---

(٦٣) ابن حجة : الخزانة، ج١، ص٢٣١.

(٦٤) المصدر نفسه، ج١، ص٢٣٣.

(٦٥) المصدر نفسه، ج١، ص٢٣٤؛ الآية ٣٩ من سورة النور.

(٦٦) المصدر نفسه، ج١، ص٢٣٥: الآية ١٨ من سورة الزخرف.

والفلكية والأمثال المناسبة لمقام هذه الرسالة، ومن هذه الإشارات ما ذكره من قول القلم «وأوتي من معجزات النبوة نوعاً من النصر بالرعب»(٦٧)، وهذه إشارة إلى غزوة تبوك التي قال فيها الرسول عليه السلام «نصرت بالرعب»، ومنها إشارته إلى أن الرسول عليه السلام قد حمل السيف وقاتل به، وفيه يقول السيف: «وحملته اليد الشريفة النبوية وخصّته على الأقلام بهذه المزيّة»(٦٨). كما أعانته ثقافته الفلكية في إخراج صورة جميلة مناسبة للسيف يقول: «فهو على الحقيقة بين الهدى والضلال، فرق واضح، وأغاث في كل فصل فهو إما بغمده سعد الأخبية، وإما لحامله سعد السعود، وإما لضده سعد الذابح»(٦٩). ومن الأمثال قوله على لسان السيف «والمتعرض مني إلى الدمار، والمتحرّش بي فهو كما تقول العامة: «ذنبه قش ويحترس بالنار»(٧٠)، وقوله «لأمر ما جدع قصير أنفه»(٧١).

أما الثقافة الشعرية لابن نباتة فنلخّصها من خلال الأبيات الشعرية التي جاءت بعد حديث كل من السيف والقلم، حيث يختم كل واحد منهما حديثه بشعر يؤيد موقفه ويثبت حجته، ومن هذه الأشعار على لسان القلم:

قلمٌ يفل الجيش وهو عرمــــرمٌ ... والبيضُ ما سُلّت من الأغمــــادِ

وهبَت له الآجام حين نشابهـــا ... كرم السيول وصولة الآســـــادِ (٧٢)

وعلى لسان السيف :

أفٍ لرزق الكتبَـــــــــة ... أفٍ له ما أصعبَـــــــــه

يَرْتَشِفُ الرِّزْقَ بـــــــه ... من شقِّ تلك القَصَبـــــــة

---

(٦٧) ابن حجة : الخزانة، ج١، ص٢٣١.

(٦٨) المصدر نفسه، ج١، ص٢٣٢.

(٦٩) المصدر نفسه، ج١، ص٢٣٣.

(٧٠) المصدر نفسه، ج١، ص٢٣٦.

(٧١) المصدر نفسه، ج١، ص٢٣٩.

(٧٢) المصدر نفسه، ص٢٣٢.

يا قلماً يرفع في الطِّرسِ لوجهي ذنبَه
ما أعرفُ المسكين إلا كاتباً ذا متربه (٧٣)

ووردت الأنواع البديعية في هذه الرسالة بكثرة، ولعلّ أكثرها وضوحاً هما الطباق، والسجع، فقد خدم الطباق الغرض الأساسي من هذه الرسالة، وهو المقارنة بين السيف والقلم، فجاء الطباق معبّراً عن هذه المقارنة حيث ساعد في إبراز التضاد في المعاني، ومن أمثلة الطباق الكثيرة على لسان القلم: «أتفاخرني وأنا للوصل وأنت للقطع، وأنا للعطاء وأنت للمنع، وأنا للصلح وأنت للضراب، وأنا للعمارة وأنت للخراب، وأنا المعمر وأنت المدمّر»(٧٤). وعلى لسان السيف: «وأنت السوقة وأنا الملك، وأنا الصادق وأنت المؤتفك، وأنت لصون الحطام، وأنا لصون الممالك، وأنت لحفظ المزارع وأنا لحفظ المسالك، وأنت للفلاحة، وأنا للفلاح، وأنت حاطب الليل من نفسه، وأنا ساري الصباح، وأنا الباصر وأنت الأرمد، وأنا المخدوم الأبيض، وأنت الخادم الأسود»(٧٥).

أمّا السجع فقد شمل جميع فواصل الرسالة، مما أكسبها وقعاً وجرساً جميلاً، يجعل الكلام ينساق متتابعاً، وهذا الأمر ليس سهلاً، إلاّ أن ابن نباتة قد فعل هذا بقدرة ونجاح، ومنه: «فعند ذلك وثب السيف على قدّه، وكاد الغضب يخرجه من حدّه، وقال أيها المتطاول على قصره، والماشي على طريق غرزه»(٧٦)، ومنه «أيها المتلهّب في قدحه، والخارج عمّا نسب إليه من صفحه، ما هذه الزيادة في السباب، والتطفيف في كيل الجواب»(٧٧).

---

(٧٣) ابن حجة : الخزانة، ج١، ص٢٣٦.
(٧٤) المصدر نفسه، ج١، ص٢٣٤.
(٧٥) المصدر نفسه، ج١، ص٢٣٦.
(٧٦) المصدر نفسه، ج١، ص٢٣٦.
(٧٧) المصدر نفسه، ج١، ص٢٣٨

ومن التورية في هذه الرسالة والتي اشتهر بها ابن نباتة، قول القلم «والمنفق في تعمير دولتها ومحصول أنفاسه، والمحتمل أمورها الشاقة على عينه ورأسه»(٧٨)، فقد ورى الكاتب هنا فالمعنى القريب هو أن القلم يكتب برأسه وعينه وهي مكان خروج الحبر منه، والمعنى البعيد هو القول الشائع (على العين والرأس) الذي يقوله الشخص عندما يرغب في القيام بعمل عن رضى وطاعة.

ومن الجناس أيضاً كان هناك مواقع كثيرة منها على لسان القلم «الحمد لله الذي علمّ بالقلم، وشرّفه بالقسم، وخط به ما قدّر وقسم»(٧٩)، وقوله «هذا وهو لسان الملوك المُخَاطَب، ورسيلها لأبكار الفتوح والخاطب»(٨٠) ، وقول السيف «به أظهر الله الإسلام وقد جنح خفاء، وجلى شخص الدين الحنيفي وقد جمح جفاء»(٨١).

أمّا الخيال في هذه الرسالة فإنّها كلها قد بُنيت على الخيال، فهذه المفاخرة هي من خيال ابن نباتة الذي نسجها وأخرجها بهذا الشكل، ومن عناصر الخيال فيها التشبيهات، والاستعارات، والكنايات. رهذه كلها ساهمت في خلق صور جميلة ناطقة شكّلت أجزاءً في هذه الرسالة.

ومن التشبيهات على لسان السيف «كم اتخذ من جسد طرساً، وكتب عليه حرفاً لا ينسى»(٨٢)، وقول القلم «والمسود الناصر فكأنما هو لعين الدهر إنسان»(٨٣). ومن التشبيهات الجميلة، قول القلم «وبعث جحافل السطور فالقسي دالات اوالرماح ألفات، واللامات لامات، والهمزات كواسر الطير التي تتبع الجحافل، والأتربة

---

(٧٨) ابن حجة : الخزانة، ج١، ص٢٣١.
(٧٩) المصدر نفسه، ج١، ص٢٣٠.
(٨٠) المصدر نفسه، ج١، ص٢٣١.
(٨١) المصدر نفسه، ج١، ص٢٣٢.
(٨٢) المصدر نفسه، ج١، ص٢٣٣.
(٨٣) المصدر نفسه، ج١، ص٢٣١.

عجاجها المحمر من دم الكلى والمفاصل»(٨٤). ويصوّر الكاتب لنا جيشاً مكوّناً من بعض الحروف، ترفدها الهمزات، وترتدي اللامات. وقول السيف «أو لست الذي طالما أرعش السيف للهيبة عطفك، ونكس للخدمة رأسك وطرفك، وأمر بعض رعيته وهو السكين قطع قفاك وشق أنفك»(٨٥). وقول القلم «أين عينك الزرقاء من عيني الكحيلة، ورؤيتك الشنعاء من رؤيتي الجميلة، أين لون الشيب من لون الشباب، وأين نذير الأعداء من رسول الأحباب»(٨٦). ومن الاستعارات والكنايات قول القلم «والمتيقّظ لجهاد أعدائها والسيف في جفنه نائم»(٨٧). ومن الاستعارات «فعند ذلك نبض السيف عجلاً وتلمّظ لسانه للقول مرتجلاً»(٨٨)، وقول السيف «وهل يفاخر من وقف الموت على بابه، وعض الحرب الضروس بنابه»(٨٩)، ومن الكنايات عن القلم «واحتد وما أدراك ما حدّة حدّه القصير وقام في دواته وقعد»(٩٠) كناية عن الغضب، وقول السيف «ولا تحلف لها أن تبلغ مداي فليس لمخضوب البنان يمين»(٩١) وهي كناية عن التنعُّم.

وهكذا نجد هذه الرسالة القائمة على المقابلة بين القلم والسيف من حيث أهميتها في أحداث الدول وتغيير هذه الأحداث، وصفات كل منهما الدقيقة حتى أن التصوير والتجسيد، من خلال التشبيهات والإستعارات يجعل القارىء يشعر أن

---

(٨٤) ابن حجة : الخزانة، ج١، ص٢٣١.
(٨٥) المصدر نفسه، ج١، ص٢٣٦.
(٨٦) المصدر نفسه، ج١، ص٢٣٥.
(٨٧) المصدر نفسه، ج١، ص٣١.
(٨٨) المصدر نفسه، ج١، ص٢٣٢.
(٨٩) المصدر نفسه، ج١، ص٢٣٣.
(٩٠) المصدر نفسه، ج١، ص٢٣٤.
(٩١) المصدر نفسه، ج١، ص٢٣٧.

هناك شخصين، وليس أداتين من آلات يستعملها الإنسان، وقد كان للسجع والطباق، والمقابلة أهميتها في وضوح المقارنة بين القلم والسيف، وتعدّ هذه الرسالة سجلاً تاماً لكل ما يتعلق بالقلم والسيف، عرض من خلالها ابن نباتة معلوماته الواسعة حول هاتين الأداتين. وشكّل فني أسلوبه في هذه الرسالة بين السرد والوصف، والحوار، والتشخيص والتجسيم، كما أن هذه الرسالة كانت صورة واضحة للفنون البديعية وانتشارها في ذلك العصر فقد زخرت الرسالة بعدد من هذه الفنون البديعية.

وأمّا الرسائل الإخوانية فهي في الاستهلال لا تختلف كثيراً عن الرسائل الديوانية فقد تفتتح بأبيات من الشعر في معنى الرسالة، وقد تفتتح الإخوانيات بالدعاء للمخاطب، وذلك غالب عليها، وقد تفتتح بتقبيل الأرض أو اليد[٩٢].

وقد افتتح ابن الوردي رسالته إلى ابن البارزي في التعزية، بعبارة «وينهي أنه بلغ المملوك»[٩٣]، وأمّا الرسالة الثانية فهي تهنئة صاحبه الذي تولّى نظر المال بحماة، فقد افتتحها بأبيات شعرية مناسبة لغرض التهنئة :

يُقبِّلُ الأرضَ مَشوقاً قائِلاً ... ومستكِنُ الحُبِّ منه ظاهر

يا جيرةً حمى (حماة) استوطنوا ... طرفي إليكم حَيثُ كُنتُ ناظرُ[٩٤]

وما ظهر من خصائص فنيّة في الرسائل الديوانية نجده في الرسائل الإخوانية، فنجد السجع في قول ابن الوردي «انهداد الطود الشامخ، وزوال الجبل الباذخ»[٩٥]، والجناس ظهر في هاتين الرسالتين «وأنت أولى من قابل هذا الفادح القادح، بالرضى وسلّم إلى الله فيما مضى»[٩٦].

---

(٩٢) خالد جبر: الرسالة الفنية في العصر المملوكي، ص١٦٠.
(٩٣) ابن الوردي: الديوان، ص١٠٤.
(٩٤) المصدر نفسه، ص١٧٨.
(٩٥) المصدر نفسه، ص١٠٤.
(٩٦) المصدر نفسه، ص١٠٤.

وشاع في العصر المملوكي المزج بين الشعر والنثر في الرسائل، لهذا نجد ابن الوردي في الرسالتين قد جعل فيهما قدراً كبيراً من الشعر خاصة رسالة التعزية في هبة الله البارزي التي فيها مرثيّة طويلة منها :

برغمي أن بيتكم يُضَـــــامُ ويبعد عنكمُ القاضي الإمـــامُ
سراج في العُلوم أضاء دهـــراً على الدنيا لغيبته ظـــــلامُ
تعطّلت المكارمُ والمعالـــــي وماتَ العِلمُ وأرتَفَعَ الطِغَـــامُ
عجبتُ لفكرتي سمحت بنظـــمٍ أيسعدني على شيخي نظـــامُ (٩٧)

وقد ورّى ابن الوردي في رسالته في التعزية بقوله «الذي بكته السماء والأرض، وقابلت فيه المكروه بالندب» حيث أن كلمة الندب في معناها القريب هو البكاء، ومعناها البعيد هي المصطلح الفقهي، وقوله «والأقلام تمشي على الرؤوس لفقده»(٩٨)، فالمعنى القريب أن الأقلام حزينة، والمعنى الحقيقي البعيد هو أن الأقلام حقيقة تكتب برؤوسها.

أما التضمين، فقد استخدمه الكاتب عندما ضمّن عجز بيت الأعشى في رسالة التعزية «كما شرقت صدر القناة من الدم»(٩٩).

والإقتباس من خصائص الرسائل الإخوانية، فهو يشكّل جانباً من جوانب ثقافة الكاتب الدينية، ومنها « قد جعل ربك تحتك سريّاً »(١٠٠)، «ولما عززا منك بثالث»(١٠١).

---

(٩٧) ابن الوردي: الديوان، ص١٠٥.
(٩٨) المصدر نفسه، ص١٠٥.
(٩٩) المصدر نفسه، ص١٠٤. والبيت :
وتَشْرَقُ بالقول الذي قد اذَعْتَه كما شَرَقَتْ صدر القناة من الدم
(الحاشية: المصدر السابق نفسه).
(١٠٠) المصدر نفسه، ص١٧٨؛ سورة مريم، آية (٢٤).
(١٠١) المصدر نفسه، ص١٧٨؛ سورة يس، آية (١٤).
(١٠٢) ابن الوردي: الديوان، ص١٠٥.

وبما أن ابن الوردي صاحب ثقافة فقهيّة وأحد المشتغلين بالعلوم، فإننا نجد هذا في كتابته، فهو يكثر من استخدام المصطلحات الفقهيّة مثل، المكروه، الندب، الغرض، الوارد، الصادر العام، الخاص، صلاة الغائب(١٠٢). ويذكر أيضاً أسماء كتب مثل توشيع التوشيح، وهو كتاب للصفدي، ويذكر ابن مقاتل، وفن الزجل وقد كان مشتهراً به في حماة(١٠٣).

وقد أطلق الكاتب لخياله العنان في رسم الصور الفنيّة المعبّرة عما يريد بالكناية، كقوله «وتمّ سرور أم الحسن بالحسين»(١٠٤)، حيث كنّى بأم الحسن عن حماة، وقوله في الإستعارة «وبكته السماء والأرض»(١٠٥).

أمّا العاطفة، فلا شكّ أنها صادقة، فالرسالة الأولى إلى معلمه، والثانية إلى صديقه، لكنّ استخدام المحسّنات أدّى إلى ضعف هذه العاطفة وخروجها عن صفاتها، ولعلّنا إذا عرفنا أن هذه الزخرفة في هذا العصر أصبحت تقليداً عند الكتّاب أن نعذر الكاتب.

أمّا الكتب والمؤلفات التي اخترنا منها الكتابين المشهورين المختصر في أخبار البشر، ومطلع الفوائد لابن نباتة، وقد وقع الاختيار على هذين الكتابين لشهرتهما، حيث عرف المؤيد بصاحب المختصر، كما أنّ كتاب مطلع الفوائد من المجامع الأدبية التي أورد فيها ابن نباتة الكثير من الأبواب الأدبية.

وهذا النوع من النثر وهو النثر التأليفي، وخاصة ما يتعلق منه بالأمور العلمية كالفلسفة والطب والصيدلة والتاريخ له خصائص في أغلبها تختلف عن النثر الفني، ولعلّ الصفة الأولى لمثل هذا النثر هو الإبتعاد عن اصطناع فنون البديع، والإتجاه نحو السرد المباشر، ومن أمثلة ذلك في المختصر حديث المؤيد عن قتل

---

(١٠٢) ابن الوردي: الديوان، ص١٠٥.

(١٠٣) المصدر نفسه، ص١٧٨.

(١٠٤) المصدر نفسه، ص١٧٩.

(١٠٥) المصدر نفسه، ص١٠٤.

محمود صاحب دمشق(١٠٦)، وحديثه عن أخبار سيدنا يونس عليه السلام(١٠٧). أو يكون هذا الأسلوب بالوصف وخاصة الأحداث التي عاصرها الكاتب، وهذا كثير في الجزء الرابع من المختصر مثل وصف المؤيد لمسيره إلى مصر(١٠٨)، وحديثه عن مسير التتر إلى الشام عام ٧٠٠هـ(١٠٩)، وقد وصف ابن نباتة بعض أنواع النيران في حديثه عن الألفاظ الغريبة(١١٠)، ونجد أسلوب ابن نباتة في كتابه (مطلع الفوائد) بعيداً عن أسلوبه في رسالته الأدبية، في السيف والقلم التي درسناها سابقاً، والتي كانت زاخرة بالصنعة البديعية، ونجد الانتقائية أيضاً في كتاب مطلع الفوائد ومجمع الفرائد، وخاصة القسم الخاص «بمبتدعات الكتّاب ومخترعاتهم ومعجز رسائلهم» وفي المختصر نجد النزعة الدينية واضحة، عند المؤيد مثل قوله «العساكر الإسلامية» حيث يكرر مثل هذا القول في كتابه المختصر.

كما أن الكاتب في النثر التأليفي يقدّم لكتابه بمقدمة يبين فيها الهدف من هذا الكتاب، وهذا ما فعله أبو الفداء وابن نباتة في مقدمة كل منهما، ولو نظرنا إلى مقدمة كتاب ابن نباتة لوجدنا بينها وبين لغة الكتاب اختلافاً واضحاً حيث ظهرت فيها المحسّنات البديعية والزخرفة اللفظية، وهذا هو أسلوب ابن نباتة، ومثال ذلك «وكنت ممن وجّه إلى أبوابه الكريمة وجه أمله، ونظم على أجياد عتباتها عقود قُبله، وسافر بهذه الصناعة إليه»(١١١).

ولا يكتفي ابن نباتة في كتابه بسرد المعلومات بل إنه أحياناً يتدخل في ذلك فيعلل ويبيّن ومن هذا في حديثه عن بيت المتنبي :

(١٠٦) أبو الفداء : المختصر، ج٣، ص١٤.
(١٠٧) المصدر نفسه، ج١، ص٣٢.
(١٠٨) المصدر نفسه، ج٤، ص٦٦.
(١٠٩) المصدر نفسه، ج٤، ص٦٦.
(١١٠) ابن نباتة: مطلع الفوائد ومجمع الفرائد، ص٤٢.
(١١١) المصدر نفسه، المقدمة، ص٦.

فيا لك ليلاً على أعْكُشٍ أحكم البلاد خفّي الصّوى

إذ يقول في كلمة (الصُّوى) «جمع صُوّه، وهي حجارة تُنصب في الطرق ليُهتدى بها، وفي الحديث، «إن للإسلام صُوَىً» ومناراً كمنار الطريق، ويحتمل أن يكون المتنبي أراد هذه الصُّوى، وأضافها إلى الليل، وأراد بها النجوم، وأجرى ذلك مجرى الإستعارة من حيث أنها تهدي كما تهدي الصُّوى»(١١٢).

(١١٢) ابن نباتة : مطلع الفوائد وجمع الفرائد، ص٤١.

الخاتمة :

تناولت هذه الدراسة الشعر والنثر في حماة في عهد المؤيد وابنه الأفضل لفترة بلغت ثلاثين عاماً، عبّرت فيها عن اهتمام المؤيد وابنه الأفضل بالأدب والعلم سيراً على نهج من سبقهم من الأسرة الأيوبية.

وقد كان الدافع لهذا البحث بالدرجة الأولى توضيح اهتمام الحكام في العصر المملوكي بالثقافة والأدب، وهذا له جانب آخر فهو محاولة لدفع ما رُمي به هذا العصر بأنه عصر انحطاط وتخلف، ذلك أن لكل عصر معطياته التي يرتبط بها ولا يمكن أن نخلق صورة ممثالة للأدب في عصر ما، في عصر آخر غيره، لاختلاف طبائع البشر وثقافتهم.

ولعلّ الأدب في حماة ساهم في رسم صورة المؤيد وابنه الأفضل وإن بالغ في بعض الأحيان، إلاّ أننا أفدنا منه بأن كانت الصورة العامة للمؤيد وابنه هي سيطرة الروح العلمية لديهما، مما جعل ابن نباتة المصري يعبّر عن إعجابه بهما شعراً.

وكشف النثر وبخاصّة الرسائل الديوانية عن عناية أهل ذلك العصر بالكلام ومقاصده ودقّته، والاهتمام بالخيال والمحسّنات، وأظهرت أنا جانباً من المكانة الخاصة التي حظي بها ملوك حماة من الحاكم المملوكي في ذلك الوقت، من خلال امتيازات صاحب حماة، وصيغة مخاطبته التي ميّزته عن جميع حكام الولايات، ولعلّ رسالة السيف والقلم التي كتبها ابن نباتة تعدّ نموذجاً صادقاً لما يراه ابن نباتة في شخص المؤيد فوضع إلى جانب ذلك كتاباته الأخرى مثل، مطلع الفوائد، وسرح العيون، وسجع المطوق لما رآه من تقدير لأعماله الأدبية من قبَل المؤيد.

وصوّر الشعراء في شعرهم حماة، وجمال طبيعتها ونواعيرها ونهرها الذي تغنّوا به كثيراً واستخدموه في تشبيهاتهم من خلال قصائد الطرد، وتحدثوا عن حيواناتها وطيورها، وجمال الصيد فيها.

وأما لغة الشعر في عهد المؤيد وابنه ففيها فصاحة وجزالة وتسودها روح التقليد، ولم يؤثر في لغة الشعر ما كان يقال من أزجال ابن مقاتل التي لم تكن تخلو من الدعابة.

ومن الجوانب التي اعتنت بها هذه الدراسة الصورة الأدبية للمؤيد، فقد كان شاعراً، إلاّ أن هذا الشعر لم يصل إلينا كاملاً، وما وصل منه دلّ على قدرة المؤيد الشعرية، حتى أنه

نظم الموشّحات بعد أن قال الشعر التقليدي، وكان يخترع الأوزان ويطلب من شعرائه القول فيها.

وفي أسلوب الشعر والنثر لا نستطيع أن نقول أن حماة التي هي جزء من مملكة واسعة في العصر المملوكي قد استقلت بفنّها الشعري والنثري وانفصلت، وأنتجت شيئاً لم يكن موجوداً، إذ أن الشعراء والأدباء في ذلك العصر كانوا ينتقلون من مكان إلى آخر وكان الإتصال بينهم دائماً، ويدلّنا على ذلك كثرة الرسائل الإخوانية النثرية والشعرية في مسائل كثيرة مثل، الإجازات الأدبية، وطلب الكتب، وبالتالي فإن سمة الأدب في حماة هي سمة الأدب في هذا العصر شعره ونثره فيه الجزل الجيد، وفيه السهل.

ولعلّ أهم النتائج التي توصّلت إليها هذه الدراسة هي :

- إنّ ازدهار حركة الأدب في حماة في النصف الأول من القرن الثامن الهجري يعود إلى تشجيع حكّام حماة آنذاك للعلماء ورعايتهم لهم.

- إنّ الأدب الذي ظهر في حماة عبّر عن هذه المدينة وبيّن مكانتها الخاصة المميّزة وبخاصة الرسائل الديوانية.

- إنّ هذه الرسالة كشفت الجانب الأدبي في شخصية المؤيد ملك حماة.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

أ- المصادر المخطوطة :

١- الصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، ت٧٦٤هـ): أعيان العصر وأعوان النصر، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، فرانكفورت، المانيا، يصدرها فؤاد سركين، نسخة مخطوطة مصوّرة عن مجموعة عاطف أفندي، موجودة في مكتبة جامعة مؤتة، قسم المخطوطات والمجموعات الخاصة.

٢- النابلسي (عبد الغني بن إسماعيل، ت١١٤٣هـ): الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، (د.ت).

ب- المصادر المطبوعة :

١- الأبشيهي (شهاب الدين محمد بن أحمد، ت.٨٥٠هـ): المستطرف في كل فن مستظرف، دار مكتبة الحياة، إشراف المكتب العالمي للبحوث، طبعة جديدة، ١٩٩٢.

٢- ابن الأثير (ضياء الدين محمد بن محمد بن عبد الكريم، ت٦٣٧هـ): المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ق١، قدّمه أحمد الحوفي، وبدوي طبانة، دار نهضة مصر، القاهرة، (د.ت).

٣- الأسنوي (جمال الدين عبدالرحيم، ت ٧٧٢هـ): طبقات الشافعية، تحقيق عبدالله الجبور، بغداد، مطبعة الإرشاد، ط١، ج١، (د.ت).

٤- ابن بطوطة (محمد بن عبدالله بن إبراهيم الطنجي، ت٧٩٩هـ): تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، شرحه وكتب قواقشه طلال حرب، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٨٧.

٥- ابن تغري بردي (أبو المحاسن، يوسف جمال الدين، ت ٨٧٤هـ).

- المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، تحقيق محمد أمين، الهيئة

المصرية للكتاب، ج٢، ١٩٨٤.
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، طبعة مصوّرة عن دار الكتب المصرية.
٦- حاجي خليفة (مصطفى بن عبدالله، ت١٠١٧هـ): كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار الفكر، ١٩٨٢.
٧- الحافظ الذهبي (أبو عبدالله محمد بن أحمد، ت٧٤٨هـ): العبر في خبر من غبر، تحقيق أبو هاجر محمد السعيد بن البسيوني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٥
٨- ابن حجّة (تقي الدين، أبو بكر ابن حجة الحموي، ت ٨٣٧هـ):
- خزانة الأدب، شرح عصام شعيتور، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط١، ١٩٨٧.
- ثمرات الأوراق فيما طاب من نوادر الأدب وراق، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر، مكتبة الخانجي، ١٩٧١.
٩- حازم القرطاجني (أبو الحسن، ت ٦٨٤هـ): منهاج البُلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، تونس، ١٩٦٦.
١٠- الحلبي (شهاب الدين محمود بن سليمان بن فهد، ت ٧٢٥هـ): حسن التوسل إلى صناعة الترسل، تحقيق ودراسة أكرم عثمان يوسف، بغداد، دار الرشيد، ١٩٨٠.
١١- الحليّ (صفيّ الدّين، عبدالعزيز بن سرايا، ت ٧٥٢هـ):
- الديوان، دار صادر ، بيروت، (د.ت).
- العاطل الحالي والمرخص الغالي، تحقيق ولهلم هرنباخ، ط فرانتز شتاينز، فيسبادن، المانيا، (د.ت).
١٢- الحموي (شهاب الدين ياقوت بن عبدالله، ت٦٢٦هـ): معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩.
١٣- الحنبلي (أحمد بن إبراهيم، ت٨٧٦هـ): شفاء القلوب في مناقب بني أيوب،

تحقيق ناظم رشيد، وزارة الثقافة والفنون، العراق، سلسلة كتب التراث، ١٩٧٨.

١٤- الدواداري، أبو بكر بن عبدالله بن أيبك، (ت ٧٣٢هـ): كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق هانس روبرت رويمر، يطلب من سامي الخانجي، القاهرة، ١٩٦٠، الجزء التاسع في سيرة الملك الناصر.

١٥- الزركلي (خير الدين الزركلي، ت١٩٧٦): الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط٦، ١٩٨٤.

١٦- ابن سناء الملك (القاضي أبو القاسم هبة الله بن جعفر، ت٦٠٨هـ): دار الطراز في عمل الموشحات، تحقيق جودت الركابي، دار الفكر، دمشق، ط٣، ١٩٨٠.

١٧- الشوكاني (محمد بن علي الشوكاني، ت ١٢٥٠هـ): البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

١٨- الصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، ت٧٦٤هـ): الوافي بالوفيات، باعتناء هلموت ريزر، يطلب من دار النشر، فرانز شتايتر، بفسبادن، ١٩٦٢.

١٩- ابن طباطبا (أبو الحسن محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي، ت٣٢٢هـ): عيار الشعر، تحقيق محمد زغلول سلاّم ، دار الشمال، طرابلس، ١٩٨٨.

٢٠- العسقلاني (أحمد بن حجر العسقلاني، ت ٨٥٢هـ): الدرر الكامنة فى أعيان المئة الثامنة، تحقيق محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة، مصر، ط٢، ١٩٦٦.

٢١- العماد الأصفهاني (محمد بن محمد بن حامد، ٥٩٧هـ): خريدة العصر وجريدة العصر، بداية قسم شعراء الشام، تحقيق شكري فيصل، مطبعة الهاشمية، دمشق، (د.ت).

٢٢- ابن العماد (أبو الفلاح عبد الحي بن العماد، ت١٠٨٩هـ): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.

٢٣- عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٢٤- أبو الفداء (عماد الدين إسماعيل علي، ت٧٣٢هـ): تقويم البلدان، تصحيح رينو وديسلان، دار صادر، بيروت.
- المختصر في أخبار البشر، مكتبة المتنبي، القاهرة.
٢٥- ابن فضل الله (أحمد بن يحيى بن فضل الله، ت ٧٤٧هـ): التعريف بالمصطلح الشريف، دراسة وتحقيق سمير الدروبي، منشورات عمادة البحث العلمي، جامعة مؤتة، ١٩٩٢.
٢٦- ابن قاضي شهبة (تقي الدين أبو بكر أحمد بن محمد، ت٨٥١هـ): طبقات الشافعية، اعتنى بتصحيحه عبد العليم خان، حيدر أباد، ط١، ص٢.
٢٧- القزويني (جلال الدين، أبو عبدالله محمد، ت٧٣٩هـ): الايضاح في علوم البلاغة والبيان والمعاني والبديع.
٢٨- القلقشندي (أبو العباس أحمد القلقشندي، ت ٨٢١هـ): صبح الأعشى في صناعة الانشا، شرحة وعلّق عليه محمد حسن شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٧.
٢٩- القيرواني (الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي، ت٤٥٦هـ): العمدة في محاسن الشعر ونقده، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الجيل، بيروت، ط٤، ١٩٧٢.
٣٠- ابن كثير (الحافظ عماد الدين إسماعيل بن كثير، ت٧٧٤هـ): البداية والنهاية، دار الفكر، بيروت.
٣١- ابن المعتز (عبدالله بن المعتز، ت٢٩٦هـ): البديع، نشر وتعليق أغناطيوس كرتشوفسكي، دار الحكمة، دمشق.
٣٢- المقريزي (تقي الدين المقريزي، ت٨٤٥هـ): المقفى الكبير، تحقيق محمد العلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩١.
٣٣- ابن نباتة (جمال الدين محمد بن محمد الفارقي، ت٧٦٨هـ):
- الديوان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

- مطلع الفوائد ومجمع الفرائد، تحقيق عمر موسى باشا، ١٩٧٢.

٣٤- ابن واصل الحموي (جمال الدين محمد، ت٦٨٧هـ): مفرّج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق جمال الدين الشباك، (د.ت).

٣٥- ابن الوردي (عمر بن مظفر بن عمر، ت٧٤٩هـ).

- الديوان، تحقيق أحمد فوزي الهيب، دار القلم، الكويت، ط١، ١٩٨٦.
- تاريخ ابن الوردي، المطبعة الحيدرية، النجف، ١٩٦٩.

ب- **المراجع الحديثة :**

١- أمين (بكري أمين) : مطالعات في الشعر المملوكي العثماني، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٠.

٢- أنيس (إبراهيم أنيس): موسيقى الشعر، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٢، ١٩٦٥.

٣- الأيوبي (ياسين الأيوبي): صفيّ الدين الحليّ، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٧١.

٤- باشا (عبدالرحمن رأفت باشا): شعر الطرد إلى نهاية القرن الثالث الهجري، مؤسسة الرسالة، دار النفائس، ط١، ١٩٧٤.

٥- باشا (عمر موسى باشا):

- ابن نباتة أمير الشعراء المشرق، دار المعارف، ١٩٦٣.
- محاضرات في الأدب المملوكي والعثماني، دمشق، مطبعة الإحسان، ١٩٨٠.
- الأدب في بلاد الشام، عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك، دار الفكر، سويسرا، ط١، ١٩٨٩.

٦- بدوي (أحمد بدوي): الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، دار نهضة مصر، ط٢، (د.ت).

٧- بكار (يوسف بكار): بناء القصيدة في النقد العربي القديم في ضوء النقد الحديث، ط٢، ١٩٨٢.

٨- التونجي (محمد التونجي): التيارات الأدبية ابّان الزحف المغولي، دار طلاس، ط١، ١٩٨٧.

٩- الجمال (أحمد صادق الجمال): الأدب العامي في مصر في العصر المملوكي، الدار القومية، القاهرة، ١٩٦٦.

١٠- حمادة (محمد حمادة): الوثائق السياسية والادارية للعصر المملوكي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٠.

١١- حمزة (عبد اللطيف حمزة): أدب الحروب الصليبية، دار الفكر العربي، ط٢، ١٩٨٤.

١٢- خفاجي (عبد المنعم خفاجي):

- الأدب العرب وتاريخه في العصرين الأموي والعباسي، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩٠.
- الحياة الأدبية بعد سقوط بغداد حتى العصر الحديث، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩٠.

١٣- خضر (حازم خضر): النثر الأندلسي في عصر الطوائف، دار الرشيد، وزارة الثقافة والإعلام، العراق، ١٩٨٧.

١٤- أبو الخشب (إبراهيم أبو الخشب): تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني، الهيئة المصرية العامة، الإسكندرية.

١٥- رشيد (ناظم رشيد): في أدب العصور المتأخرة، ١٩٨٥.

١٦- الركابي (جودت الركابي): الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار، دار الفكر، تصوير عن ط١، دمشق، ١٩٨٢.

١٧- زكريا (أحمد زكريا): جولة أثرية في بعض البلاد الشامية، دار الفكر، سوريا، ط٢، ١٩٨٤.

١٨- الزيّات (أحمد حسن الزّيات): تاريخ الأدب العربي، دار نهضة مصر، الفجالة، القاهرة.

١٩- زيدان (جورجي زيدان): تاريخ آداب اللغة العربية، منشورات دار مكتبة الحياة،

بيروت، لبنان، ١٩٨٣.
٢٠- سبانو (أحمد غسان سبانو): مملكة حماة الأيوبية، دار قتيبة، دمشق، (د.ت).
٢١- سلاّم (محمد زغلول سلاّم)
- الأدب في العصر الأيوبي، دار المعارف.
- الأدب في العصر المملوكي، دار المعارف، ١٩٧٩.
٢٢- سليم (محمود رزق سليم): عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، المطبعة النوذجية، مكتبة الآداب، (د.ت).
٢٣- أبو شريفة (عبدالقادر أبو شريفة): مدخل إلى تحليل النص الأدبي، عمان، دار الفكر، ط١، ١٩٩٣.
٢٤- ضيف (شوقي ضيف): عصر الدول والإمارات، قسم مصر والشام، دار المعارف، ط٢، ١٩٨٤.
٢٥- عاشور (عبد الفتاح عاشور): مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٢.
٢٦- عبد الجابر (سعود عبد الجابر): الشعر في رحاب سيف الدولة الحمداني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٩٤.
٢٧- عبد المهدي (عبد الجليل عبد المهدي): الحياة الأدبية في الشام في القرن الخامس الهجري، مكتبة الأقصى، عمان، ط١، ١٩٧٧.
٢٨- عبود (مارون عبود): أدب العرب، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٧٩.
٢٩- الفاعوري (حنا الفاعوري): تاريخ الأدب العربي، المكتبة اليوليسية، ط١٢، بيروت، (د.ت).
٣٠- الفقي (محمد كامل الفقي): الأدب العربي في العصر المملوكي، دار الموقف العربي، ط٣، ١٩٨٤.
٣١- كراتشوفسكي (اغناطيوس): تاريخ الأدب الجغرافي العربي، نقله صلاح الدين عثمان، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٩٨٧.

٣٢- الكفراوي (محمد عبد العزيز الكفراوي): تاريخ الشعر العربي، دار النهضة، القاهرة، (د.ت).
٣٣- المقدسي (أنيس المقدسي): تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٧، ١٩٨٢.
٣٤- هدّارة (محمد مصطفى هدّارة): اتجاهات الشعر في القرن الثاني الهجري، دار المعارف، الاسكندرية، ١٩٨١.
٣٥- الهيّب (أحمد فوزي الهيّب):
- الحركة الشعرية زمن الأيوبيين في حلب الشهباء، مكتبة المعلا، الكويت، ط١، ١٩٨٧.
- الحركة الشعرية زمن المماليك في حلب الشهباء، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٦.
٣٦- الهاشمي (أحمد الهاشمي): ميزان الذهب في صناعة شعر العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦.

جـ- الرسائل الجامعية :

١- جبر (خالد جبر)، الرسالة الفنية في العصر المملوكي الأول بمصر والشام، رسالة ماجستير، إشراف عبدالجليل عبدالمهدي، الجامعة الأردنية، ١٩٩١، مركز ايداع الرسائل.
٢- حمودة (زياد حمودة)، مملكة حمادة في العهد الأيوبي والمملوكي الأول، مركز إيداع الرسائل، الجامعة الأردنية.
٣- زايد (مصطفى زايد)، النثر الفني في عهدي الدولتين الزنكية والأيوبية في مصر والشام، رسالة دكتوراة، إشراف محمود إبراهيم ، ١٩٣، المجموعات الخاصة، جامعة مؤتة.
٤- السامرّائي (ظمياء محمد عباس السامرائي)، اتجاهات الكتابة التاريخية في بلاد الشام في القرن الثامن الهجري، رسالة مقدّمة في الجامعة

المستنصرية، ١٩٨٨.

* القيسي (فايز القيسي)، أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، مركز إيداع الرسائل، الجامعة الأردنية، ١٩٨٦.

د- الموسوعات، والدوريات، والمعاجم :

١- دائرة المعارف الإسلامية، أحمد الشنتناوي، دار الفكر، وزارة المعارف.

٢- لسان العرب، ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، ت٧١١هـ، دار صادر، بيروت.

٣- مجلة الحوليّات السورية، مقال عبد الودود برغوث، «تاريخ حماة»، العدد ١٦، ١٩٦٦.

٤- مجلة، المجلة، عدد ١٢٢، السنة الحادية عشرة، شباط، ١٩٦٧، (مقال الدكتور شوقي ضيف، عصر إحياء التراث).

٥- المعجم الوسيط، إبراهيم أنيس، عبد الحليم منتصر، القاهرة، ط٢، ١٩٧٢.

٦- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، ط٢، ١٩٨١.

٧- مهرجان أبي الفداء، المجالس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، سوريا، ١٩٧٤. وذلك بمناسبة مرور سبعمائة عام على ولادة أبي الفداء.

المحتويات

رقم الصفحة